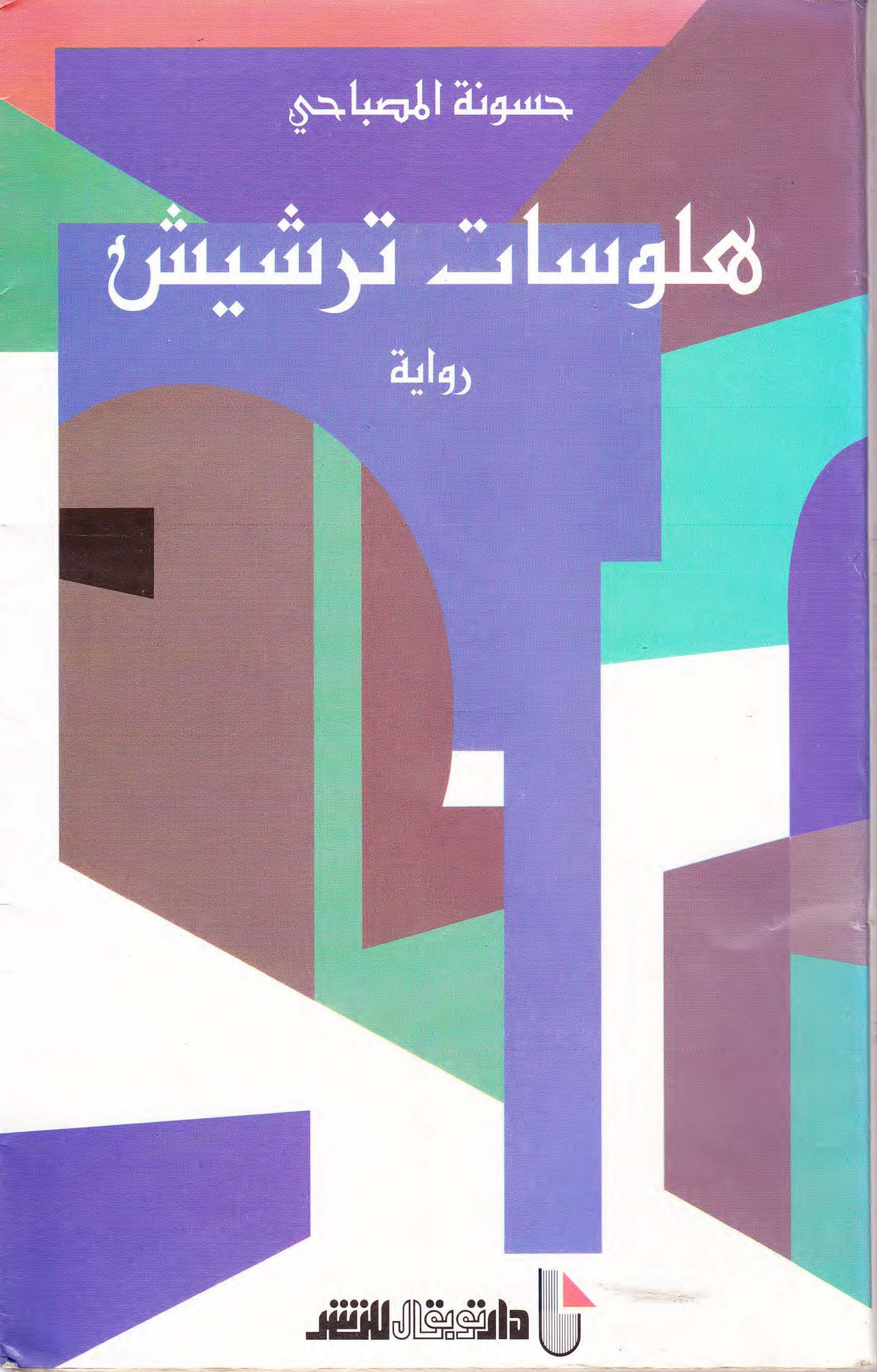


حسونة المصباحي
هلوسات ترشيش
رواية
دار توبقال للنشر

لوحة الغلاف: للفنان بلخوجة

دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي ـ ساحة محطة القطار

بلفدير ـ الدار البيضاء 05 ـ المغرب

الهاتف: 60.05.48

الفاكس: 40.40.38

هلوسات ترشيش

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
نصوص أدبيـة

الطبعة الأولى 1995

رقم الإيداع القانوني: 1995/873
ردمــك : 0 - 28 - 880 - 9981

حسونة المصباحي

هلوسات ترشيش

رواية

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي - ساحة محطة القطار
بلفدير - الدار البيضاء 05 - المغرب
الهاتف: 60.05.48
الفاكس: 40.40.38

إلى أمّي
التي رحلتْ دون أن تتذكر
موضع مولدي

ح٠م

«واسم مدينة تونس في الأوّل ترشيش. وهي دار علْم و فقْه ولي منها قضاء افريقية جماعةٌ كثيرة، ومع هذا الفضل الذي فيها مخصوصة بالقيام على الامراء و الخلاف للولاة، خالفت نحو عشرين مرة، وامتحن أهلُها أيام أبي يزيد الملقب بصاحب الحمار بالقتل والسبي وذهاب الأموال. وقال الجربي صاحب الحدثان:

فَوَيْلٌ لترشيش وويل لأهْلِهَا

من الحبَشّي الأسْود المتغاضب

وقال بعض الشعراء:

لعمرك ما ألفَيْتُ تونس كاسمها

ولكنّني ألفيتُها وهْي تُوحِشُ»

من كتاب **المسالك و الممالك**

لأبي عبيد البكري -الدار العربية للكتاب

(الجزء الثاني- ص 697 و698).

I

خان أجداده البدو في كل شيء إلاّ في حبّهم للترحال والتّيه!

في صباه، كانت أمّه تشير إلى السهل العريض، وإلى الهضاب المسلوخة، ثم تقول:

- لقد وضعتك هناك!

يتأمل هو وجهها الشاحب الطويل، قامتها الفارغة، ملاءَتها الخضراء الباهتة التي تجعلها شبيهة بشجرة زيتون في أيام القحط، ويسأل:

- ولكن، أين بالضبط؟

دائما يدها باتجاه السّهل العريض، والهضاب المسلوخة، تكرّر الأمّ وكأنها لم تنصت الى سؤاله:

- لقد وضعتك هناك!

يسرّح هو نظره حتى الأفق البعيد، هناك حيث تتماوج جبال كأنها سحب كثيفة من الغبار الرمادي، ثم يتشبّث بملاءتها وهو يصيح فيها متوسّلاً:

- ولكن أين بالضبط، قولي لي، أين بالضبط. . . طيّب الله ثرى جدي الكريم!

تسقط الأمّ يدها. تحدّق في الأرض متحيّرة الذهن، ثم تقول وكأنها تتحدّث الى نفسها:

- لا أذكر بالضبط. أنت تعلم أننا مضطرّون لنقل الخيام من مكان إلى مكان حسب الظروف والفصول. وبما أنك ولدت في بدايات الخريف، فإنّي أعتقد أنّي وضعتك قرب زيتونة «الجمل». ولكن. لا. لا. أعتقد في وادي «العفاريت» أو عند سفح الهضبة الحمراء... أو... آ، لقد نسيت. الذاكرة تخون مثلما يخون الرّجال يا ولدي!

ولأيام، يظلّ يطوف في السهل العريض وفي الهضاب المسلوخة بحثاً عن المكان الذي رأى فيه النور أول مرّة. وعندما ييأس من العثور عليه، يعود مرة أخرى ألى أمّه. يتشبّث بملاءتها، ويظلّ يسأل، ملحآً في السّؤال:

- ولكن أين بالضبط. قولي أين بالضبط. بالضبط. طيّب الله ثري جدّتي وأسكنها فراديس الجنان!

ويوماً مّا، وكانت الدنيا خريفاً، والذّباب يطنّ هائجاً، والهواء مثقلاً بغبار أصفر حملته رياح جنوبية حارة، ضاقت به أمّه ضيقا شديدا، فأشهرت هراوة في وجهه كعادتها كلّما غضبت، وصاحت فيه:

-كُفّ عن السؤال يا ابن الحرام، وإلا فلقت رأسك بهذه الهراوة. لقد قلت لك ألف مرة أنّني لا أتذكّر. لاأتذكّر. هل تسمع ما أقول؟!

ظلّ منحشراً في الركن وهو يرتجف من الخوف. وظلّت هي واقفة، صدرها يعلو ويهبط، وفي وجهها الشّاحب الطّويل تلمع حبات من العرق. وقبل أن تلقي بالهراوة بعيدا، أضافت بهدوء، وهي سارحة الذهن قليلا:

-لا أتذكرّ الموضع. غير أنّي أتذكّر جيّدا أن ولادتك كانت عسيرة، وأن سالم الأحمر قُتِلَ وأنا في النّفاس بقنبلة خلّفها الألمان مردومة في الرمل منذ أيام الحرب، وأن دوابّا كثيرة هَلكت بسبب مرض غريب لم يدره أحد!

أرهبته الهراوة الغليظة، وتلك الكوارث المرعبة التي روتها أمّه بعجالة، فلم يجرؤ على إلقاء السؤال مرة أخرى. ومع ذلك، ظلّت المسألة تحفر دماغه حتى وهو متربّع يتلو القرآن أمام المودّب الأعور الهزيل. وأحيانا كان يسلخ نصف نهار بكامله وهو يجوب السهل العريض، أو يتسلق سفوح الهضاب الوعرة، أو يهيم على وجهه في الأودية الرّملية الجافّة بحثا عن رائحة أو عن أيّ أثر يمكن أن يدلّه على موضع ولادته. وذات قيلولة قائضة، تعب من الطواف والبحث، فتمدّد في ظلّ زيتونة «الجمل» وتاه في أمور شتى. تزاحمت الأفكار في ذهنه مثلما تتزاحم الخيول في سباق حفلات الأعراس. وقبل أن تغرب الشمس خلص

الى أن جميع من حوله، الكبار والصغار على حدّ السواء، يجهلون موضع ولادتهم جهلاً تاماً، ولا يعيرون لتلك المسألة اهتماما يذكر. الشيء الوحيد الذي تميل اليه نفوسهم هو المشي.

لذا هم يمشون طول الوقت. في الحرّ كما في البرد. في الجبال كما في الصحاري. في الليل كما في النّهار. يأكلون وهم يمشون. يغنّون وهم يمشون. يتخاصمون وهم يمشون. كلّ شيء يحدث وهم يمشون، أو هم علي أهبة الاستعداد لمواصلة المشي. زينب ابنة خالته وضعت وهي تحصد القمح في عزّ القيلولة. والشيخ الهذيلي مات وهو يأكل الكسكسي ويحادث ضيوفاً له. ومبروك عشق سالمة من عرش المساعيد وهو عائد من سفرة طويلة الى برّ الشمال. والحاج صالح، كما يروون، مشى على قدميه حتى مكة المكرمة ومات هناك بعد أن أدّى فريضة الحج. يمشون دائما وأبداً حتى لكأنّ الريح في أقدامهم. يمشون وهم يتشمّمون روائح الكلأ و الماء تماماً مثلما تتشمّم الذئاب روائح الخرفان. وأبوه يقول دائما: نحن البدو لا نتوّقف عن المشي إلاّ حين نُرمى في القبر!

منذئذ نسي مسألة موضع ولادته، وراح يتيه بخياله بعيدا، حالماً بتلك اللحظة التي ينطلق فيها هو أيضا إلى ماوراء الجبال، ليعود ومعه تلك الحكايات الجميلة عن صبايا يتغطّين بشعورهنّ، ويسرحن حافيات الأقدام في حدائق من الياسمين، تجري فيها أنهار من اللبن والعسل المصفّى.

ثم استهوتْهُ تلك الدّروب. كل تلك الدّروب التي ترسمها قطعان الماعز على قمم الهضاب وسفوح الجبال، أو تحفرها أرجل الرّعاة الغليظة على الحزون وفي أعماق الوهاد والأودية، أو تلك التي تشقّ حقول الزيتون بيضاء متشابكة مثل خيوط العنكبوت، أو تنزل باتجاه العين ناعمة ملساء مثل أقدام الصبايا. غير أنّ أكثرها إثارة لخياله كانت تلك التي تذهب بعيدا إلى ما وراء الجبال والهضاب، هناك حيث يبدأ عالم أخرتهفو نفسه إلى رؤيته دائماً. وهذه كانت لها أسماء تماما مثلما هو الحال بالنسبة للعباد.

فالدّرب المتجه إلى الجنوب كان يسمّى «الدّرب الطويل» لأنه كان يمتدّ مستقيماً حتى يضيع في المدى البعيد. ومن هذا الدرب كان يأتي في أيام الشتاء الباردة متسوّلون ملفوفون في برانس رثّة، كالحة الألوان، على ظهور أحمرة قميئة تكاد تسقط على الأرض من شدّة الهزال والتعب. وحال وصولهم يشرعون في الطواف بين أحياء الدوّار منشدين على أنغام الدّفوف مدائح وأذكارا يخشع لها أهله:

بـحـق الـلـه رجـال الـلّـه أعـيـنـونـا بـعـون الـلـه

□ □ □

مـتـاع الـلـه لـلـه يـامُـوالـي الـدّيـارْ
ضـيـفُ الـلّـه لِـلّـه جـيـنَـاكُـمْ زِيّـارْ

عند الغروب يحمل لهم الناس قصاع الكسكسي و اللحم. وطوال الليل تظل أصواتهم الشجية تعلو وتنخفض مع أنّات الرّيح منشدة على أنغام الدّفوف:

يـا فَـارسْ بَـغْـدَادْ هَـايَـا جـيـلاَنـي
أنْـغَـرْ يَـا صَـدّادْ بَـالَـكْ تَـنْـسَـانِـي

بـالـلّـه يـا نـغّـارْ تـأخـذْ بـيـديّـهْ
سـهّـل لـي الاوْعـار فـي كـلّ ثـنـيـة
عـشـقـي جـا فـي الـطّـارْ وفُـنُـونْ قـويّـه
نـسـمـع الـنـشـاد تَـطْـفِـي نِـيـرانـي

و الدرب الذي يمضي باتجاه الشرق اسمه «الدّرب الأحمر» لأن لون الأرض التي يقطعها يميل قليلا إلى الحمرة. ومن هذا الدّرب كان يفدُ رجال بقامات طويلة نحيفة أو بوجوه حادة كالسكاكين، تشقّها شوارب دقيقة، ولهم عيون صغيرة تلمع بالرّيبة والحذر، وكان الناس يرددون همساً أنهم لصوص من عرش المحافيظ يسرقون الدّواب من العروش الغريبة ويبيعونها في أسواق الشرق بعد أن يصبغوها ويغيروا ألوانها.

والذي ينطلق باتجاه الشمال يسمى «درب الثعابين»، لكثرة هذه السوام في تلك الهضاب و الشعاب الكبريتية التي يخترقها عنيداً مكابراً. ومن هذا الدّرب كان يأتي باعة القطران العابسون علي ظهور بَرَذُونَاتهم القبيحة. وهو كان يكرههم كرهاً شديداً، ويختفي في مخزن التبن كلّما رآهُم قادمِين، ذلك أنّه حلم أكثر من مرّة أنّهم يطوفون به وسط القرية عاريا، مطليّا بالسواد، وسياطهم تفرقع فوق رأسه مهدّدة، والنّاس من حوله يصفقون، ويغنّون كأنهم في عرس.

أمّا «درب الإبل»، أشهرها جميعاً، فهو ذلك الذي يمضي في البداية كسلان متعرّجاً خلل الأودية والأخاديد الواقعة غرب الدوار، ثمّ يرفع رأسه فجأة تماماً مثلما يفعل حصان يتهيّأ للسباق، ويصعد حثيثاً تلك المرتفعات الفاصلة بين عرشهم و عرش المساعيد، ليضيع بعدئذ في غابة «الفج الخالي» السوداء. وقد سمّي كذلك لأنه كان مسلكا لجميع القوافل الرائحة باتجاه الغرب أو العائدة منه. وفي سنوات الجفاف والخصاصة، كانت تلك القوافل تملأ مسرب الإبل بضجيجها وغنائها في الليل والنهار. وهو كان عند مرورها باتجاه الغرب، يتسلق زيتونة «الجمل» العالية، ويمكث هناك بين فروعها، يراقبها وهي تبتعد صاعدة نازلة، حتى تتحول إلى كتلة دهماءَ عليها سحابةٌ من غبار. ثم تظلّ تلك الكتلة ساكنة هكذا في الفضاء حيناً من الزمن كما لو أنها لا تتحرك. وبعدئذ تغيب تماما في ذلك الامتداد القاتم الذي يسمى «الفج الخالي» ولا يتبقى منها غير صدى حركتها الثقيلة، وكأنه هدير واد بعيد.
وعن «درب الإبل» كان النّاس يروون حكايات مخيفة وغريبة. يقولون إنه مسكون بالأغوال والأرواح والعفاريت. وكان الشيخ الأشهب الدائم التّرحال أكثرهم تفنّنا ودقّة في قصّ مثل تلك الحكايات التي تثير مخاوف الكبار والصغار على حدّ السواء: «اسمعوا يا رجال. أنتم تعلمون أنّي منذ سنّ البلوغ ضربت في الأرض شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وأنني سافرت في الليل كما في النهار، وفي الصيف كما في الشتاء. وأنتم تعلمون أنّي لاأخاف أحداً إلاّ اللّه العليّ القدير. غير أنّني لابد أن أعترف لكم أنّني عرفت الخوف أكثر من مرة في «درب الإبل» نعم فقط في «درب الإبل»، وليس في أيّ طريق آخر على الإطلاق!»

يتنحنح الشيخ الأشهب، يتيه بنظراته بعيدا حينا من الزمن، ثمّ يضيف: «ذات ليلة مقمرة يا رجال... كنت أجتاز غابة «الفج الخالي» هادىء النفس، خفيف الحركة. ومن حين لآخر كنت أدندن بأغنية من تلك الأغاني التي تميل إليها نفسي في أوقات السفر. وفجأة خُيّل إلي أنّني أسمع نَهيتَ آدميّ في حالة ضيق. توقّفت عن السير وأنصتُّ. لاشيء غير حفيف أوراق الاشجار ومَهمهة الرّيح في الغابة الكبيرة. عاودت السير بعد أن استعذت من الشيطان. غير أني بعد بضع خطوات فقط سمعت امرأة تستغيث ملتاعة: «بالله عليك يا أخي، لا تقتلني ولا تيتم صغاري.» فتحت الموسى، أشهرت هراوتي، ثم سرت بخطى حذرة باتجاه الصوت. وإذا بالمرأة تعاود الاستغاثة والولولة. لكن من ناحية اليسار هذه المرة. عدت أدراجي. وعادت المرأة تستغيث من ناحية لم أتبيّنها. وقفت وسط الطريق شاهراً هراوتي، وظللت هكذا مدّة من الزّمن و أنا لا أسمع شيئاً غيْر ضربات قلبي. ولما تحركت من

جديد، انطلق صراخُ المرأة قريباً مني إلى درجة أنّني خلته بين قدمي: «بالله عليك يا أخي لا تقتلني ولا تيتّم صغاري».

من الصّعب عليّ يا رجال أن أصف لكم ما أحسست به خلال تلك اللحظات، ذلك أن الخوف كما تعلمون يُعْمي الانسان، ويذهب بعقله وبصيرته: أتذكّر فقط أنّني انطلقت أجري لا ألوي على شيء، وتلك المرأة تستغيث مرة بين قدمي، ومرة ورائي أو قدامي أو على يميني أو شمالي. ولم تنقطع عن ذلك إلاّ حينما نبحت كلابُ عرش المساعيد (يصمت الشيخ الأشهب، يحدق ملياً في وجوه الرجال الواجمين من حوله، ثمّ يواصل): ومرّة أخرى، وكان ذلك في عزّ النّهار، نعم في عزّ النّهار! كنت أسير نازلاً منحدر «الذئاب» الذي يفصل بين شطري «الفج الخالي». وبغتة طلعت عليّ امرأةٌ جميلةٌ لم أرَ مثيلاً لجمالها في حياتي، لكأنها يا رجال نجمة الصبح أو القمر في اكتماله! وكانت تسير مكشوفة الوجه، وخصلات شعرها الفاحم تنزل حتى الحزام. حثثت خطاي حتى صرت إلى جانبها: «أأنت إنس أم جان؟» قلت لها. قالت: «بل إنس من خيرة الأجناس!» سألتها: «من أين أنت و من أنت وماذا تفعلين هنا، وحدك، في هذا الخلاء؟» أجابت: «أنا من عرش المساعيد، وقد خرجت لشأن من الشؤون!» قلت لها: «وكيف يسمح أهلك لامرأة بمثل جمالك وقدّك بالخروج سافرة ولوحدها في غابة موحشة كهذه؟!». ضحكت وقالت: «هذا سرّ لا أبوح به إلى أحد!». ثم راحت بدورها تسألني عن نسبي، وعن حياتي، وأنا أجيبها مستعذبا ضحكتها، وحلاوة لسانها، ورقة صوتها، وجمال مشيتها. ثم لا أدري لماذا خطر على بالي أن أنظر إلى قدميها. عندئذ اكتشفت يا رجال ما أذهلني وروّعني في نفس الوقت: لقد كانت لتلك المرأة الفائقة الحسن، حَافرًا بغْل. نعم يا رجال حَافرًا بغْل. وفي البداية قلت لعلّ الحرّ والتّعب نالاَ منّي، وأضعفا حَواسيّ... فركْتُ عينيّ جَيّداً، وتأملتها من جديد. وإذا بي أجد نفسي أمام كائن غريب له رأس بومة، وحَافرًا بغْل. لا أدري ماذا فعلتُ بعد ذلك. أذكر فقط أنّي حين استعدتُ وعْيِي وجدت نفسيَ ملقى على الأرض، وحولي رجال من عرش المساعيد يرشّونني بالماء، ويبسملون.

خان أجداده البدو في كلّ شيء إلاّ في حبّهم للتيه و الترحال!

كان ينمو بسرعة وسط الحكايات العجيبة. غير أن حكاية جدتهم محبوبة كانت تفتنه أكثر من غيرها. وهم يروونها في كل الأوقات تقريباً، خصوصاً في الشتاء عندما يشتد

البرد، فيلتفون حول المواقيد، أو في الصيف حين يسهرون في البيادر مفترشين الأرض تحت سماء يزينها قمر لا مثيل لبهائه. وهم يقولون «إنه في سنة من سنوات القحط الكبير، حصد الموت خلاله خلقاً كثيراً، حزَم مَا تبقّى من قومهم متاعَهُم القليلَ فوق الإبل والحمير والبغال، وغادروا موطنهم هناك في الشرق البعيد. ساروا الأيام والليالي والأشهر. هاربين من العجاج والجوع والعطش. وذات ليلة استراحوا عند سفح الجبل. وحالما أشعّت أنوار الفجر، نهضوا وتابعوا رحلتهم. غير أن امرأة منهم تُدْعَى محبوبة مات زوجها في الطريق، وخلّف لها توأمين، سعد وسعيد، ظلّت نائمة دون أن ينتبه أحد منهم إلى أمرها. ولما نهضت، وكان الوقت ضُحىً، وجدت نفسها وحيدة في ذلك الخلاء الموحش. ارتاعت المسكينة، فَجَرَتْ مثل المعتوهة في الدّروب، وتوأماها يتناغيان فوق ظهرها. ولما أعياها الحرّ والعطش جلست على حافة الطريق، وراحت تبكي بمرارة لاتضاهيها مرارة. غير أن الله رحيم بعباده، وهو لايضيع أحداً. هكذا، وقبل حلول الليل بقليل، وقف أمام تلك المرأة المسكينة رجل وقور يفيض علي وجهه نور التقوى، وسألها عن أمرها، فقالت له وهي تختنق بدموعها: «لقد ذهبت عني الطريق يا سيدي، وفقدت أهلي وناسي!» ثم قصّت عليه قصتها بكلّ تفاصيلها. وحالما انتهت من ذلك، دعاها ذلك الرجل الخيّرإلى بيته وأكْرَمَهَا، وآنساها غربتها وترمّلها. وقامت هي بخدمته كأحسن وأخلص ما يكون. ولما اشتدّ عود التوأمين دعاهما ذلك الرجل الطيب وقال لهما: «ها قد أصبحتما شابّين تملآن العين. ومنذ هذه اللحظة عليكما أن تثبتا للناس جميعا أنكما فرْعَان من شجرة مباركة»، ثم سلّم كل واحد منهما قطعة من الارض البور ليس فيها غير الشوك والحجر، وقال لهما: «أصلحا هذه الارض أصلح الله شأنكما!». وعمل التوأمان في الليل والنهار، وفي القيظ والبرد، حتى تحولت تلك الأرض الوعرةاليابسة إلى روض كثير النبات، وفير الخيرات. وعندما لاحظ الشيخ الحكيم ذلك، أمر بإحضار التوأمين من جديد. حين مثَلاَ بين يديه، قال لهما: «أمّا وقد وفّقكما الله في ما أمرتما بالقيام به، فإنه يحق لكما الآن أن تنالاَ نصف دينكما!». هكذا زوجهما فتاتين من أقاربه، كاملتي القدّ والجمال، وأقام لهما عرساً ظلّ على ألسنة الناس أعواما طويلة!».

حين يصلون الى هذا الحدّ، يتوقفون عن الكلام، يستوون في جلستهم، يميلون الشاشية إلى اليمين أو إلى الشمال، يرتشفون كأسا من الشاي، ثم يتنهد أحدهم ويقول: «رحم الله جدتنا وذلك الشيخ الحكيم الذي رعاها وكفلها حتى كان منها هذا العرش

الكريم!». وبعدها ترتخي نظراتهم، ويخلدون إلى الصمت أو إلى النوم. أمّا هو فيسرح بخياله بعيداً. . . بعيداً ليري نفسه مثل الجدة محبوبة، ضائعاً في البراري القفراء، فلا إنسان يسير، ولا طائر يطير. لاشيء غير الجحر والاشواك والسراب. ويظلّ يمشي ويمشي. يقطع صحاري وجبالاً وأودية موحشة ليصل أخيراً إلى بلاد الأهوال والأغوال. وهناك يواجه لصوصاً عُتَاة يخطفون حتى أسنان الكلب وهو ينبح، ثعابين تبتلع الإنسان في رمشة عين كما لو أنه ذبابة، تماسيح قادرة على أن تفتك بجيوش السلطان، عجائز شمطوات شريرات يمسخن بني آدم إلى قرد او الى جرذ. وأخيراً يغمد سيفه في الغول بعد صراع مرير، ويعود على ظهر حصان أخضر، له جناحان من نور، ومعه الأميرة التي تتغطى بشعرها، والتفاح الذي يفوح ويعيد الشباب لفاقديه، والروح للأموات.

خان أجداده في كل شيء إلاّ في حبهم للتيه والترحال!

في الصباحات الباردة، يسير باتجاه دار المؤذب وهو يرتل بصوت خفيض: «سبحان الذي أسرى بعبْده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. . .». ويظل يردد هذا الكلام الغامض العجيبَ حتى ينسى البردَ تماماً، الصبارَ الشائك، المؤدبَ الأعور الكئيب، عصاه التي تشطح فوق الرؤوس طول الوقت، ويرى نفسه واقفاً في الخلاء، وأمامه فرس خير من الدنيا وما فيها، لها وجه كوجه آدمي، وعُرْفٌ من اللؤلؤ الرطب منسوج بقضبان الياقوت يلمع بالنور، وأذناها من الزمرّد الأخضر، وعيناها مثل كوكب دريّ يوقد لها شعاع كشعاع الشمس، شهباء، بلقاء، محجّلة الثلاث، مطلوقة اليمين، عليها جلّ مرصّع بالدرّ والجوهر. ثم يأتيه صوت لايتبين مكانه ليقول له: تقدم واركب! فيتقدم ويركب. ويحلق به الفرس أول الأمر وراء الجبال المحيطة بالدوّار، فيرى الناس صغاراً في حجم النّمل، ثم تصعد به في رمشة عين إلى السماء السابعة. عندئذ ينظر هو تحته فيرى الأرض وكُلٌّ من عليها صغيرة مثل قطرة من الماء.

ثم كانت رحلته الأولى: وقفت أمّه أمام العتبة، وراحت تتمتم بالصلوات. قفز أبوه بخفّة فوق ظهر بغلتهم الشهباء، وبعد أن أمْلَى وصاياه، وأصدر أوامره بشأن الدواب وشؤون البيت، أردفه وراءه وانطلَقَا. خلفهما دلَقَتْ أمُّه سطْلَ ماء دون أن تنطق بكلمة. عند طرف الدوار وجَدَا الرجال الآخرين ينتظرون على ظهور بغالهم. سارت البغال في درب الإبل على مهل. كان النهار الخريفيّ يشرف على نهايته، وظلال المساء تغطي الوهاد

وسفوح الهضاب والجبال. في الهواء رائحةُ التّين الوحشي النّاضج والأرض التي تعرّت بعد الحصاد. وقبل أن يتجاوزَا تلك الأودية الغمْراء التي تفصلهم عن عرش المساعيد غربت الشمس، وراحت العتمة تتكاثف شيئا فشيئا حتى تحولت الهضاب والجبال من حولهم الى أشباح هائلة معلّقة في الفضاء. وفي إحدى المنعرجات، داهمتهم كلاب شرسة، وراحت تنبح غاضبة، غير أن الرجال لم يعيروها أيّ اهتمام.

واصل مبروك ولد عامر حكاياته ونوادرَه عن جده البخيل. وكانوا هم يهتزون فوق ظهور بغالهم من شدة الضحك. ومن وقت لآخر، كان أحدهم يصيح: «زدنا يا مبروك. . . زاد الله في عمرك ورزقك!».

ثم بدأوا ينزلون منحدراً وعراً. لفحهم نسيم بارد مفعم برائحة الصنوبر والعرعر والشيح. كفّت البغال عن هملجتها المريحة، وراحت تسير بأناة وحذر. وبعدها استقام الطريق. على جانبيه تراءت له أشباح أشجار ضخمة تلتفّ ببعضها بعضا، وتتعانق فوق رؤوسهم من حين إلى حين.

راحوا يغوصون في الغابة. وكلّما ازدادوا توغّلا فيها ازداد الهواء برودة. ومع تقدم الليل، فتر حماس مبروك، وأخذت نوادره تقلّ وتتباعد إلى أن نضبتْ تماما. وركن أبوه وجميع الرّجال إلى الصّمت، ولم يعد هو يسمع غير صوت حوافر البغال فوق الأرض الصّلبة، وتململ الليل عبر الغابة المترامية الأطراف. ثم راح الصمت يكبر ويتّسع حتى أحسّ هو أنّ أباه والرجال الآخرين قد انفصلوا عنه انفصالا تامّا، وتركوه يسبح وحيدا في الظلمة اللاّمتناهية. فجأة حدثت ضجة غريبة، غير أنها سرعان ما تلاشت تماما. ومن جديد ساد الصمت. بعد قليل بدأت الغابة تتحرك بشدّة كما لو أنّ خيولاً هائجة تخترقها راكضة. من حوله ارتفعت أنّات موحشة، ورغاء حزين كأنه رغاء الإبل عند الذّبح. وعندئذ بدا له أنّ الظلام من حوله امتلأ بتلك الأرواح والغيلان والسّعالى التي طالما تحدثوا عنها أمامه. وحين همّ بالصّراخ من شدّة الرّعب، سمع مبروك يقول:

-لقد طلع الفجر يا رجال!

وكان لا يزال يطوف مع أبيه في قرى الشمال، من حين لآخر، على ظهر بغلتهم الشهباء، حين وقع في غرام كتب الجغرافيا.

أغسطس. الآفاق البعيدة تبدو كما لو أنها تشتعل في حمّى السّراب. الدّوار يلهث مادّاً لسانه مثل الكلاب السائبة. أبوه يشخر عالياً في ركن الخيمة. أمه ترحي القمح مردّدة تلك

الأغاني الحزينة التي تذكره بحركة القوافل وهي تمضي ثقيلة، بطيئة باتجاه الشمال. يعلم جيّدا أنها سوف تنخرط في البكاء بعد قليل. يتراكم الحزن في قلبه مثل غبار الدروب، فينسلّ بحذر شديد ومعه كتاب الجغرافيا الضخم الذي أهدوه إياه عقب نجاحه الباهر في امتحان آخر السنة. يتمدّد في ظل زيتونة«الجمل». آه. كم هي رائعة تلك اللحظة التي يلامس فيها جسدُه الرملَ الباردَ، بينما فوقه توشوش الأغصان بتلك الأنغام الشجية التي تنسيه أغاني أمه المثقلة بالأسى واللوعة. ثم يفتح الكتاب، وفي الحين ينسى كل شيء. يتيه في البلدان، والبحار، والمحيطات، والأدغال. هناك قريباً من الذراع الذي تمدّه بلاده باتجاه البحر، جزيرة صقلية. لها شكل جلد الخروف الذي تفرشه أمه للضيوف. أمّا جزيرة سردينيا فلَها شكلُ سلحفاة عجوز. فوق، جبال الألب مغطاةٌ بالثلوج، وعلى سفوحها تهدر جيوش حنبعل مثل العَواصف الهوجاء. على يساره، جبل طارق. يرتفع الصوت الحازم الشجاع: «البحر من ورائكم. والعدو أمامكم.». بعده ينبسط برّ الأندلس مضرّجا بدماء العرب المهزومين. تحت، مراكش الحمراء، والسلاطين الملثمون، وطرق تومبكتو. ويظلّ يردّد تومبكتو، تومبكتو، تومبكتو، كما لو أنه يردّد أغنية محببة إلى نفسه. وخلل طرق الصحراء، التي تتشابك أمامه، قوافل زنوج يهزجون، وأسنانهم تلمع مثل النجوم في الليل البهيم. ينزل قليلاً فيشمّ رائحة أدغال إفريقيا، حيث التماسيح والأسود حرّة كما الأحمرة في دوّارهم. في قلبها بلاد الكونجو منتفخة كما لو أنها جثة غول. وهناك بعيدا، بعيدا، مضيق ماجلان، حيث العواصف العاتية على مدارالعام، والرجال العمالقة. الواحد منهم بإمكانه أن يأخذه في كفّه كما لو أنه حبّة رمل. وبعد أن يسرح قليلاً في تلك الجزر والبلدان الواقعة عند حافة الأرض، استراليا، الفيليبين، سنغفورة، ماليزيا، سيلان. ينظر إلى يمينه فيرى النيل يتهادى عبر الصحراء.

وغير بعيد عن أرض الوحي والأنبياء. سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. يطيل التأمل باحثا عن آثار لتلك القصص العجيبة التي يرويها القرآن. هناك رمَى مُوَسى عصاه فاستوت حيّة. وهناك الجبّ الذي ألقي فيه يوسف. وهناك همّ إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل. وهناك النخلة اليابسة التي أوت إليها مريم ساعة المخاض. وهناك بئر زمزم وغار حراء حيث كلَّمَ جبريلُ الرسولَ في الفجر، فعاد إلى خديجة محموماً وهو يردّد: زمّليني، زمّليني.

ومرة أخرى يعاوده حلم قديم فيرى نفسه مسافراً في الأرض، ماسِكاً بعَصاً مثل عصا

موسى. فإذا دخل مفازة ليلا، أضاءت له الطريقَ على مدّ البصر. وإذا عطش. دلاّها في البئر، فتخرج وفي رأسها دلو، فيسقى بها. وإذا احتاج إلى طعام ضرب الأرض فإذا أمامه مائدة عليها ما لذّ وطاب. وإذا ما اشتهى فاكهة غرسها في التراب، فتخرج شجرة تثمر في الحين. وإذا مرّ بجبل وعر، ضربه، فتفرج له الطريق. وإذا ما أراد أن يعبر نهراً ضرب بها عليه فتنبسط الأرض أمامه. وإذا ما أعياه السّير، ركب العصا فتحمله إلى أيّ موضع يشاء من غير ركب ولا تحريك.

وكان لا يزال سادراً في أحلامه تلك، حين التفّ به فتية الدوار:

- أرْوِ لنا ما قرأتَه في هذا الكتاب!

أزير الصّراصير. الدوار يتقلّى في الصّهَد. العيون تتلامع مثل الحباحب في العتمة. أسند ظهره إلى جذع زيتونة«الجمل» وأغمضَ عينيه نصف إغماضة كما يفعل أولئك الرواة الذين يمرّون بالدّوار من حين إلى حين: «وأمّا الإسكندرية يا أولاد فقد كانت لشدّة بياضها لا يكاد يبين دخول الليل فيها إلا بعد وقت، فكان الناس يمشون فيها و في أيديهم خرَقٌ سودٌ خوْفاً على أبصارهم، وعليهم مثل لبس الرهبان السّوداء. وكان الخياط يدخل الخَيط في الابرة بالليلَ. ولمّا أرادوا بناءها ساخَ ما بنوه في الأرض. فلما حاولوا مرة أخرى، وقع ما كان قد حدث من قبل. ومكث الأمر على ذلك الحال مائة سنة حتى ضاق الناس ذرعاً، ولم تعد لهم طاقة على احتمال ما يقع. وكان من أهل تلك الارض راع يرعى على شاطىء البحر. وكان يفقد في كل ليلة شاة من غنمه إلى أن أضرّ به ذلك. فارتصد ليلة. فبينما هو يرصد، إذ بجارية قد خرجت من البحر كأجمل ما يكون من النساء، فأخذت شاة من غنمه. فبادر إليها، فأمسكها قبل أن تعود إلى البحر. قبض على شعرها فامتنعت عليه ساعة ثم قهرها، وسار بها إلى منزله فأقامت عنده مدّة لاتأكل إلا اليسير، ثم واقعها فأنسَتْ به وبأهله وأحبّتهم ثم حملت وولدت، فازداد أنس الناس بها. ولمّا شكوا إليها يومَا ما يقاسونه من تهدّم بنائهم وسيخانه كلما علّوه، و من اختطافهم ليلا إذا خرجوا، عملت لهم طلسمات، وصوّرت لهم الصور، فاستقرّ البناء وتمّ أمر المدينة. وأما إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، فقد ذكروا أن الذي بناها هو ملك جبّار من كبار الجبابرة يدعى شداد بن عاد. ويقال إنّه لما سمع بالجنة وما أعدّ الله فيها لأوليائه من قصور الذهب والفضة والمساكن التي تجري من تحتها الأنهار، قال لكبرائه: «إنّي متّخذ في الارض مدينة على صفّة الجنّة». ثم اختار أرضا طيبة في بلاد اليمن وجمع الفضة والذهب والياقوت والدرّ و المسك

والعنبر و الزعفران حتى كان له منها مثل الجبال. ثم بنى بذلك تلك المدينة التي يسمونها إرم ذات العماد».

حين سكت، رأى في عتمة الليل، الذي كان قد هبط منذ زمن بعيد، الفتية مُكوّمين من حوله وقد جمّدهم الذّهول حتى بدوا مثل كدس من ثياب مهملة. بغتة أضيئت المصابيح، وارتفعت جلبة وضوضاء ونداءات ممزوجة بنباح الكلاب: كان الدوار قد خرج بكل من فيه للبحث عنهم!

في الخامسة عشر من عمره، شاهد البحرَ للمرّةً الأولى. ومنذ ذلك الوقت سحرته زرقة البحر، وموسيقى الأمواج المتلاطمة، حتى أنه أصبح يشعر بوحشة الغربة كلّما عاد إلى الدّوار. و مع مرور الأيام، ازداد إحساسه بالغربة، واشتدّ ضيقه برياح السموم، بالذباب، بالصقيع، بالجراد، بالغربان الناعقة على قمم الهضاب العارية، بالشّعاب الوعرة حيث تَفُحُّ الثعابين عند اشتداد القيظ، بالقمّل الذي يرتع في رؤوس الصبيان الوسخة، بالسّعوط الذي يحشيه البدو في أفواههم وأنوفهم، بالقحط الذي يفتك بالدوابّ والعباد، بالغبار الأصفر الذي يعمي العيون في آذار.

ثم استهواه البحر مرة أخرى، فهجر الناس، وتحصّن بالصمت. تاه في البريّة وحيدا، شاحب الوجه، ذابل الروح، وليس معه غير كتبه وأحلامه. ولمّا صعد إلى المدينة الكبيرة أول مرة، في ذلك الباص القديم المملوء بالبدو، وبرائحة المازوت، والعرق والبؤس، أحسّ وهو يتأمل، في النافذة المهشّمة، البحرَ وحقولَ العنب في أرض الشمال. إنّه سيضرب في آفاق أخرى بعيدة لم يعرفها أجداده البدو من قبل أبداً.

ثم كان الانفصال! دخل المدينة الكبيرة من بابها الجنوبي ذات ظهيرة خريف صفت سماؤُها وطاب هواؤها. وحالما وضع حقيبته في الحي الجامعي، تاه وحيدا في مكتبات «باب البحر» وراح يتحسّس بشيء من الوله كلّ تلك الكتب التي سمع عنها ولم يقرأها بعد. «سفرة في آخر الليل»، «البحث عن الزمن الضائع»، «أناشيد مالدورور»، «صورة الفنان شاباً»، عليَّ أن ألتهمَ كلَّ هذا وبسرعة! قال وهو يحمل رزمة الكتب إلى الغرفة الصغيرة التي يتقاسمها مع طالب هائل الجثّة يدعى جُمعة. كان لا يملّ من قراءة مذكرات شي جيفارا و«الكراسات الفلسفية» لما وتسي تونح، ويحلم بثورة «ترفع الفلاحين والعمّال إلى السلطة» حسب تعبيره. أمّا هو فكان يحرص على أن يقول لنفسه، وهو يستمع إلى خُطَب جُمعة

الحماسية: أمّا أنت أيها البدوي، فعليك أن تعمل لتكون كاتباً، أليس هذا هو هدفك منذ أن عشقت كتبَ الجغرافيا الملونة وأساطير المدن القديمة؟! وبعد أن يتمدّد، يغمض عينيه ويتيه بخياله بعيداً ليرى كتبه تتصدّر واجهات المكتبات الكبرى، و الناس يتدافعون بالمناكب لشرائها، وهو جالس في مقهى «باريس»، بين أعيان المدينة، يدخّن الغليون، ويردّ على أسئلة الصحافيين بهدوء ورصانة، وحين يوغل بعيداً في أحلامه، كان جمعة يصرخ فيه غاضبا:

-أنت خائن لطبقتك، وعليك أن تخجل من نفسك!

ثم التقى ياسين، ومثله أحب المكرونة بالصلصة الحارّة في مطاعم المالْطيّين، «الكوديا»، و حكايات العم محمود في بار الميناء، بنات المرسى وحلق الوَادي بمايوهات الشاطىء في الصّيف، أفلام إيزنشتاين، دي سيكا، برجمان، بازوليني، جَان لوي جودار، يوسف شاهين . . . قصائد بودلير، رامبو، أبي نواس، لوركا، ياسنين، ماياكوفسكي، إيلوار، أدونيس، هذيان مارسولت على شاطىء الجزائر، وبلوم في مواخير دبلن، وركنتان في الضباب. مثل ياسين أيضاً عشقَ أغاني اليهود والهادي الجويني وصليحة. «بالله يا حمد يا خويا، يا راكب العتيل».

غير أن عشقه للتّيه ظلّ أقوى من كلّ شيء. وحين أحس أن المدينة الكبيرة، والبلاد بأسرها لم تعد تسع أحلامه وجنونه، قال لياسين وهما يشربان البيرة على مهل، في مقهى «الزنوج» ذات ظهيرة مثقلة بالضجر:

- سأرحل!

- إلى أين؟!

- الغربة لا تكون إلا غربيّة!

- و الشرق؟

- أشمّ فرج عجوز تقيح وتعفّن.

ثمّ قطع البحر. ومرة أخرى كان الانفصال.

لسنوات طويلة ظلّ يتيه من برّ إلى بر، تماماً مثل أبطال الرحلات في الكتب القديمة.

في باريس بحث عن بقايا السورياليين، وعشق شانتال التي كانت تحلم بالعيش بين قبائل الطوارق. في مدريد، التقى آخر الليل عجوزاً هرماً روى له بالتفصيل مقتل لوركا كما لو أنه تابعه لحظة بلحظة. في دبلن، شرب البيرة السوداء حتى أصبح يهذي مثل أبطال جويس. في أمستردام عشق صبيّة شقراء تحبّ الحشيش وأغاني البربر وموسيقى الريجي. في نيويورك عاشر الزنوج وتقفّى آثار هنري ميللر في بروكلين. في روما تقاسم مع الصّعاليك النبيذ الرديء و الجبن المتعفّن. في كوبنهاجن سمع أن قوات الأمن في بلاده قتلت مئات الأشخاص خلال مواجهة مع اتحاد النقابات. في روندة عاش أياما هادئة في نفس الفندق الذي كان يرتاده راينار ماريا ريلكه. في براغ، راودته كوابيس كافكاويّة. في أثينا حلم بسقراط في زيّ إمام الدوّار يطارده بهراوة في الخلاء، وهو يصيح: عد من حيث أتيت، عد من حيث أتيت أيها الوغد! في برلين أدرك المعنى العميق لتشاؤم شوبنهاور: الحياة مثل بندول، تتأرجح بين اليمين والشمال، بين الألم والقلق.

ظلّ ممعناً في التّيه، مستسلماً إلى المغامرات، مكتفياً بتلك الرّسائل القليلة التي تردُ عليه بين وقت وآخر، مبلّلة بدموع أمّه. ولكن في القطار السريع الذي حمله من فيينا إلى ميونيخ، وخزه ألمٌ قديم في الحين نسي جبال النمسا، وغاباتها الداكنة، ورأى أباه ملفوفاً في الكفن الأبيض، وهو واقف وسط عجاج أيلول، وهم يمرّون بوجوههم اليابسة وبرانيسهم الثقيلة متمتمين: «البركة فيك، البركة فيك». وهناك بعيداً كانت أمه تنوح محاطة بأختيه وبنساء القرية. ولأول مرة بدا له أنّها تحبّ أباه أكثر من أيّ وقت مضى. وعندما كان يشدّ على تلك الأيدي الغليظة الخشنة، حاول عبثاً أن يستجلي معنى ذلك السرّ الذي يجعل الموت وحده قادراً في ذلك البرّ القاسي على كشف الحبّ الدفين في أعماق تلك الكائنات المحيطة به. البركة فيك. البركة فيك. تتمتم الشفاه الغليظة المجرّحة وهو واقف وسط العجاج والألم ورائحة الموت. من حوله هضاب جرداء، وأرض تئن تحت وطأة القحط. عند هبوط الليل، اشتدّ عويل الريح، وأرسل الدوّار نحيباً مفعماً بالتوجّع والأسى. تحلّقوا حول الشيخ الصّافي وراحوا يرتّلون القرآن. رؤوسهم تتمايل ذات اليمين وذات الشمال. هو في الركن هامد لا يتكلم. وهم يرسلون أصواتهم بطيئة مرة، وسريعةً مرة أخرى. مع تقدّم الليل، ازرقّتْ وجوههم من السّهر والأعياء، فبدوا في ضوء المصباح الشحيح شبيهين بحشرات ضخمة مخيفة. بعدها اختلطت أصواتُهم اختلاطاً عجيباً حتى لم يعد يميّز ما يقولون. عندئذ داهمته أوجاع حادة في بطنه، واستبدت به الرّغبةُ في التقيّؤ. اندفع إلى الليل. ووسط

قبالة الرّيح راح يقذف من بطنه سائلاً مرّاً. ثمّ شعر بالقنوط والوهن، فاستند إلى جذع زيتونة، وظلّ على ذلك الوضع حتى طلوع النهار.

عند الضحى، وضعوا نعش أبيه فوق أكتافهم وساروا باتجاه المقبرة منشدين في خشوع: «رحمان يا رحمان، هذا عبدك، واليوم يا رحمان قاصد فضلك!». راحت أمه تتخبّط على الأرض ملتاعة، وظلّ نواحها يخفق في الهواء المغبّر مثل فزاعة حتى اقتربوا من المقبرة.

بعد الدفن بيوم واحد فقط، فرغ البيت من المعزّين. ظلّ هو وأختاه وأمّه وحيدين وسط الفراغ ووحشة الفراق. كان ذلك أشدّ وطأة على نفسه من كل ما سبق. راح يدور في الباحة مدخّنا السّيجارة تلو السّيجارة. أمّا أمّه وأختاه فقد لازمْنَ الغرف. و من حين لآخر كان يسمعهنّ وهنّ يطلقن التنهيدة تلو التنهيدة، أو يشهقن بالبكاء. عند المساء دخل غرفة أبيه. وفي الحال، غمرته تلك الرائحة التي تعوّد عليها منذ صباه. رائحة قويّة فيها شيء من روائح البقر والأرض اليابسة. على الجدار، هناك قرب النافذة المطلّة على الهضاب العالية، كانت ثيابه معلقة: الجبّة الرمادية، السروال التركي الفضفاض، البرنس البنّي. أمّا عكّازه فكان ملقى هكذا على الأرض بشيء من الإهمال. وبدا له أنه أكثر إحساساً باليتم منه. أمسك به وراح يداعبه. وعندما أحسّ أنّه ظلّ حزيناً بارداً، علّقه مع بقيّة الثياب. وقبل أن يغادر الغرفة، سقطت منه دمعة ضخمة باردة كانت الأولى والأخيرة.

يوم أحد. أكتوبر يتمرّغ في شارع الأتراك وسط ميونيخ كما يتمرّغ الحمار في الرمل، ويرسل نحيباً موحشاً عبر الأشجار التي تعرّت إلى ما يقارب النصف تقريباً. وهو جالس في مقهى «أدْرِيَا» يرقب الشارع المقفر أو يكاد، مرتشفاً «الكابوتشينو» بتأن، ملقياً بين الحين والحين نظرةً لاَ مبالية على الصحيفة التي أمامه. في الركن فتاة شقراء جميلة بتنّورة سوداء قصيرة، وبيلوفر أزرق داكن، تشرب هي أيضا قهوتها بهدوء، وتقرأ كتاباً ضخماً عن حياة بيكاسو. بين وقت وآخر، تتوقف عن القراءة، وتتفحص الوجوه بشيء من الفضول. شفتاها المكتنزتان، وجهها المتفتح مثل وردة في أول الربيع، عيناها الزرقاوان المتألقتان، حركتها الأنيقة. كل شيء فيها يدلّ على أنّها عاشقة ومرتوية. حين تتحرك، يتراقص النهدان تحت البلوفر الأزرق، أكيد أنّها بلا رافعة. آه. لو يدخل يده إلى هناك ويتحسس كلّ تلك الرمان الدافىء الصلب حتى ينسى وحشة أكتوبر وألمَ الموت البعيد!

إلى جانب الفتاة، يجلس شيخ في السبعين تقريباً. التجاعيد العميقة، العينان

المنطفئتان المتعبتان، الأنف الضخم اليابس، الفم المحفور مثل جرح، رباط العنق المتدلّي كطائر احترق على أسلاك الكهرباء، و كلّ ما تبقى يؤكّد أنه يعيش وحدة قاسية منذ أمد طويل. حين ينظر إلى الفتاة، يضطرب قليلاً ويزداد وجههُ شحوباً. وربما لكي يتمكن من مقاومة التوتّر الذي يعانيه، كان يدخّن، ويطلب الكونياك باستمرار. فجأة، مدّ عنقه باتجاه الفتاة، وقال:

- عفواً.

ثم همس لها بكلام لم يستطع أن يتبيّنه. ضحكت الفتاة، واحمرّ وجهها قليلاً. واصل هو همساته، مادّاً عنقه دائماً، متابعاً التّدخين، وشرب الكونياك بنهم. ثم بدا على وجه الفتاة شيء من الأهتمام، فأغلقت الكتاب، وراحت تنصت إلى العجوز وفي عينيها تلك الدّهشة الجميلة. دهشة الأطفال. ظلّ هو يهمس ويقترب. يهمس ويقترب منها. حتى التصق بها تماماً وعندئذ أمسكَ يدها، وبهدوء طبع عليْها قبلة طويلة. وحالما أكمل، نظرت الفتاة إلى السّاعة، ثم سارعت بإلقاء الكتاب في حقيبتها، وبارتداء معطفها:

- عفوا. لا بدّ أن أذهب. عندي موعد. وفي رمشة عين اختفت.

ظلّت المقهى مملوءة برائحتها وصورتها. وظلّ العجوز ينظر إلى الشارع المقفر كما لو أنّه ينظر إلى نعْشه، وأمامه كان كأس الكونياك فارغة، و السيجارة تحترق على حافة المنفضة. بعدها نهضَ بصعوبة. لبس معطفه. دفع، ثم تحرّك يريد الخروج. وقبل أن يصل إلى الباب، عثر في كرسيّ، وسقط هكذا على وجهه، وهو يئنّ. أحاط به الجارسونات والزبائن. أمّا هو، فقد هام على وجهه، ونفسُه مثقلةٌ بكآبة مثل الظلام.

عندما كان يتنقّل من بار إلى بار، انتبه لأول مرّة إلى أنه هو أيضا بدأ يشيخ ويتعب، وأن كل شيء يذبل فيه، ويسقط منه بسرعة: شعر رأسه، الآمال التي هزّته أثناء سنوات الطلب في الجامعة، الأفكار الجميلة التي راودته وهو يقطع الدروب مسلّحا بعصاً ضدّ الكلاب، وليس في محفظته غير قصائد الشابي، وكسرة خبز يابسة. ذلك الزهو الذي استبدّ به لمّا دخل لندن مفلساً عند منتصف الليل تحت ثلوج ديسمبر. وفي رماد الصباح، رأى وجهه في المرآة مهدّما مثل واجهة بناية قديمة متروكة، عندها قال «أعتقد أنّني أحتاج إلى استراحة، بعد هذا التّيه الطويل.»

عقب ذلك بأسبوع فقط، دخل بلاده مثلما يدخلها الغريب الضالّ.

II

علّمه ترحاله الطويل أن يمقت الحنين، دموعَ الحنين التي يذرفها المهاجرون حالما يفكّرون في الوطن او يشمّون رائحته، عناقات اللقاء أو الفراق، العواطف المبلّلة بالشوق، المناديلَ الذي يلوّح بها المودّعون. وربما لكي يتحاشى كل هذا، قرّر، وهو يتأهّب للعودة، ألاّ يعلم أحداً بالأمر. بل وفكر أنّه من الأفضل أن يتخفّى عن الأنظار لمدة أسبوع أو أكثر، في فندق صغير على البحر، تماماً مثلما يفعل سائح أجنبيّ يرغب في الاستراحة من عمل مرهق، أو في التخلّص من تبعات عاصفة عائلية مدمّرة. والآن وهو واقف في الطابور الطويل، في انتظار ختم جوازه، راح يحث نفسه على الالتزام بتلك القرارات التزاماً دقيقاً. قدّامه ووراءه، نساء سمينات قصيرات، ملطخات الوجوه بالمساحيق، مثقلات الأيدي والأعناق بالأساور و القلائد الذهبية والفضية، رجال ببطون منتفخة ورؤوس صلعاء يتختّون بشراهة، ويتحدثون بأصوات عالية. آخرون بوجوه رصاصية، وأجساد حرقتها سنوات الغربة الطويلة، يتطلعون إلى باب الخروج بلهفة شديدة، وعلى طول الطابور رجال شرطة يروحون ويجيئون، متفرّسين في الوجوه، كما لو أنهم يبحثون عن مجرمين فارّين.

– أهذا كل ما عندك؟ سأله شرطي الجمارك بنوع من الاستغراب.

– هذا كل ما عندي! أجاب هو.

وكأنّه لم يصدّق أن يتغرّب إنسان طيلة عشرة أعوام ليعود بذلك الشيء القليل القليل، وراح شرطي الجمارك يقلب من جديد محتويات الحقيبة الصغيرة: بنطالان، ثلاثة أقمصة،

بلوفران، معطف مطري، ثياب داخلية، أدوات التنظيف، سترة دجينز، آلة تصوير، علبة أسبرين، دفتر صغير، رواية «الأبله» لدستويفسكي. أمسك شرطي الجمارك بالكتاب بحذر شديد، كما لو أنه ثعبان مسموم، ثم نادى على ضابط كان يراقب عملية التفتيش من بعيد، لكن بانتباه خاص، وهمس له بشيء ما. تفحصه الضابط بارتياب واضح. وبعد أن قرأ الملخّص الذي على الظهر، رمى بالكتاب في الحقيبة، ودون كلمة أشار عليه بالمرور.

كان فندق «ريتزا» الذي اقترحه عليه سائق التاكسي العجوز، أنيقاً هادئاً، بحديقة مرتبة ترتيباً مقبولاً. ومن الغرفة، كان باستطاعته أن يسمع صخب البحر هناك، عند أسفل الهضبة الصغيرة. وهذا ما كان يتمنّاه بالفعل. مكث في الحمّام أكثر من نصف ساعة. وبعد أن حلّق وتعطّر، لبس ثياباً خفيفة، ثم وقف أمام النافذة العريضة، متطلعاً إلى المدينة، هناك، بعيداً. ومن أوّل نظرة، بدا له أنّها اتّسعت اتساعاً مخيفاً، واكتسحت جنان الزيتون والبرتقال وكلّ الهضاب الخضراء التي كانت تحيط بها قديما. وفي الضوء الخريفيّ الكابي، تحت أعمدة الغبار الأصفر التي تتمدّد فوقها، بدت له بشعة، موحشة، كما لو أنّها مدينة في قلب صحراء. «حين تعودُ سوف تجد هذه المدينة مقبرةً هائلة للأحياء. أمّا أنا فلن تعثر لي على أثر!» قال له ياسين ليلة الوداع قبل عشرة أعوام بالضبط.

اكتأب قليلا وهو يتذكّر ذلك. وحين سرّح بصره من جديد في المدينة المترامية الاطراف، هزّته رجفة عنيفة. تُرى هل أصبح ما قاله ياسين حقيقة؟ ياسين. الوحيد الذي ظلّ يرافقه خلال أسفاره تماماً مثل ظلّه. الآخرون كانوا يطلّون عليه من حين لآخر من كوّة الماضي، بملامح غائمة، أما هو فكان حاضراً طول الوقت، حاضراً بضحكته المرّة الساخرة، بجسده الأسمر النحيل، بصوته الأجش، صوت الرعاة الجياع كما كان يقول، وحزنه الذي لا يشبهه حزن. وكم مرّة فكّر أن يكتب إليه وهو جالس في بار معتّم، والثلج يتهاطل بغزارة، أو يتأمّل الرّبيع وهو يصارع الشتاء الضاري، غير أنّه سرعان ما كان يرتدّ عن ذلك، ويلقي بالورقة بعيداً، حرصاً منه على أن يمضي في المغامرة حتى أقصاها، رافضا الاستسلام لأي شكل من أشكال العاطفة، ياسين. ترى أين هو الآن؟ كم يشتهي أن يراه. غير أنه لا يريد أن يرتمي على ماضيه بلهفة كما يرتمي العطشان على جرّة الماء. نعم، لا بدّ أن يكون الأمر على هذه الصورة. ألم يقل لياسين ليلة الوداع في مقهى «الزنوج» بأن الشرق لا يصنع الأفراد بل القبائل، وأنه قرّر أن يتغرّب حتّى يحسّ بفرديّته كما يجب، وعليه أن يثبت لنفسه ولياسين أيضاً بأنّ الجهد المضني الذي بذله لبلوغ ما كان يصبو إليه لم يذهب هباء. ثم إنّه

شديد الفضول لمعرفة النتائج التي يمكن ان تفضي إليها تجربة إنسان مثله يدخل بلاده بعد غيبة طويلة، تماماً مثلما يدخلها السائح الأجنبي. وبعد كل هذا، هو بحاجة إلى راحة حقيقية. لذا سيكون ممتعاً و مفيداً بالنسبة إليه أن يتمشّى على الشاطىء ليْلاً. وفي الصباح الباكر، يعيد قراءة رواية «الأبله» للمرّة الثالثة، ويسجّل في دفتره الصغير تلك الخواطر التي ترد على ذهنه بين وقت وآخر. ثُمَّ بهدوء، ودون أي اندفاع عاطفي، يلج المدينة ويلتقي بأصدقاء الماضي.

عند حلول الظلام، نزل إلى بهو الفندق. كان هناك بعض السيّاح الفرنسيين يشربون الشامبانيا، ويثرثرون حول الطقس، وحول رحلة قاموا بها إلى جنوب البلاد. لأكثر من نصف ساعة، ظلّ ينصت إلى أحاديثهم السخيفة، وقهقهاتهم المزعجة. بعدها تناول العشاء في ركن قصيّ وهو يتأمّل النجوم واللّيل الخريفيّ. حين انتهى من شرب القهوة، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة. دخّن سيجارة، شرب كونياك، ثم صعد إلى الغرفة. وفي الحال أطفأ النور، راغباً في النّوم.

ساعة كاملة وهو يتقلّب في الفراش دون جدوى. وحين يئس تماماً من الظفر بالنّوم، أشعل النّور، وحاول أن يقرأ، غير أنّ السطور والكلمات تداخلت وتشابكت، حتى أنه لم يفقه شيئاً من الصفحة الأولى من رواية «الأبله»؛ عندئذ لبس ثيابه على عجل، وخرج ليتجوّل على الشاطىء.

بهو الفندق فارغ تماماً إلاّ من البوّاب العجوز، الذي كان يهوّم أمام كأس شاي، ومنفضة مليئة ببقايا السجائر. الشوارع صامتة تماماً. لا شيء فيها غير السيارات الرابضة على الجانبين.

على مهل راح ينزل الطريق الهابط ضيّقاً وملتوياً باتجاه البحر. صخب الأمواج يملأ الليل. رائحة الخريف ممزوجة برائحة الرمل المبلّل وأوراق الأشجار اليابسة. في السماء الصّاحية تماما إلاّمن سحب قليلة متفرقة، تتلامع النجوم. نجوم كثيرة لم يَرَ لَها مثيلاً طوال غربته في بلاد الشمال الغائمة. ثم صفعته ريح قوية مالحة، وامتدّ البحر أمامه اسود شاسعاً. مثل موجة عاتية غمرته عندئذ تلك الروائح التي طالما اشتهاها في تيهه اشتهاء المرأة لشيء ما في أوقات الوحام: رائحة الطحالب، الصخور المشققة الصابرة أمام الأمواج الغاضبة، طيور النورس تهيم حالمة ولا مبالية كما لو أن العالم خال كليّا من الشرّ والفجيعة، البواخر الراسية في الموانىء معبأة بأسرار الرحلات في قلب العواصف الهوجاء، البحارة المخمورون

النائمرن وأرجلهم في الماء البارد، نائمين هناك قرب موانىء مالقة، مرسيليا، صقلية، كْريتْ، انطاكْية، اللاذقية، بيروت، الاسكندرية، وفاجرات مكتنزات الشفاه والأرداف ساكنات أحلامهم. نائمون وأرجلهم في الماء البارد. شانتال أحبّتهم عندما أخذتها أمّها إلى شواطىء الاندلس ذات صيف. أحبّتهم وألِفَتْهم حتى غدوا مثل أحلامها ودفاترها المدرسية وأقلامها الملونة وتلك القصص العجيبَة التي تلتهمها في كتب الأطفال. بعدها صارت أمها تأخذها إلى شواطىء الاندلس كل صيف. الشمس كانت تصيّرُ الدماغ متخثراً مثل اللبن الفاسد. وهي كانت تحبّهم. تحبهم أكثر حين يغنّون أواخر الليل وقد ذهب السكر بعقولهم، وصيّرهم مرتخين مثل الطيور التي تفقد القدرة على الطيران، حين يلاعبونها في ذلك البار القذر الذي تفوح منه روائح النبيذ الرديء والسردين المقلي. أمها الدائخة عشقا في أحضان ذلك البحّار، الأسمر المفتوح العضلات، الذي كان يأخذها ليلا إلى الرمل. وهي تظلّ وحيدة. وحيدة في الغرفة البيضاء ذات الباب الازرق، ولا أحد معها غير النجوم. مرة نزلت بمفردها إلى الشاطىء ليلا، ففاجأتهما عاريين هناك على الرمل بين المراكب، تحت قمر أندلسي يهومّ كغجريّ تعب من التسول. عاريّين تماماً. أمها تصرخ، تصرخ مع الأمواج الصاخبة، وذلك البحار الأسمر المفتول العضلات كان يختلجُ بين فخديها، مثل سمكة أخرجت من الماء للتو. أمها تولول. وهي لم تفهم سر ذلك، إلا عندما قادها الفتى إلى مكان بين الصخور في شاطىء مالقة.

أوغلَ في السير حتى ابتعد عن الفندق مسافة كبيرة. من بعيد، بدت له الضاحية الصغيرة شبيهة بفانوس ضخم معلق في العتمة. آه. شاطىء مالقة. وذلك الفتى رُوبرتُو أغواها وقادها في ليل أغسطس الحار إلى مكان بين الصخور، ثم مددها على الرمل المبلَل، وهمس بلغته الجميلة بكلام لم تفهمه، غير أنه ألهب جسدها. وفجأة أخذ كل شيء يرقص. الأرض تحتهما. السماء فوقهما. الصخور. البحر أيضاً كان يرقص، أو هكذا خيِّل إليها. بعدها أغمضت عينيها ونامت في تلافيف الامواج. لما استيقظت كان الفجر مثل قطيع الطواويس.

وتلك الأخرى التي أحبها أيام الطلب في الجامعة، هي أيضا كانت تعشق البحر. ترى، أين تكون الآن؟ محتمل أنها مقيمة في واحدة من هذه الضواحي الصغيرة المنتشرة على ضفاف البحر. محتمل؟ لا، مؤكد. إنه يعلم جيّدا أنها لا تطيق العيش بعيداً عن البحر. ثم ها رائحة جسدها المبلّل بعطر الياسمين، تسْري بهدوء في الليل. وها صوتها يأتيه على ظهر

الموج ناعمًا حنونًا: «اقترب، اقترب». مرات عديدة في غربته حاول أن يقرأ رسائلها القديمة، غير أنه صدّ نفسه عن ذلك صداً عنيفاً تماماً مثلما فعل مع العديد من ذكريات ماضيه. تُرى، أين تكون الآن؟ لفّ الاشارب الصوفي جيّدا حول رقبته. ذلك الشتاء كان أجردَ قاحلاً. وهوكان يمضي أيامه ولياليه في بارات الميناء مع لصوص وقوادين وصعاليك وبحارة وعتالين وهاربين من جحيم الحياة الزوجية. وسط دخان السجائر، وروائح النبيذ الأحمر، والسمك المقلي، ورؤوس الخرفان المشوية، والمراحيض المعطلة، كان السّهر يحلو ويطول، و الحديث يتمطّى ويتشعّب. كان هو يشعر بمتعة لا مثيل لها، متعة أنْسته المحاضرات الباردة، و الأساتذة الصلع المتبلّدي الذهن، وثرثرة الطلبة حول حرب فيتنام وقضية فلسطين. لا يتذكر كيف انتهت تلك الليلة التي طاف خلالها جميع بارات الميناء، غير أنه حين استعاد وعيه وجدَ نفسه بجانبها، بينما كانت هي تسبّ وتعلن، لأنه داس قدمها في غفلة منه. اعتذر لها وهو يكاد يختنق من شدّة الحرج، غير أنّها ظلت تنفخ فيه غاضبةً وصدرها مندفع إلى الأمام شهيّاً مثيراً. عندما تبعها في المدارج ليكرر لها اعتذاره، صدته عنها وهي تصرخ فيه بلهجة قاسية: «الأفضل لك أن تمكث في غرفتك حين تتورّع عن السكر حتى الصباح!». أخذ بنصيحتها وعاد إلى الحيّ الجامعي لينام طول النهار والليل. وحين استيقظ، اجتاحه غيظ بدوي عنيف. سأؤدّبها، الفاجرة، قال. سأؤدّبها. بورجوازية صغيرة متعالية، تستحق الصفع أمام الملأ.

ثم هرع إلى الجامعة بحثاً عنها، لكنه لم يعثر لها على أثر، في ذلك اليوم ولا في الأيام اللاحقة. ولما سأم البحث، عاد مع ياسين إلى بارات الميناء ونسيها تماماً. وذات صباح، وهو تحت شمس فبراير الدافئة يقرأ «أناشيد مَالْدُورُورْ» مسطّراً بالأحمر كلّ تلك المقاطع التي يرغب في أن يحفظها عن ظهر قلب، وقفتْ أمامه وعلى عينيها نظارات سوداء. قالت له بلطف: «يبدو أنك تبت. أليس كذلك؟». وفي ما بعد، لّما اشتدّ هيامها به، نفرت هي أيضاً من المحاضرات، وكرهت الحدائق المرتّبة، والمقاهي الأنيقة، ولم تعد تهتمّ بزينتها الا لماماً. بين وقت وآخر، كانت تقول له: «عُدْ إلى بارات الميناء. وتعال في الصباح مخموراً وغائباً عن الوعي تماماً. ثم دُسْ قدمي بقوة حتى أشتهيك أكثر!».

توقف عن السير. ملأ صدره بالهواء راغباً في استحضار مزيد من ذكرياته معها. وفي تلك اللحظة، أحسّ كما لو أن كائنا آخر يقاسمه الليل. حدّق في الظلمة، فتراءى له شبحٌ يتحرك نحوه بخطوات بطيئة، فرك عينيه جيّداً، ثم حدق من جديد. وعندئذ بدت له أشباح

كثيرة، غريبة الأشكال تزحف نحوه بأناة. هل تكون مظلات واقية من الشمس؟ لا. ولكنها تتحرك. تتحرك وتقترب. هزّت جسده قشعريرة وغطّت دقات قلبه على صخب الأمواج. أسرع الخطى عائداً إلى الفندق. بين الحين والحين كان يتوقف عن السّير ويغرس نظره في العتمة. في كلّ مرّة كانت تتراءى له الأشباح نفسها وهي ممعنة في سيرها الثقيل البطيء، كأنها مصرة على ملاحقته حتى النهاية. حين اقترب من الفندق، استدار من جديد، وواجه البحر، غير أن الأشباح كانت قد اختفت تماماً.

قبل أن يخلد إلى النوم، كتب في دفتره الصغير:

«خوف. خوف على الوجوه، على الجدران، على الأشجار، على البنايات، على شاطىء البحر. خوف في ذبذبات الهواء. خوف في الكلام الذي أسمع، وفي الحركات التي أرى. من نافذة غرفة الفندق بدت لي المدينة رازحة تحت وطأة الخوف، كما لو أنها مهددة بكارثة وشيكة.

أبداً لم أرها من قبل على مثل هذا الحال. سائق التاكسي قال لي، وهو يسلّمني حقيبتي، بأنّ عليّ أن أكون حذراً. رجال الشرطة في المطار كانوا خائفين هم أيضا. حتى الأمير ميشكين، الأبله البريء في رواية دستويفسكي، أثار ارتيابهم. تُرى أيّ خوف هذا الذي داهم البلاد خلال غيابي الطويل؟».

III

أفْطرَ في نفس المكان القصيّ الذي تناول فيه العشاء. السّماء مغيّمة قليلاً. الرياح تدفع السّحب نحو الشرق، تميل أشجار الأوكاليبتوس والسّرو، وترسم تجاعيد عميقة على صفحة البحر التي تتعتّم حيناً وتضاء أحيانا أخرى. بين العتمة والضوء، يتغيّر لون الماء من الأزرق الدّاكن إلى الأخضر الزيتوني إلى الرمادي الكئيب. وحين عادت إلى ذهنه أشباح الليلة الماضية، تذكر وقائع حادثة قديمة عاش خلالها رُعْباً ظل يعذّبه لفترة طويلة. في ذلك الوقت كان في الحادية أو الثانية عشرة من عمره. كان الشتاء قاسيًا وبارداً. وهوكان هامداً تحت الأغطية الدافئة حين صرخ فيه أبوه: «لقد طلع النهار يا ولد، وأنت لا تزال تغطّ في النوم مثل الصّبايا المدلّلات!» ثم جذب الأغطية من فوقه بعنف. وقف في باحةالدّار يرتجف وعيناه نصف مغمضتيْن. وكعادتها، أمسكت به أمّه بشدة، وصبّت على وجهه ماء بارداً، ثم راحت تفرك عينيه، وتغسل أطرافه بيديها الخشنتين. وحالما انتهت من ذلك، لفّته في برنس الصوف الأسود، وفي الطربوش ألقت بكسرة الخبز اليابس وبقرطاس الزيتون، ثم دفعت به إلي الباب وهي تصيح: «لاتسرح بخيالك في الطريق مثل المعتوهين، تجنّب اللعب والثرثرة مع أولاد الحرام، وإلاّ سوف تصل متأخرا». ضباب كثيف يغطي الدّوار. البيوت والخيام وأسيجة الصّبار تبدو مثل أشباح. بين وقت وآخر تنفجر في الهواء البارد أصوات غليظة تعنّف دواباً أو بشراً. روائح الحَسَاء السّاخن والعصيدة تختلط بروائح روث البهائم وبول الاطفال، والنساء الناهضات لتوهّن من النوم، والسهول المحروثة. وهُوَ يتشمّم تلك

كل الروائح، شعر بالرغبة في الذهاب إلى مكان دافىء بعيداً عن الناس، عن صراخ أبيه، وثرثرة أنداده. هناك يتمدّد وحيداً في الضّباب. وعندئذ ربما تفاجئه زينب، ابنة عمّه، وهو غاطس في أحلامه. وفي الحال تندسّ إلى جانبه حارّة شهيّة مثل خبز الفرن. ثم تغنّي له تلك الأغنية التي يحبّها: «واليوم ياربّي تَصبّحْهَا ضبابا نتلاقى نا وَحَمّهْ ونمّشُو للْغابة». تغنيها له وهي هكذا في حضنه وسط الضّباب، والناس لا يسمعون ولاَ يرونَ شيئا ممّا يحدث. وحين تنتهي يقبلها ويهمسُ لها بذلك الكلام الجميل الذي اشتهى أن يقوله لها منذ ان بلّلهما المطر معاً وهما يجريان عبر حقل الزيتون.

فجأة اصطدم بحجر. لبضعة دقائق ظلّ واقفا عاضًا على شفته السفلى من شدة الألم. وقبل أن يعاود السّيرَ، انتبه إلى أنه قطع مسافة أطولَ من تلك الذي تعوّد أن يقطعها كل صباح. وازداد استغرابه لما انتبه إلى أنه يسيرُ في طريق لم يألفْه من قبل أبداً. أنصَتَ. لاشيء. لاصوتَ. لاحركة. فقط الضّباب الكثيف والصمت الراسخ رسوخ فلاة. تقدمَ بضع خطوات إلى الأمام. ومن جديد اصطدم بحجر أكبر حَجْماً من الأول. عندئذ بدا له أنّ الارضَ التي يسير عليها صلبة وعرة. ظل واقفاً لا يعرف في أيّ اتجاه يسير. وفي لحظة ما، خُيّل إليه أنه يسمع عواء ذئاب، وصراخ لصوص، وعويل نساء يتوجّعن، وحمحمة خيول هائجة. حرقت الدموع عينيه. سيضيع. وربما لن يعود إلى البيت أبداً. لن يرى أمّهُ وأباه، ولاالدوار وأهله. سيضيع. أو ربما تأكله الذئاب، أو يسقط في البئر مثل يوسف، أو تعثر عليه قافلة فتأخذه إلى برٍّ بعيد لا يعرف فيه أحداً. لأول مرّة في حياته أحسّ أنّه بحاجة إلى قسوة أمه وعصا أبيه. كان لا يّزال واقفاً وسط الضباب المفعم بالرعب لما أحسّ بحركة مريبة وراءه. التفت فإذا به يرى كائناً غريباً. لاَ هُوَ بالحيوان ولا بالإنسان، يندفع نحوه شاهراً هراوة، ومطلقاً ضجيجاً مثل ضجيج الثعابين. تخلّص من برنسه وجرى، عثر أكثر من مرة غير أنه تمكّن من النّهوض ومن مُواصلة الجَرْي. وكلّما التفت، رأى ذلك الكائن العجيب وراءه بأسنانه البارزة، وهراوته الحديدية، وخلْقته البشعة التي لاَ هيَ خلْقة انسان ولا خلْقة حيوان. ظل يجري ويجري والصخور والأشواك تُدمي ساقيْه وذَلك الكائن وراءه. ورَاءه دائماً. كان قد بدأ يفقد الأمل تماماً حين تراءى له بشر ودواب وبيوت. وقبل أن يعي ما يحدث، هوى في حفرة. سوداء انفتحت أمامه فجأة. حين فتح عينيه، كانت أمّه تَدْهُنُ جسده السّاخن المرضوض بتلك الزّيوت التي تصنعها من نباتات الجبال. بعدها ظلّ ذلك الكائن المرعب يداهمه في النوم واليقظة. وظل هو لأشهر عديدة يخاف الضباب والليل

والدروب المقفرة والمرور قرب المقابر حتى في عزّ النهار .

-هل تريد قهوة أخرى؟ سأله الجرسون .

-لا . شكراً !

السيّاح الفرنسيون يثرثرون حول تاريخ البلاد ، عليسة ، حنبعل ، القديس أغسطين ، حريق قرطاج ، الكاهنة التي أحرقت الغابات امام الغزاة القادمين من الشرق . عجوز أنيقة المظهر ، نبيلة الملامح ، تصحّح معلوماتهم بين وقت وآخر معتمدة كتاباً ضخماً مفتُوحاً على ركبتيها . يبدو أنهم يعتزمون زيارة بعض الآثار الرومانية . الجرسون أخبرهم أكثر من مرة أن السائق ينتظرهم عند المدخل منذ مايزيد على نصف ساعة ، غير أنهم واصلوا ثرثرتهم بأصوات عالية وكأنهم لم يسمعوه . وهوماذا تراه يفعل؟ الأفضل أن يمكث في الفندق طول النهار . تعَبُ السفر لا يزال يثقل جسده . وربما من المستحسن أن ينام في الظهيرة قليلاً . وإذا لم يستطع فسوف يحاول أن يقرأ أو يكتبَ شيئاً ما في دفتره الصغير . وفي الليل؟ سيخرج إلى الشاطىء كما فعل البارحة . نعم ، سيفعل ذلك حتى ولو كانت جميع أشباح الارض في انتظاره . ثم من المحتمل أن تكون عينه قد كذبته وأن ما رآه مجرّد وهم من أوهام حواسّه المتعبة . جائز أن تكون تلك الأشباح أناساً يعانون من الأرق ، ومثله يحبّذون السّير على الشاطىء ليلاً ، أو مجرّد مظلاّت واقية من الشمس أوْحت له الريح أنها تتحرك . صحيح انه يستشعر منذ وصوله خوفاً ما ، وأن سائق التاكسي العجوز نصحه بالتزام الحذر ، غير أنه يَعْلم جيّدا أن رغبته في التجوّل ليلاً على الشاطىء هي من أفضل مُتَعه ، وأنه لا يمكن أن يكبحها بسبب إحساس عابر بالخوف . بعد كل هذا ، هو ليس أجنبيّا عنَ البلاد لكي ينحشر في الفندق طول النهار وطول الليل ، مثل سائح عجوز يخاف حتى دبيب النمل . سيخرج إذن ، وليكُنْ ما يكون .

تحرك السّياح باتجاه المدخل وسط جلبة عالية . واحدة فقط ظلت جالسة وفي يدها«المنفى والملكوت» لألبير كامو . حالما غاب الآخرون عن نظرها ، فتحت الكتاب وغرقت في القراءة . تأمَّلَهَا . هي في العشرين تقريباً . متوسّطة الجمال ، لكنها لا تخلو من جاذبية . ربما يكون صدرُها الأكثر إثارة ، أو ربما شفتاها . الوشاح الملفوف بعناية حول الرقبة ، والوجه الشاحب قليلاً ، دليلٌ واضح على انها مصابة بزكام . إذن سيخرج إلى الشاطىء ليلاً . ليس البحر فقط هو الذي يغريه بالخروج ، وانما ذكْراهاَ أيضاً . تنْثال ذكراها بهدوءِ أمطارِ الياسمين في العتمة الحريرية المالحة .

أكيد أنها شاخت قليلاً، ومثله تغضّن وجهُها، وربما وخَطَ الشّيب شعرها، غير أنه لايزال يراها على صورتها الأولى، أيام كانت تأخذه في عطلة نهاية الأسبوع إلى تلك القرية البحرية شمال البلاد وتقول له: «أحبّ البحر في الخريف حين ينحني الضوء، وفي الشتاء حين تحتدم العواصف!» في الليل يتجوّلان على الشاطىء غير عابئين بالرطوبة والبرد الشديد. وحالما يعودان إلى البيت الريفي الصغير ترتمي في أحضانه وهي ترتجف، ثم تهمس له: «أشتهيك اكثر حين تكون بارداً ومالحاً!». وهو عندما يتذكر كل ذلك الآن، يشعر أنّه لا يزال يشتهي صوتها الأبحّ قليلا، عينيها العسليتين المبللتين بالشهوة طول الوقت، وشوشاتها تحت الأغطية الدافئة، الشامة في فخذها الأيمن، هيجانها حين تَغْضبُ، دموعها في ساعات الإحباط والألم، وسلاطة لسانها في أوقات التحدّي والمواجهة. يشْتهي أن يسمعها تصرخ في لحظات اللذة القصوى: «كلّمْني بلهجتك البدوية الخشنة. لهجة الرعاة حين يسوقون دوابّهم إلى المراعي أو يحبّون تحت القمر. غنّ لي أغاني البَدْو لما يرحلون بحثاً عن الربيع. آرْوِ لي حكاية جدتك التي تَاهَتْ في الصحراء. اقترب. اقترب حتى نكون روحَيْن في جسد واحد». نهض واتجه نحو السائحة الفرنسية:

- يعجبني «المنفى والملكوت» كثيراً! قال لها. رفعت رأسها عن الكتاب ابتسمت له.

- حقا! قالت وقد احمرّ وجهُها قليلاً.

- هل تسمحين لي بالجلوس؟

- تفضل! قالت وقد ازداد وجهُها احمراراً.

أشعل سيجارة. وبعد أن طلب عصير برتقال، قال:

- أنا لا أَمَلّ أبداً من قراءة هذا الكتاب!

- أنا أيضا! قالت الفتاة بحماس. وهذه هي المرة الخامسة التي أفعل فيها ذلك!»

وبعد أن وضعت عود ثقاب حدّ الصفحة التي توقّفت عندها، طوت الكتاب، ثم أضافت:

- غير أني أعتقد أن قراءتي «المنفى والملكوت» تختلف هذه المرة عن جميع المرات السابقة. لا أدري كيف أفسّر ذلك، باستطاعتي فقط أن أقول إني، وأنا هنا، أشعر بكوني أصبحت أكثر قرباً من شخصياته، وأجوائه، وعوالمه، وإني أفهم أكثر من أي وقت مضى غربة المعلم «دَارُو» وعزلته القاسية وسط الأحراش الَوعرة، وأحاسيس «جانين» التي تاهت

وحيدة في ليل الصحراء تحت عناقيد النجوم. بل أقدر أن أقول إن سرّ ذلك الضوء المبهر الغريب الذي يخترق قصص كامو ورواياته لم يعد خافيا عليّ.

- واضح أنك تحبين كامو كثيراً ! قال لها.

- نعم. أنا أحب كامو كثيراً. لقد اكتشفته وأنا على أبواب المراهقة. والآن، وأنا اقترب من الثالثة والعشرين، أحسّ أن ولَهي به يزْداد عنفاً وهيجاناً يوماً بعد يوم. وانت، متى قرأت كامو أول مرة؟

- في سن السابعة عشرة. ولعل الجانب الذي شدني إليه منذ البداية هو تَلميحُهُ الخفي بأن ضوء الجَنوب الساطع المبهر محرّض أساسي على الجريمة والعُنف. وبعد أن قرأت«الغريب»، لم اندهش أبداً أمام تلك الجريمة الفظيعة التي وقعت في دوّارنا ذات يوم من أيام أغسطس اللاهبة. أذكر أن الشمس كانت تضرب رؤوسنا بشدة لا مثيل لها. حتى الجبال كانت تبدو وكأنها تتلوى من فرط الحمّى التي ضربت الأرض والدّواب والعباد. فجأة أخذ أحدهم فأساً وهشم به رأس ابن عمّ له. حدث ذالك بسرعة مذهلة، ودون أن يكون هناك سبب واضح لما حدث !.

- إنه شيء فظيع ! قالت الفتاة وقد شحب وجهها.

- شيء فظيع بالفعل. وطبعاً يمكن أن تقع هذه الجريمة في بلاد تتساقط فيها الثلوج على مدار العام، غير أن كامو يجعلنا نشعر أنه لايمكن أن تكون هناك جريمة أشَدُّ فظاعةً وعبثيةً من تلك التي تُرتكب تحت الشمس في حرارة تبلغ 42 درجة في الظلّ !

بدت الفتاة مصعوقةً كما لو أنها على وشك أن تتلقّى ضربَةَ فأسٍ على أمّ رأسها. ولما لاحظ هو رعبها، غيّر موضع النقاش بسرعة:

- من أيّ مدينة؟

- من باريس.

- من أيّ دائرة إذا سمحْت؟

- من الدائرة الرابعة عشرة.

- آ. أنا أعرف هذه الدائرة مثل جيبي. لذا يمكنني أن أسألك عن الشارع أيضا. قال وهو يضحك.

- شارع فارسانجيتو ريكس.

- أنا سكنت في شارع قريب جدًا منه. شارع الغرب.

- حقا! قالت الفتاة وقد صبغت وجهها حمرة قانية.

في تلك اللحظة بالذات، وقف أمامهما فتى في مثل سن الفتاة تقريباً، ويشبهها كما لو أنه أخوها.

-علينا أن نذهب يا جانين! قال الفتى.

نهضت الفتاة. صافحته بحرارة.

-المعذرة. علينا أن نذهب. لقد كان الحديث معك ممتعا للغاية. ربما نلتقي مرة أخرى. أتمنى لك يوماً سعيداً.

شارع الغرب. بارات الجزائريين القذرة. أغاني القبائل الحزينة. رائحة الكسكسي واللّحم المقلي والأجساد التي أنهكتها الغربة وأنفاق الميترو. الوجوه القاسية المحفورة بالندوب. النظرات المرتابة. أولئكَ الرجال المهمومون الذين يبكون بحرقة أواخر الليل حين يتعتعهم السكر أو يسمعون أغنية تحمل لهم شيئاً من رائحة الوطن البعيد. وهو يسْكُن غرفة في السطح. جاره جزائري فظّ في حوالي الستين من عمره، يضرب زوجته وأولاده طول الوقت. سأذبحك يا ابنة الكلب. سأشنقكم من أجفانكم يا أولاد الحرام. يا أولاد القحبة. والمرأة تبكي، تبكي. ولا تجرؤ على الكلام. الباب مغلق عليها دائماً وأبداً. وهي لا تنقطع عن البكاء. زوجها الشّرس العجوز لا يكفّ عن التّهديد والشّخير. ثم ذلك التّيه بين النساء الذي قاده إلى شانتال. الأولى رآها تتفرّج على الكتب في واجهة «لأهُون». لم تُبْدِ أيَّ اعتراض حين دعاها إلى شرب القهوة في «البونابرت». بعدها طافَا على ضفاف «السين» رغم البرد، وتناقَشا بحماس حول الكتب والسينما والموسيقى. ولما اكتشف أن ذوقها يتلاءم مع ذوقه تماماً، امتلأ غبطةً وراح يمنّي النفس. إنها لي هذه الليلة. يبدو أنها وحيدة وضائعة مثلي في هذه المدينة. أجارتنا إنا غَريبان هَاهُنَا. وَكُلّ غَريب لِلْغَريب نَسيبُ. ثم إنها فتاة بسيطة وغير متكلفة. لذا سيكوَن منَ السّهل عليّ أن أقودَها إلَى غرَفة اَلسّطح. عند اقتراب المساء قال لها:

- أقترح عليك أن نتناولَ العشاء في مطعم تونسي في «بال فيل» يقدم سمكاً شهيّاً. بعدها نذهب إلى مونبارناس لنستمع إلى موسيقى الجاز.

- فكرة رائعة! هلّلت الفتاة.

احتضنها. وقبل أنْ يَصِلاَ إِلَى نفق ميترو«سان ميشال»، توقفت الفتاة عن السير وبدت شاحبة ومكتئبة.

- ألاَ يمكننا أن نشربَ شيئاً في المقهى المقابل. أحسّ أنّي لست على ما يرام. قالت ويدها على قلبها.

حالما جلسَا، أجْهشتَ بالبكَاء. ظلت تبكي وتنتفض، وهو أمامها ذاهلٌ لا يدري ما يفعل. الناس ينظرون إليه بقسوة شديدة كما لو أنه مسؤول عن كل تلك الدَموع. بعد أن هدأت، قالت الفتاةُ وقدَ بدتْ علىَ ملامحِها علاماتُ انهيار نفسيّ حادّ:

-المعذرة. أنا لستُ على ما يرام. الرجل الذي أحبه غادر هذا الصباح إلى نيويورك. وربما لن يعود أبداً!

ثم عادت من جديد إلى البكاء، ولكن بصوت عالٍ هذه المرّة.

تركها هناك، وعاد إلى غرفة السّطح مثقلاً بالغيظ والفشل.

الثانية سائحة هولندية فرّت منه مذعورةً لّما عرض عليها الصّعود معه إلى غرفة السطح بعد أن أمْضيا ظهيرةً رائعة في بارات«السان جرمان».

الثالثة كانت قد تبلّلتْ وبدتْ في ذروة الشهوة لّما تخلّصتْ منه فجأةً وهي تصيح

- أوه. عليَّ أن أذهب الآن!

- إلى أين؟

- إلى المحطة...

- إلى المحطة؟!

- نعم الى المحطة. لابدّ أن اسافرَ إلى بروكسيل لأنّ أمي مريضة. وقد وعدتها أن أكون عندها هذا اليوم قبل حلول الليل. اعْطني رقم هاتفك وسوف اتصل بك حالما أعود. تْشَاوْ!

الرابعة أخذتْهُ إلى شُقّتهَا الصغيرة في شارع«شارون» بالدائرة الحادية عشرة. وبعد أنْ شربَا بيرةً، وتحادثَا في مسائل شتّى، أراد أن يقبلها، فامتنعت. ولما ألحّ قليلاً، ارتمتْ في أحضَانه وأخذتْ تبكي بحرقة.

-لقد أصبت بالسرطان وقطعوا نهدي الأيمن قبل شهرين قالت.

والخامسة والسادسة والعاشرة. كلهن كنَّ مغامرات فاشلةً تنتهي دائماً بالاستمناء في عتمة غرفة السّطح، بينما ذلك الجزائري يهدّد ويتوعّد. سوف أشويكم على النار مثل الفراخ يا أولاد الكلب. وزوجته المسكينة تُولْولُ من شدة الرعب وراء الباب الموصَد طول الوقت. ثم كره النساء و باريسَ وأهْلها. كانَ يتأهب للرحيل لما اصطدم بشَانْتال في ساحة«سانت اندريه دي زار» تحت أمطار أيّار.

حين طلب مفتاح غرفته، أبدى موظفُ الاستقبال فضولاً واضحاً نحوه وراح يُمْطرُهُ بالأسئلة: أين يعيش؟ ما مهنته؟ كيف أحوال الناس في البلاد التي تعيش فيها؟ يقولون إنهم عنصريون، أليس كذلك؟ هل هو متزوج؟ ولماذا اختار أن يسكن في فندق؟ هل . . . ولما لاحظ إعراضه عن الإجابة، انتقل بسرعة إلى موضوع آخر، وراح يحدثه عن الذين داهموا قبلَ ليال مبنىً حَكومياً. وبعد أن جرّدوا الحراس من ثيابهم، ضربوهم ضرباً مبرّحا، ثم أراقوا البنزين على أجسادهم المسلوخة وأشعلوا النار. «نعم هذا ما فعله أولئك الذين يدّعُون أنهم يريدون أن يحكموا الناس بشريعة الله ورسوله!» قال موظف الاستقبال بنبرة سخط واضحة، ثم أضاف: «ليس هذا فقط. منذ ما يزيد على العام، دأبوا على ممارسة العنف والإرهاب. يكفي أن أذْكُر لك بعض الوقائع لكي تدرك فداحة الخطر الذي يهدّد البلاد والعباد. في شهر آذار الماضي، و في يوم واحد أحرق الملتحون وجوهَ ثلاثة قضاة بماء النار، ثم لاذوا بالفرار. وحتى هذه الساعة لم تتمكن الشرطة من القبض عليهمَ. قبلَ ثلاثة أسابيع، قام الطلبة في كلية العلوم بحرق عدة مخابر، وبتخريب قاعات الدروس ومواقف الأتوبيس. لم يكتفوا بذلك، بل اعتدوا بالضرب على بعض الأساتذة الذين استنكروا أعمالهم الهمجية. بعدها بيومين، قام الطلبة بكلية الأداب بتعنيف طالبات فقط لانهن يَضَعْنَ أحْمَرَ الشفَاه، ويرفضن ارتداء الحجاب. منذ أربعة أيام، ذكرت الصّحفُ أن الشرطة عثرتْ على عدّة مخابىء للأسلحة في مناطق الجنوب والجنوب الغربي. كل هذا يؤكد أن هناك أحداثاً خَطيرة تحدث في البلاد. واذا ما استمرّ الوضع على هذا الحال، فإن الطوفانَ سوف يجرفنا جميعاً. أليس كذلك؟! ولمّا تأكد موظفُ الاستقبال، الأنيقُ ذو الشارب المعقوف على طريقة الباشوات الأتراك في أوائل القرن، أنه لن يظفر بأيّ تَعْليق منه، مدّ له المفتاح. وبعد أن طبع على وجهه تلك الابتسامة التي تعوّد أن يهديها لجميع النزلاء، قال له:

- نحن نتمنى لك اقامة سعيدة، على أية حال!

مكث في غرفته حتى هبوط الليل. في الثامنة تناول العشاء، ثم جلس في البهو أمام كأس كونياك حتى الحادية عشرة. بعدها صعد إلى غرفته من جديد. لبس معطفه المطري. لفّ الاشارب الصوفي جيداً حول رقبته، ثم انطلق الى البحر. سار على الشاطيء مرة أخرى. الريح أشدّ برودة من الليلة السابقة، غير أن السماء صافية تماماً. حتى ولا قطعة سحاب واحدة. من جديد، شقّت رائحتها الليل وصَخب الامواج، وجاءتهُ عابقة بعطر ذكراها. اقترب. اقتربْ. دفّيءْ جسدي البارد بينابيع واحاتك البدوية وارْو لي حكايَةَ جدتكَ التي ضاَعت في الفيافي. أنا أيضاً أحلم بأن أضيع. لكن في البحر مثَل عليسة. وتظلّ الأمواج تتقاذفني حتى أصل إلى أرض مجهولة عليها أُقيم مملكتي. أنْتَ أيضاً سوف تضيع ذات يوم. مثل السندباد سوف تضيع. أعرف ذلك. لهذا أنا أحببتك. أمقتُ الرجالَ الخاملينَ الجامدينَ الراكدينَ في حجور أمهاتهمْ، و في غبار المدن التي فيها وُلدوا. اقترب. اقتربْ. أحبُّ أن أكون مثل موجة تهزّ خصرهَا طول الوقت. ترتمي لحين على الشاطيء، ثم تعودُ من جديد إلى الأعماق منتشية بأغانَي الريح. اقترب. اقتربْ. أحبك أكثرَ في الشتاء. أحبك بارداً ومبلّلاً بالبحر. أعرفُ أنك سوف تضيع. ربَما سوف تنساني. تخون حبي لك مثلما خنتَ اجدادكَ البدو. غير أني سأظل أحبُّك دائما وأبداً. دائماً وابداً. اقترب. اقتربْ. أنا عروسُ بحْرك. أنا اسكندريتك البيضاء. أميرتك القرطاجنية التي بسبب العَشق ألقتْ بنفسها الى النار. اقترب. اقتربْ.

فجأة أحسَّ أن الليلَ مسكون بتلك الاشباح الغريبة التي داهمته الليلة الماضية. حدّقَ مليّا في العتمة، رآها بوضوح تامٍّ هذه المرة. وكانت منتصبة مثل دبَبَة سوداءَ تقف على قوائمها الخلفية. وفي الحال، استدار وحثّ خطاه عائداً إلى الفندقَ. الْتفَتَ أكثر من مرّة فرآها تزْحَفُ باتجاهه حاقدةً وغاضبة. ثم بدا أنها تلوّح بهراوات وسكاكين وتركض مسرعةً نحوه. عندئذ ارتفعت أصواتٌ غريبة، وتورّم الليل وثقُلَ حتى أصبح شبيهاً ببحيرة قطران. في الهواء انتشرت رائحة دم سُفكَ للتوّ. جرى بأقصى سرعة كالهارب من خطرَ محدق. ولأنه سقط أكثر من مرة، فقد وَصل إلى الفندق معفّر الوجه والثياب بالتراب. وحالما رآه موظف الاستقبال، سأله جزعاً:

- هل هاجمك أحد؟

- لا. ولكني عثرت في حجر هناك على الشاطيء ووقعتُ على وجهي.

ولكي يتجنب مزيداً من الأسئلة، أخذ المفتاح. وقال، وهو يصعد المدراج علي عجَل:

- تصبح على خير!

- تصبح على خير! قال موظف الاستقبال بصوت مرتاب.

تمدد علي الفراش بعد أن أخذ دشاً ساخناً، ثم كتب في دفتره الصغير:

«أنا متأكد من أن ما رأيته على الشاطئ الليلة ليس مظلات واقيةً من الشمس ولا متسكعين يعانون من الأرق، ولا أوهاماً أوْحت بها إليَّ حواسي المُتعبة، وإنما هي بالفعل أشباحٌ غريبةُ الأشكال. كان واضحا أنها تستهدف إيذائي. هل تعجلتُ العودة؟ هل كان علي أن أتزود ببعض المعلومات حول وضع البلاد الداخلي قبل أن أركب الطائرة؟ لست أدري. كل ما أستطيع أن أقوله هو أن ذلكَ الخوفَ الذي تحسستُه عند وصولي، بدأ يتسرب إلى نفْسي، وفي انتظار ما ستفاجئني به الأيام القادمة، عليَّ ألاّ أعود أبداً إلي الشاطئ ليلاً».

IV

استيقظ متأخراً، حال نزوله إلى البهو، سمع النزلاء يتحدثون، وهم في حالة من الاضطراب الشديد، عن أطوار جريمة بشعة، ويقولون إن الشرطة عثرت فجر ذلك اليوم على جثة فتاة ملقاة على شاطئ بإحدى الضواحي القريبة. أصيب بالذعر، غير أن موظف الاستقبال بدَا مضطرباً إلى حدٍّ ما، قال له وكأنه يرغب أن يدفع عنه كل الشبهات، بأن الفتاة اختُطفت منذ أسبوع، وأنها حسب ما يبدو من التحرّيات الأولى اغتيلت قبل يومين بعد أن عُذّبتَ طويلاً، ثم أضاف موظف الاستقبال:

– لا أحدَ يتجرأ على ارتكاب جريمة نكراء كهذه غير الملتحين. والشيء الذي يؤكد هذا هو أن الفتاة مغنّية اشتهرتْ حديثاً، وقد اتهمها الملتحون في منشوراتهم السرية بالخلاَعة وفساد الأخلاق، بل هدّدوها بالموت عبر الهاتف وعبر التلفزيون، وحملتْ علي الملتحين بشدة، وسخرَت من تهديدهم لها، واتهمتهُم بالنفاق وخداع الناس البسطاء.

تناول عصير البرتقال، ثم اشترى حزمةً من الجرائد والمجلات المحلية. «ربما تساعدني على فهم ما يحدث». قال. بعدها صعد إلى غرفته، وغرق في قراءة الصحف حتى أواخر الظهيرة.

من أخبار الصحف: إيقاف أحد الملتحين اعتدى على شرطي بماء النار:

«تمكنت الشرطة الوطنية من إيقاف ملتح اعتدى قبل شهر على شرطي بماء النار، والمتهم تلميذ في السنة السادسة ثانوي (شعبة العلوم) وتتواصل الأبحاث عن الذين خططوا للجريمة

وكلّفوا التلميذ الذي يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً بتنفيذها . وقد استفدنا أن التلميذ، ويُدعى جابر، كان قد فرّ إثر الجريمة التي ارتكبها إلي إحدى القُرى البعيدة عن العاصمة حيث اختفى عند بعض معارفه هناك . كما استفدنا أنه تمّ القبضُ عقب وقوع الجريمة بيوم واحد على مدرّس معروف بتزمّته الديني كانَ صديقا سابقا للشرطيّ، ثم قطع علاقته به وأصبح يُظهر له العداء ويتهمه بالعمالة للنظام . وتقول مصالح الشرطة المعنية بهذه القضية إن هذا المدرّس ربما يكُون أحدَ المخططين للجريمة المذكورة، خصوصاً وأنّ المتهم الذي اعتدى بماء النار على الشرطي في الشارع العام هو أحد تلامذته» .

المحكمة تنظر في قضية البنت الخرساء التي اغتصبها أحد عشر شخصاً حتى الموت :

«نظرت أمس الدائرةُ الجنائية في قضية قتل فظيعة جدّت أطوارها بإحدى قرى الوسط قبل ثلاث سنوات واهتزت لها المنطقة والبلاد بأسرها . وقد ذهبت ضحية هذه الجريمة الفظيعة فتاة خرساء بكماء في السادسة عشرةَ من عمرها تداول على اغتصابها أحد عشر شخصا وعذبوها حتى الموت .

وتفيد الأبحاث أن أربعة شُبّان اجتمعوا لتناول الخمرة وصادف أن شاهدوا خرساء تغادر المقبرة حيث كانت تزور قبر جدتها . وفي الحال التحقوا بها وحوّلوها إلى حيث كانوا وعنفوها دون أن تتمكن المسكينة من الصيّاح أو الاستنجاد لكونها خرساء . وبعد ذلك جردوها من كامل ثيابها ثم اغتصبوها بالتداول . وحال انتهائهم من ذلك نقلوها إلى المقبرة حيث اغتصبها سبعة شبان آخرين من أصدقاء المتهمين الأولين في هذه القضية . وقد عَمَد أحدُهم إلى الاستيلاء على حافظة نقودها التي كان بها أربعة دنانير، فيما كانت المسكينة تئن من الألم لشدة ما قاست من العذاب . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، بل جلب أحدُ المتهمين قرن ثور أدخله في فرجها وراح يعذبها به إلى أن لفظت أنفاسها . ولما تيقّن المعتدون من موتها ألقوا بها في أحد مجاري المياه حيث عُثر عليها صبيحةَ اليوم التالي» .

اكتشاف واحدة من أكبر شبكات الدعارة في العاصمة :

«مدام كلود» سيدة فرنسية «محترمة» (بين ظفرين بطبيعة الحال) استطاعت أن تحصل على ثروة خيالية بفضل تجارة لا تبور أبداً، خصوصا داخل أوساط التُّجار الكبار ورجال

الأعمال والباحثين عن اللذة واللحم الطري. مدام كلود السيدة الفرنسية وجدت في الآنسة هندة خير توأم لها في عاصمتنا. كيف؟ ككل الأنشطة المُريبة لابُد أن يتوفر لهذه المهنة المربحة جداً، كما ذكرنا، قدرٌ من الحماية. وهذا ما فعلته بالضبط الآنسة هندة التي فتحت في واحد من أفخم فنادق العاصمة محلاً لبيع العطور. ومع انطلاق العمل في هذا المحل، ابتدأ نشاط صاحبته. وهكذا راحت تستدرج النساء والفتيات الجميلات الممشوقات القوام، وتجلب إليهن فلاحين وتجاراً كباراً وموظفين سامين. ولإخفاء نشاطها الإجرامي عمدت إلى اتباع طريقة الاتصال بالهاتف لتأمين طلبات الزبائن. وكانت هندة تعمد أيضا إلى إبلاغ تعليماتها لمعينتها بالمحل لتوفير طلبات الزبائن. وقد حصلت من خلال عملياتها هذه على مبالغ مالية ضخمة تفوق الألف دينار على كل عملية، فيما كانت المبالغ التي تتقاضاها البنات تصل إلى مائة دينار. وأمام ازدهار هذه التجارة، كان لزاماً على هنده أن تجد لها أسواقاً جديدة. وفعلاً ربطت الصلةَ بصاحب محلٍّ تجاري في أحد فنادق الضواحي الشمالية. وقد قام هذا الأخير باستدراج بعض السياح الأثرياء القادمين من الخليج إلى «حديقة» الآنسة هندة السرّية. ولا تقْتصرُ السهرات التي تقام في بيوت الخلاعة على ممارسة الجنس فحسب، بل تتعداها إلى الأفلام الإباحية والخمر والمخدرات. وبعد مراقبة دامت عدة أسابيع داهمت الشرطة بيتاً خارج العاصمة أعدّ لواحدة من تلك السهرات الخَليعة التي تشرف عليها الآنسة هندة، وقد تم ضبط بعض الرجال والبنات وهم يرقصون عراة على «الوحدة ونص». أما الآخرون فكانوا يمارسون الجنس على ضوء الشموع. وتقول المعلوماتُ التي وردت إلينا أن هندة المتهمة الرئيسية في القضية، تبلغ من العمر 27 عاماً، وأنها وباقي البنات اللائي يعملن لحسابها ينتسبن إلى عائلات محترمة ولا يعانين من أيّ خصاصة مالية، بل إن البعض منهن يمتلكن محلات فاخرة لبيع العطور والملابس».

استفحال أمراض الأعصاب وحالات الانهيار العصبي خلال الفترة الأخيرة:

«لاحظ الأطباءُ المشرفُون على قسم أمراض الأعصاب في المستشفى المركزي بالعاصمة أن حالات الانهيار العصبي والأمراض الناتجة عن ذلك قد تضاعفت بسرعة مذهلة خلال الأشهر القليلة الماضية. ويقول الأطباء أيضا إن أغلب هذه الحالات مستعصية، ويصعب بالتالي شفاؤها.

وحسب الأطباء المختصين في قسم الأمراض العقلية، يعاني جل المرضى من مرض انفصام الشخصية، ومن الخوف المستمر من الموت، ويشعرون أن هناك أعداء يترصّدونهم

في كُل مكان، ويُحْصُون حركاتهمْ وسكناتهم حتى حين يكونون داخل بيوتهم».

المجاهد الأكبر يشرف على تدشين نزل فاخر يحمل اسمه بمسقط رأسه:

«ينتقل المجاهد الأكبر صحبة الماجْدَة حرمه، صباح هذا اليوم، إلى مسقط رأسه للإشراف على الاحتفالات الكبرى التي ستقام هناك الأسبوع المقبل بمناسبة تدشين نزل سياحي ضخم يحمل اسمه. وبهذه المناسبة، أعلن السيد وزير الثقافة والإعلام أن العديد من الفرَق الموسيقية والفنية سوف تشارك في هذه الاحتفالات التي تحضرها وفود من المناضلين الذَين كانوا ولا يزالون أوفياء لأفكار المجاهد الأكبر ومبادئه الوطنية الصميمة.

وفي طريقه إلى مسقط رأسه، سيحرص فخامته -أمدّ الله في أنفاسه وأبقاهُ ذُخرا للوطن- على زيارة بعض القرى للاطمئنان على حالة الشعب. وهي عادة لم ينقطع عن ممارستها منذ سنوات الكفاح الوطني المجيدة، أيام كان يجوب البلاد في سيارته المتواضعة بهدف «فتح العقول والبصائر» وتهيئة الشعب للمعركة الحاسمة ضد الاستعمار الغاشم.

وفي مساء يوم التدشين، الذي يثبت مرة أخرى أنّ المجاهدَ الأكبر حريصٌ كلَّ الحِرص على رفاهية الشعب، وتقدم البلاد نحو المزيد من التقدم والرقي، ينقل التلفزيون الوطَني مباشرة العُكَاظيّة الشعرية التي يلقي خلالها عدد من شعراء الفُصْحى والعاميّة قصائدَ عصْماء احتفاءً بهذه المناسبة الكريمة. هنيئا لأهالي مسْقط المجاهد الأكبر وللشعب بأسره بهذا الإنجاز العظيم. وهنيئا لنا جميعاً بقائدنا الأوْحد الذَي لايزال يقود مسيرة البلاد بعزم الشباب وهمة الرجال الأفذاذ».

حال فراغه من قراءة الصحف والمجلات، كتب في دفتره الصغير:

«كأنني من أهل الكهف. هل تغيرت البلاد إلى هذا الحد حقا؟! صحيح أنني لما غادرتها قبل عشرة أعوام، كنت شبه متيقن أن هناك مخاطرَ عديدةً تُهدّدُهَا، وأن الديكتاتور العجوز، بحرصه الشديد على البقاء على كرسي الحكم، سوف يجرها إلى أزمات حادة، غير أني لم أكُن أتصور أن يكُون الأمر على هذه الصورة البشعة التي تجلت لي من خلال ما سمعْتُ ومَا قرأت. والآن ينضاف إلى المخاوف التي تسربَّتْ إلى نفسي، منذُ وصُولي إلى المطار، شعورٌ آخر: الفضولُ! نعم.

أنا الآن خائف، وفي نفس الوقت أنا شديد التلهُّف لمعرفة أسباب هذا الخراب الذي يتراءى لي شاملا ومُريعاً. ولعلّ أفضل طريقة لحسم الصراع بين الخوف والفضول هي التخلي، وبسرعة، عن لعبة السائح الأجنبي التي مارستها خلال اليومين الماضيين،

والدخول إلى الغابة لمعاينة ما يحدث عن كثب».

بعد العشاء، التقى الفتاةَ الفرنسية، حيّتهُ بحرارة، ثم قالت:

- أوه لقد كان يوماً رائعاً. زُرْنَا المسرحَ الروماني، والمتحف الفينيقي، وبعدها أكلنا سمكاً لذيذاً في مطعم صغير على البحر. يبدُو أن الناس مُنْشغلون جدا بجريمة فجر اليوم. أليس كذلك؟

- ربما.

- إنه بلدٌ جميل. والناس طيبون ومضيافون. لكن، أنا لا أفهم ما يريد الملْتحون. وأنت؟

- أنا أيضا لا أفهم ما يريدون.

- عجبا. ألست من هذا البلد؟!

- نعم. أنا من هذا البلد. لكني كنت متغيباً مدة عشر سنوات. لذا ليس من الهيْن عليّ أن أفهم ما يحدُث بالضبط.

- ولماذا لا تنزل إلي المدينة، لكي تحاول أن تفهم.

- سأفعل ذلك قريباً.

وقبل أن تتمكّن الفتاة من قول شيء آخر، ظهر بغتة ذلك الفتي الذي يشبهها جتى لكأنه أخُوها وصاح فيها وعلى ملامحه بعض التوتر:

- ألم أقل لك يا جانين إنه علينا أن ننام باكراً حتى نتمكن غداً من زيارة باقي الآثار الرومانية؟

نهضت الفتاة متكاسلة.

- المعذرة مرة أخرى. أنت ترى أنه علي أن أذهب. ليلة سعيدة. وإلى فرصة قادمة.

قالت، ثم سارت وراء الفتى وهي تجرّ رجليها جرّاً.

طلب ويسكي آخر. قدامه عجوز تهوّم. وجهُها المحفور بالغضون والتجاعيد يسيل مثل ذبالة شمعة احترقت حتى النهاية. موظف الاستقبال يقلب أوراق الجرائد بشيء من اللامبالاة. اللّيل يتكئ على النوافذ مثل ثور مريض. بين الفينة والأخرى يرتفع صخَبُ البحْر. مدّد ساقيْه واسترْخى. شيئاً فشيئاً رحلت به الذاكرةُ إلى طفولته البعيدة. جاءه ذلك

الصوت الشجيّ المشحون بمغامرات الدروب وأسرار الليل، ليرويَ لهُ، وهو ذَاهلٌ أمام نار الشتاء، قصةَ الطاغية «صاحب الحمار» التي كانت وقائعها تروّعه حتى وهو مَكوّم تحت الأغطية الدافئة قريباً من أخته.

«في البدء لم تكن هناك على تلك الهضبة الخضراء المطلّة على البحر غير زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور. ثم جاءت من البحر أميرة فائقة الحسن والجمال، يقال إنها كانت هاربة من بطش أهلها وظلمهم لها. ولما استطابت العيش على سفح تلك الهضبة، أمرت رجالها، وكانوا قليلي العدد، أن يقيموا مدينة صغيرة. وفي ظرف أسابيع نفّذ الرجال أمر سيدتهم، فارتفعت قبالة البحر مدينة بيضاء بأبواب ونوافذ خضراء وزرقاء. ثم راحت تلك المدينة تتسع وتعمر حتى أصبحت زينة المدن، وأكثرها بهجة ونعمة، في أسواقها جميع خيرات الأرض، وفي جنانها وبساتينها مياه وفواكه تجعل زائريها يشعرون كما لو أنهم في الجنة. ولزمن طويل، ظلت تلك المدينة التي سمّتها الأميرة «ترشيش» محطّ الرّحال ومبلغ الآمال. وظلّ أهلها دهراً مديداً يعيشون في النعيم والترف، لا يأتيهم الشرّ لا من الخلف ولا من الأمام. غير أن الزمن مراوغ وخداع، والسعادة لا تدوم لأحد، وكل نعمة مكتوب عليها بالزوال إنْ آجلا أم عاجلاً.

وكان بأقصى المدينة رجلٌ بشع الخلقة، يسكن مغاور الجبال، يلبس الصوف، يأكل الخشن، ويطوف في القري على ظهر حمار قميئ واَعظاً الناس، داعياً للحق، رافعاً ألواحاً مكتوب عليها: «نصر من الله وفتح قريب!». وظل مُمْعنا في هذا الأمر، حتى رجى فيه بعض الناس الخير والبركة، وأحاطوا به مستمعين إلى وعائظه وإرشاداته وحكمه. لما رأى «صاحب الحمار» أنه استولى على العقول والقلوب أخذ يدعو إلى الجهاد وقتل الكفار والفاسقين وكل من ليس على مذهبه. ثم استيقظ أهالي «ترشيش» ذات يوم فإذا بهم يسمعون أبواقاً ودويّاً وصهيلَ خيول وأصواتا غليظة، تطلق الأوامر، وتهددهم بالدمار والخراب والموت. وقبل أن يفيقوا من دهشتهم تفشى فيهم خبر يقول إن «صاحب الحمار» جاء بجيش جرار لغزو المدينة، وما عليهم إلاّ بالاستسلام، والموت بحدّ السيوف. ولما أحاط أعيانُ المدينة بالأميرة لسماع مشورتها، بكت بكاء شديداً، وقالت لهم: «ما أظننا قادرين على المقاومة، غير أنه لابد من القتال لحماية شرفنا وشرف مدينتنا». ثم نشرتْ شعرها، وتقدمت جنودها لمقاتلة أعدائها. وقام «صاحب الحمار» بتدمير الحصون، وحرق البساتين والجنان، فانتشرت الأمراض والأوبئة، وجاع الناس، ونفقت الدواب، وعمّ اليأس والهلع

القلوب. حين تيقّن «صاحب الحمار» أن أهالي «ترشيش» فقدوا كل قدرة على المقاومة، دخل المدينة على ظهر حماره وجنوده من حوله يهلّلون ويكبرون. وحالما وصل إلى قلبها، أمر بإحضار الأميرة، فجيءَ بها مقيّدة اليدين والساقين، وبعد أن أذاقها أعوانه ألواناً من العذاب، وطافوا بها محلوقة الشعر في جميع أنحاء المدينة، أمرُوا بقطع رأسها وتعليقه عند مدخل المدينة حتى يكون عبرة لمن يعتبر. أمّا من تبقى من المعَارضين له، فقد قام بذبحهم بنفسه، ثم أمر بقطع أعضائهم، وشق بطونهم، وتعليق رؤوسهم على أبواب المدينة. ويقال إنه إذا مرّ يومٌ لم يقتل فيه أحداً، كان يصيح في جنوده: «إن سيفي عطشان!». وهكذا استتبّ الأمر لـ«صاحب الحمار» فحكم «ترشيش» سنيناً طويلة، ضارباً عنق كل من يرفع صوته محتجاً أو ساخطاً أو لائما».

تخبو النار فيسكت الراوي العجوز عن الكلام المباح، غير أن عيون الساهرين تظل مشدودة إليه. في الخارج، يتعالى زفير الريح قوياً عاتياً بينما يطفح الليل بكل تلك الدماء التي سفكها الطاغية. يدفن الطفل الصغير نفسه تحت أغطية الصوف. يتكمّش من الرعب. يحاول أن ينام فلا يستطيع. تظلّ الريح تعوي وتهزّ الخيمة هزآً عنيفاً. ويظل ذلك الطاغية بوجهه العَابس ولحيته المصبوغة بالدم يطوف هناك في الوهاد السحيقة عند أسفل الدوار.

ظهيرة يومه الرابع، حسم الأمر: «لم تعد لي طاقة علي تحمل هذه اللعبة الساذجة» قال. ثم ركب تاكسي. كان واقفاً أمام الفندق وصاح في السائق: «إلى الميناء!».

من النظرة الأُولى، بدَا له بارُ الميناء شبيهاً بما كان عليه قبل خمسة عشر عاماً. الهواء المتدفع نحو الباب مُثْقلٌ كالعادة بروائح الصّنان والنبيذ الفاسد والسّرْدين المقلي والمرحاض المعطل. على الجدران الملطخة بالزيت والغبار نفس الصور الباهتة لرياضيين، لمغنيين ومغنيات، لممثلين، ممثلات، تتوسطُها صورةٌ زعيم البلاد وهو يخطب في جموع غفيرة. حول طاولات قديمة فقدت لونها تماماً، جلس زبائن يشربون ويتحدثون بأصوات عالية وعلى وجوههم المحروقة آثارُ الإعياء والملل والنقمة. حالما دخل صمتوا جميعاً وراحُوا ينظرون إليه بشيء من الارتياب، ثم تشابكت الرؤوس، وامتدّت الأعناق، ووقفت الآذان، وكثر الهمز واللمز، ولم يعد الزبائن إلى ما كانوا عليه قبل حين إلاّ عندما صاح أحدهم من مكان بعيد:

«واحدة أخرى يا عم سعيدا» . وفي الحال وضع الجرسون الأهتم النحيل زجاجة «كوديا» وصحن سردين مقليّ على الطبق، ثم مضى باتجاه صاحب الصوت وهو يجرّ رجليه جراً.

فضّل أن يشرب على الكنتوار. طلب بيرة. شربها في جرعتين. طلب ثانية وفعل بها ما فعله بالأولى متعجّلا السكر. ولما وضع الجرسون أمام البيرة الثالثة، ارتفع صوت صليحة من المذياع القديم مفعما بحزن حروب القبائل : «ياخيل سالم باش روحتولي ... ». وفي الحين اخترقه الصوتُ تماماً مثلما يخترق البرق السماء قبيل العاصفة، ثم لم يلبث أن طوّح به بعيداً فإذا به يقطع الزمن في رمشة عين ليرى نفسه، مع ياسين، جالساً بين عتّالين وعاطلين وماسحي أحذية وباعة جرائد وصيادي أسماك ونشّالين مُحْترفين يتوسّطهم عجوز هائل الجثة، أصلع تماماً، يُدْعى العمّ محمود، فقدَ كل أسنانه تقريباً غير أنه لم يفقد ذاكرته ولا عشْقَه للحياة وللنبيذ. وتمتد السهرة إلى ما بعد منتصف الليل، بل وحتى الفجر أحياناً دون أنَ يُصاب العمُّ محمود بكلل أو ملل، بينما الآخرون من حوله يشربون أحاديثه وحكاياته الممتعة بنفس تلك اللهفة التي بها يشربون «الكوديا» ويلتهمون صحن السردين المقلي. ويظل العم محمود يطوف بهم الأمكنة والأزمنة راوياً أخبار أهل السودان وبرّ الحبشة، وسلاطين الأستانة أو عام الطاعون:

«يقال يا سادة يا مادة، يدلني الله ويدلكم على الشهادة، أن الوباء الكبير جاءت به باخرة من الإسكندرية رست في الميناء في خريف انحبس فيه الغيث على الناس. وقد مات بسببه خلقٌ كثيرٌ حتى أن الرواة ومن عاشوا تلك الأيام الحوالك يقولون، والله وحده شاهد على صدقهم أو كذبهم، بأن الناس كانوا يدفعون الموتى في أبواب بيوتهم بالمجارف لكثرتهم. وفي أول ظهُوره صدر أمرٌ من البَاي بحرق ثياب الموتى وغلْق بيوتهم، وغسل الغرباء بالمقابر، وسجن مرضاهم بالمخازن. وضجّ الناس من حرق ثيابهم والباي مجتهد في ذلك، فكلّمه الشيخ المفتي، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، بأنْ لا يجمع على الناس مصيبتي النفس والمال، والواجب الاستسلام لقضاء الله وقدره ... ».

وغالبا ما يتوقف العم محمود طويلا أمام وقائع حصار الإسبان -أو الصبّنْيُولْ كما يسميهم هو- للبلاد. «ما عرفت البلاد كارثة مثل تلك الكارثة ياسادة يامادة، ولا عاراً مثل ذلك العار. فقد اشترط الصبّنْيُولْ على السلطان الخائن استباحةَ البلاد ثلاثة أيام، والتزم لهم بذلك دون علِم أحدٍ بالأمر. وبينما الناس في سكون وأمان، أسواقُهم مفتوحة وقلوبهم

هائلة، هجم على المدينة عسكر الصَّبَنْيُولْ وامتدتْ أيدي الجنود الكفار لاغتيال النفوس ونهب الأموال، ففرَّ الناس بأرواحهم إلى الجبال والأحراش البعيدة، فقيرهم وغنيُّهم على حدٍّ سواء. ويقال إنه في تلك الواقعة مات الثلث من أهل البلاد، ونجا الثلثُ، وأُسر الثلثُ، والمأسُور يُفْتدى إن كان له مال، وبلغت الفديةُ ألفَ دينار. وتغيرت البلاد وَطُمسَتْ أعلامُها، ومَلَكَ الصَّبَنْيُولْ الميناء، وربطوا خيولهم بحصْن الجامع الكبير إمعاناً منهم في إذْلال الناس، وجاوروا السلطان مجاورة الغالب للمغلوب والقوي للضعيف. ثم إن ابن السلطان الجبان المهزوم عصا أباه، وكَره تخاذُلَه أمام الكُفار، فأقدم على مقاتلة العدو، ومحاربة الطغيان. وبعد أن بايعه الناسَ في ذلك، شرع في تلافي ما بقي من رَمَق الدولة والبلاد. ولما بلغ ذلك إلى الصَّبَنْيُولْ بالميناء طاروا بالخبر إلى السلطان، والد الإبن الثائر، فعظُم عليه الأمْرُ واشتدّ حنَقُه على ابنه وعلى أهْل الحاضرة، والعجلة من طباع العجزة، وبذَلَ السلطانُ الخائن الأموالَ، التي هي أموالُ البلاد، لتخْريبها، وجاء بأسْطُول الصَّبَنْيُولْ إلى حلق الوادي، ونزل البر، فخرج أهل الحاضرة لقتاله مُسْتَميتين، ونادي المنادي بأمر من ابن السلطان الثائر: «من أتى برأس قتيل أو أسير فله مائةُ دينار». والتقي الجمعان شَرْقي الحاضرة، وصدق أهل البلاد القتالَ ودافعوا دفاعَ المُضطرّ، فأنزل اللهُ عليهم نصْره، وجعلت رؤوس القتلى تتساقط تساقُط الثمار العفنة، وانهزم السلطان الخائنُ مع حُلفائه الكُفّار، ولم ينْجُ إلاّ من فرّ بنفسه، ويقال إن السلطانَ الجبانَ لما تيقن من الهزيمة رمى نفسه في بحيرة فاراً بنفسه، فاقتحم عليه الماء واحدٌ اسمُه أبُو الهَوْل وأخرجه ملوياً بـ «الغرم» وغطاه ببرنس وجاء به إلى ابنه فاعتقله. وصاح الناس بقتله، غير أن الابن تذمّم من قتل أبيه لكنه أمر بتسْميل عينيه. وهكذا أمضى السلطانُ بقيةَ حياته منبوذاً إلى أن تُوفي. وما ربُكم بغافل عما يعمل الظالمون».

وبإمكان العم محمود أيضاً أن يصف بدقة متناهية أُناساً عرفهم وهو صبي يلعب في الوحَل، وآخرين لم يعرفهم ولم يرهم بالمرة، غير أنه تمكن من جمع أخبارهم، ومن النفاذ إلى أسرار حياتهم أكثر من أقربائهم والمخلصين لهم. وعادة ما يميل العمّ محمود لرواية أخبار المغنّين والمغنيات. وحين يفعل ذلك، يلُوح جُلاَّسُه من حوله وكأنهم في غيبوبة. فلا حركة ولا صوت. فقط عيون ذاهلةٌ وأفواهٌ مفتوحة وآذان منتصبة. يتحنح هو ويقول إن حبيبة مسيكه، المغنية اليهودية، كانت لفرط جمالها تقول للشمس اشْرقي وإلاّ دعيني أشرق مكانَك. وقد ولدت حبيبة مْسِيكَهْ في حارة اليهود بقلب الحاضرة من أب فقير لا يكاد

يحصل على قوت يومه. وعند بلوغها العاشرة، عملت خادمةً في بيت مغنية مشهورة في ذلك الوقت اسمها بدْرية. وكانت هذه الفنانةُ تقيم في بيْتها حفلات طرب أُسبوعية يحضرها الفنانون والموسيقيون وأحبّاء الكأس والجمال من أعيان المدينةَ. كانَت الصبية اليهودية محظوظةً، ذلك أنها كانت تحب الغناء منذ نعومة أظفارها، وتمارسه أوقات خُلْوَتها. يقال إن أباها سمعها ذاتَ يومٍ وهي تغني وكان قد تمدد ليستريح من حرّ القيلولة، فخرَج كالمجنون يسأل: «لِمَن هذا الصوت؟ لمن هذا الصوت؟»، فلمّا علم أن ذلك الصوت الملائكي ليس سوى صوت ابنته، بانَ عليه الحزنُ وقال: «والله يا بُنَيَّتي، إني لخائف عليك منْ هذا الصوْت!» وبعد انتهاء تلك الحفلات، التي كانت بدريةُ تقيمها، كانت الخادمةُ الصغيرة تختلي في غرفتها، وتظل ترددُ الأغاني التي سمعتها إلى أنْ تنام. وفي غياب سيدتها بالنهار، تفعل الشيء ذاته. كان الجيران يطربون طرباً شديداً لذلك الصوت المنبعث من وراء الجدران العالية، غير أنهم ظلوا لفترة طويلة يجهلون صاحبته. ذات يوم، وبينما حبيبة مسيكة تغني أغنيتها التي اشتهرت بها في ما بعد: «رماني على السرير ودلّعْني.» سمعَها أحد أعيان المدينة وكان مُحاميا وفنّاناً في نفس الوقت، وقد عَجب من أمر ذلك الصَوت الساحر أيّما عجب، واستغرب أن يكون لبدرية التي بدأت تشيخ وَتترهل مثلُ ذلك الصوت القادر على تهييج ناسك نذر نفسه للصلاة والعبادة. وخلال إحدى الحفلات، طلب المحامي الفنان من بدرية أن تغني له ولبقية ضيوفها: «رماني علي السرير ودلعني» فلما فعلت ذلك، فعل فيه صوتُها ما تفعله المسامير الحادةُ في الجسد النّاعم. وفي الحين أسكتها طالباً منها أن تغنّي له الأغنية المذكورة بنفس الطريقة التي غنّتها بها يوم كذا لما مر أمام بيتها. دهشت بدرية من ذكر الواقعة، خصوصاً وأنها في التاريخ المذكور كانت في زيارة إلى بعض أهْلها، غير أن حدْسها جعلها تدركُ بسرعة أن الصبية اليهودية هي التي غنت الأُغنية في غيابها.

وبعد انتهاء السهرة، وانصراف الضيوف، استشاطت بدرية عضباً، وعنّفت بالخادمةَ المسكينةَ، ثم طردتْها شرَّ طردة. هكذا فقدتْ حبيبة مْسيكةْ عملَها، لكن دون أن تفقد ثقتها في جمالها وصوتها. وقد واصلت العمل في بيوت الأعيان إلى أن التقت فنّانا طيِّب القلب أُعْجب بجمالها وصوتها فأخذ يعلّمها العزفَ والغناء إلى أتْقنتهما إتقانا تامّاً. بعدها اشتهرت حبيبة مْسيكَة لدى الخاص والعام، وأصابت من المال والجاه ما لم تصبه فنّانة في عصرها، وتعدد عُشّاقها حتى أصبحوا يُعدون بالمئات. ويقال إن البعض من هؤلاد فقدوا

ثروتهم أو عقولهم بسببها. ثم وقع في غرامها شيخ من كبار شيوخ العلم، في السبعين من عمره. لهُ مال كثير وجنان خارج المدينة. وبسببها نسيَ ذلك الشيخ العالم وقارَهُ وزَوْجَاته وأولاده، وراح يتردّد عليها ليْلَ نهار حتى لم يعُد قادراً على فراقها. وفي أيام الجمعة، كان ينسى الصلاة، ويصحبها إلى الجنان حيث يظل يشرب ويبكي بينما هي تُغني إلى أن يهبط الليل ولما اشتد عشقُه لها، نهاهَا عن الاتصال بعُشّاقها الآخرين. غير أن حبيبة مْسيكهْ، التي كانت قد ألفتْ حياة الحرية، غضبت عضباً شديداً، وصاحت في الشيخ الوقور: «اعلم يا شيخُ أنّي امرأة حرة. وإذا لم يعجبك هذا فما عليك إلاّ أنْ» ثم أشارت إلى الباب. وشعر الشيخ أنه طعن في الصميم، فتحامل على نفسه وعاد إلى بيته وهو لا يكاد يبصر الطريق. ولعدة أسابيع ظل الشيخ كامناً في غرفته لا يبرحها ولا يكلمُ أحداً ولا يأكل إلا قليلاً. وذات ليلة اشتد طشّها ورشها قصَد الشيخ بيت عشيقته. فلما رآها من النافذة بين أحضان أحد عشاقها الجدُد، وكان شاباً وسيماً، وفناناً بديعَ الصوت، غار حتى عَمتْ بصيرتُه، وفَقدَ السيطرة كليّاً على نفسه، وفي الحين أشعل النار في البيت ثم لاذَ بالفرار. وبعد أن أطفئَ الحريقُ عُثر على جثتي حبيبة مْسيكهْ وعشيقها وقد تفحّمتا كُلياً. أما الشيخ قد أصيب بالاختبال. وحتى وفاته ظل الناس يشاهدونه حافي القدمين، رثَّ الثياب، غائرَ العينين، أشْعث اللحية، يهيم في الأزقة والشوارع على غير هُدًى، مُتَمْتماً بكلام غريب، منادياً، بصوت عال، على عشيقته بين وقت وآخر.

وفي أيام الجمعة، كان يستند إلى أحد الحيطان، ويأخذ في البكاء والأنين حتى هبوط الظلام.

أما صَليحَة فقد جاءت في عام من أعوام المجاعة. وكان عمرها انذاك إثنيْ عشر عاماً. وأول من اكتشفها تاجر زنْجيٌ يدعى جهْمان، أجداده من برّ الحبشة. عثر عليها نائمة في يوم شديد الحر تحت جدار هنا قرب الميناء. فلما سألها عن سبب وجودها في ذلك المكان غير الآمن، بكت الصبية بحرّ الدموع، وقالت له: «أنا يتيمة يا سيدي، ولا عائل لي في هذه المدينة الكبيرة». وفي الحال أخذها التاجر الزنجي إلى بيته. وبعد أن اغتسلتْ، وأكلت واستراحتْ، سألها: «وأي صنعة تحذقين يا صبية؟» فقالت: «الغناءُ، يا سيدي». فلما غنّت، كادَ ذلك التاجر الزنجيّ يخرج عن طوره ويكفر بالله ورسله. ثم أراد أن يفاجئ أصحابَهُ بهذا الصوت العجيب، فدعاهم إلى العشاء. بعد أن انتهوا من ذلك، وضع أمامهم شراباً وفواكه، ثم أمر صليحَة بالغناء، فلما غنت مزق أولئك الأعيانُ جُبائبَهُمْ، وبكوْا مثلما

تبْكي النساء في المأتم. وقد أقسم لي أحد الشقاةُ أو هوُ رجل تقي لا يغفل عن صلاة، أن فقيهاً منْ مشاهير الفُقهاء كاد يمزق القرآن الذي كان في حجره لما غنت صليحة أمامه «ربّي عْطاني كُلْ شيْء بكْمالُو».

يسكت العم محمود. حبّات العرق تتلامع فوق صلعته وعلى وجهه الأدكن العريض. يرمي كأسَي «كُوديا» في جوفه. يلتهم صحن السردين بسرعة. ثم يحدق في جُلاّسه الصامتين الساكنين من حوله كأنما على رؤوسهم الطير. بعدها يترك العم محمود أخبار الحاضرَة والبايات والمغنيين والمغنيات، ويرحل بسامعيه إلى عوالم أخرى من الطرائف والقصَص.

تنهال الذكريات غزيرةً مثل أمطار بداية الخريف، فلا تقدر على صدها. وأنت الذي تكره الحنينَ وتدفعه عنْك كُلّما أحْسَست لهُ بدبيب، ها أنت تستمرئ مذاقه، وتستريح له، وتحت تأثيره تنسى الروائح الكريهة، والوجوه المتوترة، والنظرات القاسية، وترى نفسك من جديد جالساً بين أولئك الذين كان ياسين يسميهم «الأساتذة الحقيقيون» تستمع بالحكايات الجميلة المثيرة، مثلما كنت تستمتع بها صغيراً، وأنت منفرج الساقين أمام نار الشتاء. ثم تنسلّ صحبة ياسين من بين الساهرين وقد بدا البعض منهم يهوّمون أمام كؤوسهم الفارغة، وتسيران باتجاه «حلق الوادي» في هدوء الليل الذي يأخذ في التدهور قليلاً قليلاً، فاقداً سيطرته على المدينة، بينما تشرَع أضواءُ الفجْر في اختراق كتل السحب المتجمّعة على طول الأفُق البجري. «مادام هناك بار الميناء، فلست بخائف علي جنوني الجميل» يقول ياسين. ثم يضيف: «وحده بار الميناء يجعلني قادراً أن أقاوم تفاهة أساتذة الجامعة، وحُمْقَ الطلبة، ونذالة حكام ما بعد الاستقلال». حين يقتربان من «حلق الوادي»، يتوقف ياسين عن السير. يتأمل المدينة التي تبدو في العتمة الخفيفة شبيهةً بهضبة من الشراشف البيضاء. ثم يهمس: «لو ترفع الملائكة أو الشياطين هذه البيوت قليلاً، أو تفَتح فيها ثغوراً حتى نتمكن من رؤية أكفال اليهوديات في الليل. على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته. إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي. طلبتُه فما وجدتُه. وجدني الحرسُ الطائف في المدينة فقلت أرأيتم من تحبه نفسي. فما جاوزتهم إلا قليلا حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكْته ولم أرْخه حتى أدخلتُه بيتَ أمي وحُجرة من حملت بي. أحلّفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيَائل الحقْل ألاّ توقظْنَ ولا تنبّهْن الحبيب حتى يشاء».

لعل تلك السنوات كانت الأجمل في حياتك، وربما حياة ياسين أيضاً. كنتما تنامان كثيرا، تسهران، تحبان، تقرآن، تسخران من كل شيء، من الدروس، من الأساتذة، من الطلبة المجتهدين الذين يركضون إلى الوظيفة مثلما تركض الدواب العطشانة نحو الماء، وتنشدان، في معابر الجامعة وأنتما سكرانان، مقاطع من تلك القصائد التي تحبانها. «حين أنتهي من كتابة نص جميل مثل «إشراقات» أو «أغاني مَالْدُورُورْ»، بإمكاني أن أضع حداً لحياتي التافهة هذه!»، كان ياسين يقول. أما أنت، فكنت ترفع شعار جويس: الصمت والحيلة والمنفى، وحين يسمع ياسين منك ذلك، يقهقه ساخرا ويقول لك: «فأما الصمت فلست قادراً عليه لأنك بدوي ثرثارٌ لن تكفَّ عن الكلام الفارغ، حتى لو وضعوا حولَ عنقك حبلَ المشنقة. وأما الحيلة، فإن تجاربي اليومية والليلية معك أثبتت لي بما لا يدع أي مجال للشك بأنك جاهلٌ جهلاً تاماً بقواعدها وأصولها. وأمّا المنفى، فأنا متيقّن تيقُّناً تاماً أنك لسْت قادرا على تحمله أكثر من شهر تعود بعْدَهُ إلى حجْرِ أمّكَ باكياً شاكياً!».

هبط الليل. خف ضجيج الزبائن. بدأ البار يفرغ شيئا فشيئا. راح الجرسون الأهتم النحيل يجر رجليه بين الطاولات مصفّقاً بيديه، منبّها مَنْ تبقي من الزبائن لاقتراب ساعة الغلق. دفع وخرج. مشى في شوارع ضيقة معتمة تتكدّسُ الزبالة على جانبيْها وتجوسُ فيها القطط. لما اقترب من «باب البحر»، شاهد كثيراً من سيارات الشرطة، وتحسّس شيئاً من التوتر والقلق. «كفاية بالنسبة لهذا اليوم!» قال، ثم ركب تاكسي وعاد إلى الفندق.

قبل أن ينام كتب في دفتره الصغير:

«مثل ذلك الذي يحب امرأة في العشرين، ثم يعود فيجدها وقد شابت وترهّلت وفقدت جمالها القديم تماماً، كذلك كان شعوري حالما دخلت بار الميناء هذا اليوم. كل شيء بدا لي محطماً، مهزوماً، ميتاً، ذابلاً، مغلوباً على أمره. والبشاعة التي تبدت أمامي منذ اللحظة الأولى جعلتني أشعرُ أن مرح تلك الأيام الرائعة قد ولّى وإلى الأبد. صحيح أن أغلب زبائن ذلك الوقت كانوا فقراء، معدمين، مثقلين بهموم الحياة ومتاعبها، غير أنهم كانوا رغم ذلك قادرين على الضحك، وعلى الفرح، وعلى الحبّ. يكفي أن يستْمعوا لحكاية واحدة من حكايات العم محمود العجيبة حتى ينْسوا كلّ شيء، وتتألقُ وجُوههم بالابتهاج والرضى. أما الوجوهُ التي طالعتني اليومَ، فقد كانت تنمُّ عن شقاء أسود، وعن يأس لا يُضاهيه يأس. وجوهٌ كانتات طُحنت وأُذلّتْ وأهينت حتي لم تعد تعرفَ غير القسوة والحنق والعنف. ومن

المؤكد أن ياسين قد انقطع هو أيضا عن ارتياد البار منذ زمن بعيد. أعرف أني قادر على تمييز رائحته جيّدا. ولو جاء مرة واحدة إلى هناك، لما غاب الأمر عني على الإطلاق.

إني حزين. حزين جداً، خصوصا بعد أن انتابني شعورٌ بأن بار الميناء يمكن أن يعكس صورة البلاد بأسرها».

V

بعد الإفطار، شاهد السائحة الفرنسية واقفة عند باب الفندق، وأمامها حقيبتان:

- هل ستسافرين ؟

- بعد ساعتين تقريباً !

- سوف لن نتمكن إذن من مواصلة حديثنا حول كامو.

- خسارة. لكن ربما نفعل ذلك حين تأتي إلى باريس.

- ثم أضافت بعد أن أخرجت بطاقة وردية صغيرة من حقيبتها اليدوية:

- خذ. هذا عنواني ورقم تليفوني. سأكون سعيدة بلقائك هناك !.

ودّعها بحرارة. بعدها ركب تاكسي وصاح في السائق:

- إلى باب البحر !

الستار تمزق الآن، ولم يعد بإمكانك أن تتخفي أو أن تتراجع. الحل الوحيد هو أن تمضي في ما كنت قد شرعت فيه بالأمس. لا خيار لك البتة. صحيح أنك خائف وحزين، غير أن الرغبة في الغوص في واقع أصبحت تجهل تفاصيله التي أضرمها فيك بار الميناء بالأمس، صارت أشدّ وأعنف. قديماً كنتَ تقول لياسين: «لابد من مسافة معيّنة بيني وبين هذه البلاد حتى أستطيع الكتابة عنها وعن أهلها!». لكن يبدو أن نظريتك هذه ليست صائبة إلى الحدّ الذي كنت تتوقعه. والآن، أنت لا تستطيعُ أن تنكر أن التيه الذي أمعنت فيه طوال

عشرة أعوام قد أطفأ فيك، إلى حدّ ما، تلك الحرارة التي كانت تهبُ نصوصك تدفّقاً وانسياباً وعنفاً جميلاً. تلك اللّيلة، وأنت في شقّتك البَافَاريّة الصغيرة، أُصبْت بالذّعر لما أعدت قراءة نصوص كنت قد كتبتها خلال العامين الماضيينَ، لأن جميعها كَانت خاوية، باردة، مصطنعة، باهتة. ثم تحوّل ذعرك إلى غيظ شديد دفعك إلى تمزيقها ورميها في سلّة المهملات، حتى لا يقع عليها نظرك مرة أخرى. بعدها تمددت في الفراش، وظللت تعاني السهاد والقلق ليالي عديدة. وكم تمنيت عندئذ لو كان ياسين إلى جانبك حتى يخفف عنك وطأة الفشل المرّ. تماما كما كان يفعل أيام الطلب في الجامعة. امْضِ إذن حتى أعماق العفن، وليكن ما يكون!

توقف التاكسي عند مدخل باب البحر. حالما ينزل، ينتصب قدّامه تمثال عملاق لزعيم البلاد وهو يمتطي حصاناً، مولّيا وجهه شطر الميناء، واضعاً على رأسه مظلة ضخمة من السّعف على طريقة بدو قبائل الجنوب، رافعاً يديه محيّياً جماهير وهمية. وكان واضحاً أن التمثال يرمز إلى عودة الزعيم من المنفى قبيل الاستقلال.

تحت زيتونة «الجمل»، كان الرجال متحلقين حول تلك «الآلة الشيطانية» كما كانوا يسمّونها. أتى بها الأونْبَاشي عمر الأطرش، بعد أن أمضى خمس سنوات في برّ الأندُوشين. لا أحَد منهم يجرؤ على الكلام أو على الحركة. لا شيء يخْمِشُ الصمتَ الشاملَ، غيرَ أزيز الصراصير. من البيوت تمدّ النسوة أعناقهن باتجاه زيتونة «الجمل» وهن واجماتٌ، غاطساتٌ في عرق حزيران. والآلة الشيطانية تَهْدُرُ مثل الجمَال في عزّ الشتاء. زغاريد وهتافات وزعيق أصوات عجيبة لا تشبه أصوات أهل الدوَار في شيء، وكلام غريب مثل طلاسم السحرة. ثم تتبلل وجوه الرجال بالدموع، وتبكي النسوة صامتات وأعناقهن ممدودة باتجاه زيتونة «الجمل». ويشعر هو برغبة في البكاء أيضاً، غير أن تَوْقَه لاستكْنَاه ما يحدث من حوله يحبس دمعه. يتأمّل الجبال والهضبات المحيطة بالدوار وهي تتلظَى في الحرّ. أكيد أن ثمّة أحداث تجري وقائعها هناك وراءها. كل شيء جميل وخطير يحدث وراء الجبال والهضاب دائماً. وهو لا بدّ أن يجتازها في أقرب وقت ممكن حتى يصبح رجلاً حقيقياً تماماً مثل أبيه، والشيخ الأشهب، والأونباشي عمر الأطرش، والكبْلُوطي الذي يسرق دواب أولاد السباع في أعوام الجدب. لابدّ أن يفعل ذلك، ثم تتهلل وجوه الرجال بالغبطة والانتصار وتزغرد عمته مباركةً، ووجهها الطويل المزين بالوشم الأخضر مبلّل بالدموع. ولا تلبث النسوة الأخريات يتجاوبن معها. بعدها يخيّم الصمت من جديد

ويصبح أكثر وقاراً وكثافةً من ذي قبل، حتى الصراصيرُ تكف عن الأزيز. الأحمرة تهوّم في القيظ مداماةَ الظهور. الدجاج فاتحٌ مناقيره من شدة العطش. ثم ينتفض عمر الأطرش ويصيح وهو يرقص: «اسمعوا الزعيم يا رجال!». وعندئذ يأتي من الآلة الشيطانية صوت له جلال صوْت الربّ الذي في السماوات: «أيها الشعب.. يا شعبي العزيز!...»

في الليل، تحت قمر حزيران، يغني ولد الدهماني وسط الزغاريد وطلقات النار:

خَمْسة إلّى لَحْقوا بالجرّه ... ملك الموت يراجي
لَحْقُوا مُولْ العْركَه المرّه ... المَشْهُور الدّغَباجي

أواخر الليل، يهدأ ولد الدهماني، ومن جديد يتمدّد الرجال على الأرض. يشرعون في شرب الشاي، وفي الحديث عن شيء اسمه «الاستقلال» وعن الزعيم الذي أمضى عدة أعوام منفيا في جزيرة نائية، مرمية وسط الأمواج والرياح العاتية.

تنسحق أحداث الماضي الجميلة تحت كتلة البرونز الثقيلة البشعة، فيستدير كمن يتحاشى رؤية رأس يُقْطع بسيف الجلاّد، ثم يغوص في المدينة.

يتمشى بهدوء بين أشجار جادة «باب البحر». سيارات الأمن السوداء رابضة في كل مكان. رجال الشرطة شاهرون أسلحتهم وكأنهم على أهبة الاستعداد لإطلاق النار. الهواءُ مثقل برائحة الخوف والتوتر. الناس يسيرون بحذر وينظرون بقلق وارتياب ممل. من خلال عناوين الصّحف المعروضة، يتبيّن أن المُلتحين يقومون بأعمال شغب في جميع أنحاء البلاد، وأن زعيمهم الأعرج في حالة فرار منذ عدة أشهر.

يتوقف أمام مكتبة «العيون الصافية» التي كان يُدمن على ارتيادها أيام الجامعة. كل الكتب المعروضة في الواجهة قديمةٌ ولا قيمة لأغلبها. حالما يدخل، يرى السيدة أمينة، صاحبة المكتبة، وقد ترهّلت، وبرزت عروق خضراء في عنقها، ولطّخت ظاهر يديها حبّات الشيخوخة السوداء. أمّا شعرها فقد بدا شبيهاً بكتلة من أعشاب أحرقتها شموس الصيف.

- صباح الخير!

تتمعّن فيه السيدةُ أمينةُ طويلاً، ثم تنهض لتقترب منه وتقول:

- يبدو لي أن هذا الوجه ليس غريباً عني!

- لا أبداً. فأنا كنت مدمناً على ارتياد هذه المكتبة أيام الجامعة !

- آ ... صحيح. صحيح. الآن أنا أتذكرك جيدا. تقول السيدة أمينة وقد اتسعت ابتسامتها حتى ملأت وجهها الشاحب النحيل. ثم تضيف وهي مزهوة بقوة ذاكرتها :

- وكنت تحدّثني دائما عن جيمس جويس. أليس كذلك ؟

- صحيح !

من جديد تتمعّن فيه السيدة أمينة من وراء نظّاراتها ذات الإطار البني السّميك، ثم تقول :

- وكنت تأمل أن تكتب رواية شبيهة بـ «صورة الفنان شاباً». أليس كذلك؟

- هذا صحيح أيضا.

- وهل كتبتها ؟

- لا. لازلت أخطط ذلك.

- يجب أن تكتبُها بأقصى السرعة لأنك بدأت تشيخ، وفي هذه الحالة سوف تجد نفسك مجبراً على كتابة رواية تحت عنوان : «صورة الفنان شيخا» تقول السيدة أمينة ضاحكة، ثم تضيف :

- وحتي أثبت لك أنني أعرفك جيداً، أقول إنك كنت دائما مصحوباً بشاب نحيل، طويل القامة، يلبس معطفاً أسود طول الوقت. وأعتقد أنه شاعر أيضا.

- أنت تمتلكين ذاكرة عجيبة يا سيدة أمينة !

- ما اسم ذلك الشاب ؟

- ياسين.

- آ . . ياسين. منذ فترة طويلة لم يمرّ من هنا هو أيضاً. وقبل أشهر رأيت صورتَه في إحْدَى الجرائد. آ. لقد نسيت سبب ذلك. أعتقد أنه أصدر كتاباً جديدا، أو كتب مقالاً، أو. ماذا حصل له؟ ماذا حصل له؟ المعذرة، لقد نسيت تماماً. أتذكر فقط أني رأيت صورةً كبيرةً له في إحدى الجرائد، وأني قلت لزوجي الذي كان يتصفحها : هذا كان من الزبائن المدمنين على المكتبة، ألديك أخباره؟

- لا. أبداً.

- وأين تعيش الآن ؟

- في مكان ما من هذا العالم .

- داخل البلاد أم خارجها ؟

- خارج البلاد .

- أنت محظوظ ! تقول السيدة أمينة، ثم تقترب منه وتهمس بعد أن تدير عينيها في المكتبة الفارغة : «اسْمَع، الحياة هنا لم تعد تحتمل . وربما تكون قد عاينت ذلك بنفسك منذ هبوطك في المطار . تصوّر أني لا أبيع أحياناً أكثر من كتاب في اليوم الواحد! الناس لا يقرأون . المسلسلات المصرية السخيفة وكرة القدم والأغاني الهابطة هي الثقافة بالنسبة إليهم . الطلبة لا يهتمون إلا بتلك المناشير التي يرسلها لهم الملتحون من داخل جحورهم السرية . والكتب الوحيدة التي تلقى رواجاً كبيراً هي تلك التي تتحدث عن الجن والعفاريت وعذاب يوم القيامة . تصمت السيدة أمينة . ينطفىء وجهُها . تغلظ عروق عنقها الخضراء . تأخذ يداها في الارتجاف . بعدها تهمس وعيناها على الباب :

- حسنا فعلت . حسنا فعلت !

يشتري بعض الكتب . يشد على يد السيدة أمينة مودّعاً .

- لا تنس أن تمر من هنا مرة أخرى قبل سفرك . أنا أفرح دائماً حين أرى وجوه الأصدقاء القدامى ! تقول له .

يعود من جديد إلى جادة «باب البحر» يدخل مكتبات أخرى . مكتبة «الكتاب» مكتبة «المعرفة»، مكتبة «الأجيال»، كلها خاوية، كئيبة، مغبّرة، في المكتبة «الشرقية» عاين عدداً هائلا من الكتب حول الصلاة والصوم والزكاة ويوم القيامة وفضائل الحجاب، بينما كان ديوان الشابي متخفياً عن الأنظار كما لو أنه يخشى الظهور . بعد أن يشرب قهوة في «ستوديو 38» يقرر أن يزور «الأستاذ» . «هو الوحيد القادر على أن يفك لي ألغاز هذه المدينة» يقول، ثم يهرع مسرعاً إلى المدينة القديمة .

إلى أن غادر البلاد، ظل «الأستاذ» اللغز المحيّر، والكائن الغامض حتى بالنسبة لمريديه والمقربين إليه . لا أحد تمكّن من استجلاء أسراره، أو النفاذ إلى شخصيته المحيّرة، المسربلة بالغموض طول الوقت . وكلما سعى صديق أو خصم الى ذلك، سارع «الأستاذ» الى محو الآثار وتعتيم السبّل بمهارة اللص القادر على إخفاء اطوارجريمته . تقول بعض الروايات إن

«الأستاذ» ربما يكون قد درس الفقه في الجامع الكبير، لكنه فصل بسبب السكر جهاراً، والاعتداء على كرامة بعض الشيوخ بالسّبّ والشّتم. ثم اختفى «الاستاذ» لمدّة عشر سنوات تقريباً، عاد بعدها للظهور في المدينة، أنيقاً، حاملاً تحت إبطه محفظة من الجلد الأسود الثمين، وعلى وجهه آثار النعمة والتّرف. في البداية، ادّعى أنّه بصدد كتابة رواية ضخمة عنوانها: «تلك المدن، أولئك الناس». «إنها تجاربي في السفر والتيه عبر العالم» كان يقول. ثم صمت «الأستاذ» عن الأمر صمتاً نهائياً، وراح يتحدث عن مشروع كتاب حول الفلاسفة البوهيميين عبر التاريخ. ولمدة سنة كاملة، شغل جلاّسه بالموضوع، بل وقرأ على البعض منهم صفحات تدلّ على أنّه ملتزم بمشروعه التزاماً تاماً. وربما لمزيد من التأكيد على ذلك، دأب «الاستاذ» لعدّة اشهر، على ارتياد المكتبة الوطنية، مثل كل الباحثين المجتهدين الجادين، وعلى التهام كل ما يقع بين يديه من كتب فلسفية. وفجأة انطفأ حماس «الاستاذ»، وبدا وكأنه نسي الموضوع نهائياً. وعقب فترة من الصّمت المطبق، كان يكتفي خلالها بارتشاف قهوته، أو شرب «الكوديا» دون أي اهتمام بما يحدث من حوله.

شنّ «الأستاذ» حرباً ضارية ضدّ الأدباء، وكل المهتمين بشؤون الأدب سواء من قريب أو بعيد. بل وأعدّ نظرية تقول إن الكتابة فعل ساذج أخرق، وإن جميع المنشغلين بها كائنات بائسة لا علاقة لها بالواقع ولا بالحياة. «وحدهم الصعاليك واللصوص والقتلة ورعاة الجبال جديرون بالاحترام. اما ممتهنو حرفة الكتابة فلا يستحقون سوى صفعة على الخد الأيمن، وصفعة على الخد الأيسر، لأنهم جبناء، ومنافقون، وقوادون، ومرتزقة من الصنف الوضيع!» كان يقول حين يحتدّ النقاش بينه وبين خصومه. ومراراً حاول البعضُ أن يعرف أين وكيف عاش «الأستاذ» خلال غيبته الطويلة، غير أن أبحاثهم أفضت جميعها الى مزيد من الغموض والضباب والتعقيد. وكعادته دائما، ظلّ «الاستاذ» يلفّ ويدور ويراوغ، خالطاً الأزمنة والأمكنة بقدرة فائقة، مشيّعاً من حوله مزيداً من الحيرة والتساؤل والاستغراب. فاليوم يحدّث جُلاّسه عن مقهى «ريش» بالقاهرة، وعن كابريهات شارع الحمراء في بيروت، وعن مجالس القات في صنعاء، وعن مومسات حيّ التقسيم في إسطمبول أو عين الذياب في الدار البيضاء. في اليوم التالي يخوض معهم في حديث طويل مفصّل عن أجواء مدريد وباريس وامستردام وبراغ. والذين دقّقوا النظر في تلك القَصص المثيرة، وعقدوا مقارنات بينها، توصلوا الى أن «الاستاذ» عاش في القاهرة وفي امستردام في نفس الأسبوع، في باريس وفي صنعاء في ذات اليوم! وعندما شرعوا يستجوبونه في الأمر،

أفرغ «الاستاذ» زجاجة «الكوديا» في ثلاث جرعات متتاليات، ثم ذاب في الليل. بعدها أشاع البعض أن «الاستاذ» لم يغادر البلاد على الإطلاق، وأنه أمضى العشر سنوات بأكملها في جنوب البلاد مشتغلاً بالتّهريب، ومن المحتمل أن يكون قد قضى فترة طويلة في السجن بسبب ذلك. ولم يعلّق «الأستاذ» على تلك الإشاعات والأقاويل بكلمة واحدة. ذات ليلة، أخرج بهدوء من محفظته الجلدية ألبوماً ضخماً وفتحه أمامُهمْ. وحين تأملوا فيه، تأكّدوا أن «الأستاذ» كان بالفعل في بعض من تلك المدن والأماكن التي حدثهم عنها. ففي إحدي الصور كان أمام «برج إيفل» وفي أخرى أمام «أبي الهول»، وفي ثالثة على أحد جسور البوسفور، وفي الرابعة أمام بيت جُوته في فرانكوفورت، وفي خامسة إلى جانب تمثال دون كيخوتي وخادمه سانكو بانسا في مدريد. هكذا ظلّ «الاستاذ» يفتح نوافذ ويسدّ أخرى حتى يئسوا هُمْ تماماً من البحث. وقال ياسين، معلّقاً على ذلك، بان «الأستاذ» ربما يكون خرافةً أو وهماً.

دائما كان «الاستاذ» يُبدي نفوراً شديداً من السياسة ومن أهلها. ولا أحد من ملازميه يتذكر أنه أظهر في يوم من الأيام تعاطفاً حتى ولو كان محدوداً نحو اتجاه أو مذهب سياسي من تلك الاتجاهات والمذاهب الرائجة في أوساط المثقفين بالخصوص. وحين يجرؤ جُلاّسه على الخوض في جدال سياسي، يفرّ منهم «الأستاذ» غاضباً وهو يصيح: «لقد قلت لكم ألف مرة أيها الأوغاد إن العمر قصير، وإنه لا يجوز البتة أن نضيعه في مثل هذه التفاهات».

مع ذلك لم يتمكن «الأستاذ» من الإفلات من الاعتقالات الواسعة التي شملت أعداداً كبيرة من المثقفين عقب انتفاضة فبراير. واثناء التحقيق معه، قال «الأستاذ» حين سُئِلَ عن مذهبه الإيديولوجي:

- أنا من جماعة باخوس!

- جماعة باخوس؟! صاح المحققون وقد أصابهم الارتباك والذهول.

- نعم أنا من جماعة باخوس!

ترك المحققون «الأستاذ» في غرفة التحقيق الرمادية، وتوجهوا إلى أحد المكاتب للتشاور في الأمر، وحين لم يفض جدالهم إلى أيّ نتيجة، قرروا الصعود الى رئيسهم في الطابق السادس:

- سيدي، نحن نعلم أن هناك في هذا البلاد الصغيرة جداً مذاهبَ وفرقاً لا تُحصَى ولا

تعدّ. فهناك تروتسكيون، ماويون وستالينيون، جيفاريون وماركسيون تحريفيون وألْبانيُّون وانصار انتفاضة 68 الطلابية، غير أنّنا لم نكن نعلم أبداً أن هناك أيضاً باخوسيين!!

- باخوسيون؟! صاح الرئيس، وقد ازرقّ وجهه من الدهشة.

- نعم سيدي الرئيس. هناك باخوسيون. وواحد يلقبونه بـ «الاستاذ» يتزعّمهم.

- هذا أمر خطير للغاية. لابد من إزاحة الغموض عن هذا الأمر حالاً وإلاّ حدثت كارثة في البلاد. قال الرئيس وهو ينتفض من شدة الغضب. وبعد أن فكر قليلاً صاح في المحققين الخمسة الذين كانوا واقفين امام مكتبه.

-اتصلوا حالا بالضابط عبد الكريم. لقد أرسلناه الى موسكو وبراغ ليدرس مثل هذه المذاهب الشيطانية. وأكيد أنه يملك مفاتيح للموضوع. ليومين كاملين، غرق الضابط عبد الكريم في ملفاته وقواميسه السياسية، بل وأمضى ليلة كاملة دون أن يكحّل النوم جفنيه. وفي اليوم الثالث، على الساعة العاشرة بالضبط، صعد الى الطابق السّادس، ليقرّ بفشله.

- أيها البغل. وماذا تريد منا أن نفعل الآن؟! صاح فيه الرئيس وقد تورّم وجهه وعنقه من شدة الغيظ والهيجان.

- سيدي الرئيس. ليس هناك غير طريقة واحدة لحلّ هذا المشكل حلاً نهائياً، قال عبد الكريم.

-وماهي؟

-إخضاع ذلك الكلب «الاستاذ» للتعذيب حتى يقرّ بجميع الحقائق المتعلقة بالموضوع.

-أيّها البغل. وهل تعتقد أنك أتيت بجديد؟! صاح فيه الرئيس. ثم أضاف وسبابته مصوبة نحو الباب.

- هيًا. اغرب عن وجهي حالاً!

بعدها نادى الرئيس المحققين الخمسة، وصاح فيهم:

- علّقوا ذلك الكلب في السقف واضربوه حتى يعترف لكم بكل شيء!

وفي الحين، هرع المحققون الخمسة الى زنزانة «الأستاذ»، وهم في حالة من الهيجان الشديد:

- تعال يا ابن القحبة!

- إلى أين؟ سألهم «الأستاذ» بهدوء تامّ.

- إلى جهنم وبئس المصير، قالوا له. ثم جرّوه بعنف إلى قبْوٍ معتم، تلطخت حيطانه وأرضيّته بالدم، وراحوا يقيّدون ساقيه ويديه.

-ولكن لماذا تُتْعبون أنفسكم أيها السادة الكرام؟ أنا مستعدّ أن أجيب بكلّ صراحة وصدق عن أيّ سؤال تطرحونه عليّ!، قال «الاستاذ». حدّقوا فيه مليّاً وكأنهم يرغبون في التأكد من صدق ما يقول، ثم صاحوا فيه:

- قل لنا أيها الوغد كل الحقائق التي تعرفها عن جماعة باخوس...

- آ. هذا أمر في غاية السهولة أيها السادة الكرام! قال «الأستاذ».

-يعني أنك مستعدّ للاعتراف بكل شيء؟! سأله المحققون الخمسة.

-طبعاً. طبعاً. رد «الأستاذ» وفي نبرة صوته عزمٌ واضحٌ على القيام بكل ما يطلبه منه المحققون الخمسة.

أعادوه إلى غرفة التحقيق. جلس أحدهم أمام الآلة الكاتبة وقد بدأ متحفّزاً لتسجيل كل كلمة ينطق بها «الاستاذ».

-هيَّا تكلم!، صاح الأربعة الآخرون.

-ألا تعرفون من هو باخوس أيها السادة الكرام؟!

-لقد قلنا لك تكلم ولا تسأل!

-حسنا. حسنا. إن باخوس أيها السادة هو إله الخمر عند قدماء الرومان!

-إله الخمر عند قدماء الرومان؟! صاح المحققون الخمسة وأعناقهم ممدودة نحو «الأستاذ».

- نعم. باخوس هو إله الخمر عند قدماء الرومان. ألا تعرفون هذا؟! قال «الأستاذ».

تبادَل المحققون الخمسة النظرات للاتفاق على الإجراء الذي يجب اتخاذه في الحين. ثم هرعوا إلى مكتب الضابط عند الكريم:

- يبدوا أن هذا الوغد يريد أن بسخر منا! قالوا.

- ماذا قال لكم؟

- قال لنا إن باخوس هو إلَهُ الخمر عند قدماءالرومان.

فكر الضابط عبد الكريم قليلاً، ثم فتح قاموساً ضخما كان أمامه. وبعد أنْ تمعّن فيه

بضع دقائق ضرب على جبهته وصاح. صحيح تماماً. باخوس هو إله الخمر عند قدماء الرومان. ولكن اسألوه ما علاقة هذا بذلك؟.

عاد المحققون الخمسة إلى «الأستاذ»

- هيّا تكلم بسرعة، وإلا أعدْناكَ إلى هناك!

-وهل رفضتُ الكلامَ من قبل؟

- قل لنا إذن ماهي العلاقة بين هذا وذاك. أي بينك وبين باخوس؟

-هل يحتاج واحد مثلي، لا يفعل شيئاً في هذه البلاد، غير شرب «الكُودْيا» إلى إثبات أو توضيح مثل هذه العلاقة؟ قال «الأستاذ».

يتذكر جيداً المرة الأولى التي التقى فيها «الأستاذ». يتذكر مساءً خريفياً غائماً، ومطراً خفيفاً يغسل الشوارع، هو وياسين وجمع من المثقفين يحتسون البيرة في بار «الزنوج» ويتحدثون بأصوات عالية عن موت عبد الناصر المفاجئ. قبل الغروب بقليل، انضمّ إلى مجلسهم رجلٌ نحيف، بوجه شاحب تغطيه لحية خفيفة تتخلّلها بعض الشعرات البيض، وبعينين صغيرتين تبدو فيهما آثار سكر لا ينتهي. كان يرتدي معطفاً أسود طويلاً جعله يبدو شبيهاً بحاخام يهودي (أنا حاخام الفسق، قال «الأستاذ» في ما بعد).

في البداية، ظل الرجل صامتاً، يرتشف «الإكسبريس» بهدوء، متطلّعاً إلى الشارع المزدحم بالسيارات والمارة. فجأة صاح مغتاظا: «أليْسَ عندكم موضوع آخر غير الحديث عن الموتى؟».

ولكن ياأستاذ، إن حديثاً كهذا لا يشغلنا نحن فقط، بل العالم بإسره، قال صالح وهو صحفي قميء، دائم المَرض، شديد الولاء لعبد الناصر.

وفي الحين، علق «الأستاذ» ساخراً:

-أرى أنكم مثل أجداد كم، لا تحبون إلاّ حكّاما يجلدون ظهوركم على مدار الأربع والعشرين ساعة. وحين يقضون، تبكون عليهم بدموع العجائز الثكالى! تململ صالح مغتاظاً، وصاح مُحتجاً:

-اسمع يا أستاذ... أنا لا أسمح لكَ بأن تسخر من عظيم رفع رأس العرب عاليا! قهقه «الأستاذ» حتى ارتجّ البار بأسره، ولمعت عيناه بتلك القدرة الفائقة على التهكم، ثم صاح:

-اسمعوا. أنتم تعلمون جيّداً إني أمقت السّياسة وأهلها مقتي للفقه وشيوخه، لكن دعوني أسألكم: وهل للعرب المهزومين طول الوقت رأسٌ حتى يرفعه ذلك الأونباشي المتخلّف؟!

أحدث كلام «الأستاذ» زوبعة عاتية. ورغم ذلك ظل هو هادئاً أمام خصومه وببرودة أعصاب يُحْسَدُ عليها، راح يجرّد عبد الناصر من جميع خصاله حتى أبقاه جنديا عاريّاً، حافي القدمين يلهث عطشان مهزوماً في رمال سيناء. بعدها نهض وهو منفعل قليلا، وصاح:

-اسمعوا. ليس لدي وقت أضيّعه في الثرثرة عن الأموات والزعماء المهزومين. أنا أريد أن أفسق في المدينة هذه الليلة. وعلى من يأنس في نفسه القدرة على ذلك أن يتبعني حالا!

كان هو وياسين من بين الذين لبّوا الدعوة، دون أي تردد.

يحلو التيه صحبة «الأستاذ» في بارات المدينة. «فأما بار «الزنوج» يا أولاد فلتوديع النهار» كان يقول. «وأما بار«الكوسموس» فلاستقبال الليل. وأما بار «الميناء» فلكي لا ننسى قولة الخيام الشهيرة: «فما أطال النوم عمراً ولا قصّرَ في الأعمار طولُ السّهرْ». وأما بار «الكاينجو» فلكي نتجنب سماع أصوات المؤذنين لصلاة الفجر»

خلال ذلك التيه الليلي الجميل، كان «الاستاذ» يحرص دائما أن يقول له ولياسمين: «انتبها جيّداً أيها البدويّان، إذا ما أردتما أن تكونا كاتبيْن حقّاً، فإنه يتحتم عليكما أن تتحاشيا الجلوسَ إلى أدباء هذه البلاد ذوي الكروش الضَخمة، وإلاَّ فَانكما ستصابان بالعقم طول الحياة!».

وهو يذكر أيضا أنه تجرأ ذات مرة وأطلع «الأستاذ» على بعض ما كان قد كتب في ذلك الوقت. مرّ أسبوعان دون أن يعلق «الأستاذ» بكلمة واحدة حول الموضوع. وذات مساء، وكانَا يشربان البيرة كالعادة في بار«الزنوج»، انحنى عليه «الاستاذ»، وهمس: «أنصحك بأن تحرق حيناً جميع تلك السخافات التي كتبتها إلى حدّ الآن!». صُعِقَ هو، ففرّ من البار مثقلاً باليأس والإحباط. وعلى غير عادته، عاد مبكراً إلى الحيّ الجامعي ليعيد قراءة جميع النصوص التي كتبها. عند الفجر نزل إلى الحديقة. وبعد أن أشعل النار، رمى بكدس الورق وظلّ يتأمله حتى تحوّل الى كتلة من رماد.

يغوص في أزقة ملتوية، فارغة تماماً. حيطان تستند إلى أخشاب، وأخرى متاكلة، مقشّرة رسمت عليها بالفحم قلوب تخترقها نبال أو كتب عليها بأحرف غليظة «انا وهي روحان في جسد!».

«آه، كم أشتهي أن أموت بين فخذي أورنالاً مُوتي!»

«أكيد أنه نائم»، يقول، ذلك أن «الأستاذ» عوّدهم على النوم بالنهار، وعلى الصّحو بالليل. دائما كان يحلو له أن يردّد: «أنا مثل خفاش، لا أحبّ إلا تلك الكائنات التي تسعى إلى رزقها في الظلام! أما النهار فللمتسوّلين وموظفي البنوك ومعلمي الأرياف وكتاب قصص الغرام السخيفة».

يطرق الباب البنيّ بهدوء في البداية. وحين لا يتبيّن جواباً، يشرع في الضرب بشدّة مناديا: «أستاذ، ياأستاذ، أنا عبد الفتاح!».

فجأة تنفتح على يمينه نافذة، يبرز منها رأس عجوز شبيهة بعنزة مذعورة، تصيح بشيء من الحدّة:

– ماذا تريد؟

– هل الأستاذ هنا؟

– الأستاذ مريض. وهو لا يرغب في رؤية أحد!

– ولكن أنا صديقه، ولم أره منذ عشرة أعوام

– هذا أمر لا يهمّني. تقول العجوز، ثم تغلق النافذة بانفعال. يخيّم الصّمت من جديد، فيبدو البيت ساكناً هامداً مثل قبر. مرّة أخرى يسلم نفسه للشوارع الضيقة الصّامتة، ويمضي نازلاً بخطى متثاقلة باتجاه «باب البحر».

بعد العشاء، كتب في دفتره الصغير: «وأنا عائد في التاكسي إلى الفندق، غنّى الشيخ العفريت تلك الأغنية الحزينة التي كان يعشقها ياسين:

لِيَّامْ كيفْ الريحْ في البرّيه   شرْقي وغرْبي مَا يْدُومْشْ دِيمَا

وفي الحين تهاطلت عليّ تلك الكآبة التي عصفت بي يوم سقط العجوز على وجهه في مقهى «أدريا» بشارع «الأتراك». وظلت تتهاطل ثقيلة مرة. وأخيراً تكومت في أعماق النفس مثل كتلة من الرماد البارد. نعم. الزمن يمضي بسرعة الريح في الطواحين. لا شيء

يدوم، ولا شيء يبقى على حاله. ها أنا أجوس في أطلال الماضي تماماً مثلما يجوس الشاعر الجاهلي في الصحراء بحثاً عن أطلال الحبيبة. و عندما كانت التاكسي تقطع «حلق الوادي» غمرني إحساس باليتم، واحتدمت رغبتي في رؤية ياسين. وكم مرةً كدت أصرخ في السائق أن يعيدني إلى العاصمة لكي أبحث عنه في البارات.

الآن يبدو لي أن الليل سوف يكون طويلاً وشائكاً. وربما لن يكحّل النوم جفوني برغم أني شربت ما يزيد على نصف زجاجة ويسكي. صورة تلك العجوز التي أطلّت عليّ من نافذة بيت «الاستاذ» تلاحقني طول الوقت وصوتها الخشن يجلد دماغي، ويمزّق لحمي بقسوة وعنف. «الأستاذ» مريض ولا يرغب في أن يرى أحداً!.

عليّ أن أعجّل برؤية ياسين. الحقل الأخضر للأحلام القديمة تعرّى تماماً. أضحى بشعاً، مقفراً، موحشاً. أسمع صخبَ البحر ونَهيثَ نَفْسي الضائعة في دُورب الماضي البعيد».

VI

هي مرة أخرى. برائحتها المثيرة، وصوتها الناعم، وفستانها الأبيض يوم طافت به في ترشيش أول مرة. أمطارُ الياسمين تنثال بهدوء. المدينة تسبحُ في نور كأنه نورُ لوحَات رامبرندت، السِّحر على واحاتِ الجنوب، كثبان الرمل عند الغروب، الحنّاء في أقدام صبايا الشرق، سورة الرحمان في فجرِ القيروان، جسدها حين تشتهيه. نور على نور.

على مهل يقطع «باب البحر». لا سيارات سوداء. لا شرطة. لا وجوه عابسة أو فزعة. لا أخبار عن عصابات الملتحين. لا تمثالَ للزّعيم. وهو يغوصُ في تلك الشوارع الضيقة المتداخلة. قلبه مفعم بغبطة لا مثيل لها. في نهاية شارع «الريح» ينفتح أمامه باب بنّي كبير. يجتاز سقيفةً معتمةً قليلاً ليجد نفسه في صحْن بيت مزيّن بالمرمر الأزرق، تنتصب في وسطه زيتونةٌ، لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيءُ. ثم يشمّ رائحتها، ويأتيه صوتها ناعماً كَهَمْس الموج على الشاطىءالاملس. اقْتَربْ، اقْتَربْ. يتبعُ الصوتَ، ويظلُّ يقتربُ، يقترب. ينفتح أمامه بابٌ أزرق سماوي. تمتدّ رائحتها فينتشي ويتأجّج جسدهُ بلَهَب عشقها. اقْتَربْ، اقْتَربْ. تحتضنهُ طويلاً. تُقَبّلُهُ بنَهم. «أريد أن تكون دائماً بجانبي، يا شاعري البدَويّ المجنون!». ثمَ تنهض. تلبس فستانَها الأبيض. تشدّ خصرهَا بحزام ورديٍّ. تنتعلُ حذاءً خفيفاً: «تعال أطُفْ بكَ في ترشيش التي ضعْتُ فيها عندما قدمْتُ من الريف أول مرة!». معاً يتيهان في الأسواق. أصوات الباعة تنثر المرح والطرائف. الأغاني

تتتابع. الواحدة تفضي إلى الأخرى. خالي بدّلني واشْ عليكُم فيه، هو يَغْضَبْ وَانَا نرْضيه.

أنا كالطير في وكْر يُغَنّي. تحت الياسمينة في الليل نسمة، والورد محاذيني. ريحة لبلاد يَا بَابَا وردْ وياسمين يا بَابَا. روائح الحنّاء، التوابل، البخُور، ماء الزهر، أعشاب الجبال المجففة، مَرَقُ الحمّص وسيقان البقَر، الكتب الصفراء، النراجيل، الشاي المنعنع، الماضي البعيد. بين الحين والآخر تتوقف به أمامَ نوافذ محدبّة، أبواب بهتَتْ ألوانها أو نقشتْ عليها آياتٌ قرآنية، أو أحاديث نبويّة، أو أبيات من الشعر القديم. بيوتٌ نصف مهدّمة أو متداعية تماماً. ساحاتٌ مهملةٌ، دروبٌ رطبةٌ معتّمة، مساجدُ تشقّقت جُدرانُها، خرائبُ غطّاها العُشْب، مكتباتٌ تغصّ بالمصاحف والمخطوطات. تأخذ في فكٌ رموز الألوان وَالنّقوش، أو في نبش التاريخ، أو في استعراض ذكريات وأحداث عرفتها المدينة في زمن قريب أو بعيد. في هذا البيت -تَقُولُ- احترقتْ حبيبة مْسكَية صُحبةَ عشيقهَا. انْظُر. لقد تحطّم البابُ، ونبتَ العُشْبُ في شقوق الجُدران، والطيور بنت أعشاشها على السطح. غير أني كلّما مررتُ من هنَا، أخال أني أسمعُ حبيبة مْسيكَة تغنّي وسط اللّهَب. رمَاني عْلَى السّريرْ وْدَلّعني. تصمتُ قليلاً ثم تضيف: حبيبة مْسيكَة هي شهرزادُ هذه المدينة التي فشلَتْ في ترويض شهريار. بعدئذ تجرُّه إلى مقهى كرَاسيه من سَعَف، يجلس فيه شيوخٌ مَلفوفون في برانيس بيضاء، يدخّنون النارجيلة، ويتحدثوَن بأصوات عَالية، مطلقين سْعلات قويّةً بين الحين والآخر. في هذا المقهى كان الشيخ الجليلُ العرْبي الكبّادي يسامر مُحبّيه ومُريديه. يحدّثهم عن مُغامرات عنتر بن شداد العبْسيّ، مقتل طرفة بن العبد، هجرة الرسول إلى يثرب، غراميات هارون الرشيد، جواري أُمراء قرطبة وغرناطة، حروب قبائل بني هلال.

«رحل بوزيد ويحي ومرعي، واجتازوا الجبال والأودية، حتى وصلوا في النهاية إلي الأرض التونسية الخضراء، التي كانت تُعرَفُ في ذلك الوقت بإفريقية، واندهشوا من كثرة خيْراتهَا، ورأوا السكّانَ ينعمُونَ بحياة كلها رفاهية ونعيم، وثروة وأموال، وأرزاقٌ فائضة في كلّ مكان، فأعجبتهم الأرض، ونزلُوا في مكان كان قريباً من أحد معسكرات جيش الزناتي، أشعلوا النار، تحلّقوا حولها يتحدثون. مرعي: إيش رَايكْ ياخالي في هذه الجنّة الخضْرَاء؟ بوزيد: الأرض أرْضين، وخيرها خيْرين، رخْوة، صالحَة للَزّرعْ، صالحَة للضّرْع، هذي أرض ماتعرف الجدْب، نباتها أخْضر ومَاهَا عذْب، اسْمَاهَا ياقُوتْ وتْرابْهَا

حْرِيرْ، زرعْ وضَرْعْ، الخير في الأصل والفرعْ، أشجارها ظلٌّ وثمَارْ، وغَلّتها فايْضَة على جارَ الجَارْ، أهلها في الخيْر غَاطْسينْ، وعلى الشر غافْلين، وخيلْهم بالحشيش ثقْلَتْ بْطُونْها، وفي الحربْ رْقَدْ عُونْهَا، بكْرَهْ نرجَعْ لبني هلالَ، نلمّ العيال، ونحمّل الْجَمَالْ، ونرحل في الحال».

عندما كنتُ صغيرةً، كنتُ أحرص دئما، عند ذهابي إلى المدرسة أو عند عودتي منها، على أن أتوقّف طويلاً أمام المقهى لكي أستمع إلى الشيخ وهو يتحدث إلى جُلاّسه بصوت جْهوريّ، ويداه مشرعتان في الهواء. كنت أعشق بُرْنُسَهُ الجَريديّ، جُبّته الْقمرايَة، شاشيّتَهُ الأسطمبولية، شاربه المشذّب بعناية طُولَ الوقت، وجهَهُ العريض مثل السهل، عيْنَيْهَ المُشعّتين وقاراً وحكْمة. ويوم يغيب عن المقهى، تبدو لي المدينة مقفرةً، موحشةً، مثل قصر مهجور. مرة أخرى، تصمتُ قليلاً، ثم تضيف: «أتعْلَمُ أن هذا الشيخ الذي كان يحفظُ القرآن عن ظهر قلب، ولا يغيب عن صلاة، كتبَ واحدة من أجمل أغاني العشْق التي غنّتها صَليحَة». تبتعدُ به قليلاً، تشير إليّ ساحة مهملة تتكدس فيها النّفايَات والأوساخ، وتقول: «أمّا هذه الساحة، فقد كانت تمتلىء ليلَ نهار بمروّضي الأفاعي، وقارئات الكفّ، وعُمْيَان ينشدون البردة، ويتذاكرون في المَواعظ، ويجوِّدون القرآن، وبسحرة يأكلون الزُّجاج المهشّم والعقاربَ والمساميرَ، ويرقصونَ وسط اللهب، ورواة يقصّون قصة سيدنا يوسف وزُليخة زوجةَ العزيز، والجَازيّة الهلالية، وسيدنا علي ورَاسْ الغُول».

يـــارب وانـــت رجـــايـــا	لا فـــي ســـنــد غـــيـــر بـــابـــك
مـــن الـــنـــار نجـــي عـــظـــايـــا	واســـبـــل عـــلـــي حـــجـــابـــك

وتقول: «أمّا هذا فبيتُ أحد مشاهير فقهاء جامع الزيتونة. وكان في النهار يُبْدي الورع والتّقْوَى، أما في الليل فيتحوّل إلى ماجن فاسق يُحيطُ به أهلُ الطرب والزهوَ واللذّة. يظلون يشربون ويغنون ويرقصونَ على أنغام الدفوفَ حتى صلاة الفجر. ويقال إن الفقيه كان يجيد الغناءَ والعزف، بل إنه كتب العديد من أغاني العشق التي غناها له المطربون والمطربات في زمانه دون أن ينسبوها إليْه بطبيعة الحال. وعند بلوغه الستين، تزهّد مثل أبي العتاهية، وانقطع عن الناس انقطاعاً تاماً، واعتكف في بيته حتى وفاته. ربما يكون قد كتب هذه الأبيات على بابه حين هجرَ الخمْرَ والمجون».

ثم تسحبه من يده، وبعد أن تقطع به «سوق الذهب» المزدحم بالنساء، تغوص به في شوارع ضيقة، متداخلة، خالية تماماً الا من بعض العجائز والأطفال والقطط الهائمة. وأخيراً تتوقف به أمام درب صَغير، تغسله الشّمسُ، وتفوح منه روائح البَخُور، والثياب المنشورة على السطوح، وتقولَ: «انْظُرْ. هناك في اخر الدرب. في ذلك البيت ذي الباب الأزرق، كان يسكن علي الدُّوعَاجي صحبة أمه العجوز. وقد روَتْ لي أُمي أنّها، وهي صبية لم تتعدّ العاشرة، كانت تراه يومياً يمرّ مُضْطَرِبَ الخطوات، مائلَ الرأس قليلاً، كما لو أنه يشتهي النَّوْمَ حتى وهو يمْشي. وأبداً لم تكن أمّي تتصوّر أن ذلك الفتى الخامل الحركات، الذي يبدو معتوهاً إلى حدّ ما يمكن أن يكون كاتباً فذاً وشاعراً رقيقاً. وبعد أن تتمعّن طويلاً في الباب البنّي الذي ينفتح فجأة ليبرز منه شيخ طاعن في السن، يتوكأ على عصاه، ويلهث من شدّة الوهن، تقول: «لا أحد مثل علي الدوعاجي استطاع أن يفهم عالم نساء المدينة العتيقة، ويصف بمثل تلك السخرية اللاّذعة المحبّبة للنفس، النّساءَ البائرات، والمطلقات القَلقَات وراء الجدران العالية، والمتلصّصَات من الشّرفات أو من ثُقوب الأبواب، والضّجرَات بأزواج طاعنين في السن، يشخرون طُوَل اللّيل.

حين أقرأ قصصه، أُحسّ أني أعرف جميعَ النساء اللائي يصفُهُنّ ويتحدث عنهن. نعم. إنّهن عمّاتي، وخَالاتي، وجاراتي. عندما كنت صبية في شارع «الريح». وأنا بدوري أشعر أحياناً اني واحدة من أبطال قصصه. فأنا تلك الزوجة الشابة التي تخرج في الليل وحيدة تحت الرذاذ ملتفة بالسفساري لتخون شهريار. وها أنا أقف في الشارع الساكن، تحت المطر، ويشت، ويشت. ثم يأتي ذلك الحلاّق الوسيم ذو الشاربين المنتصبين إلى فوق، مثل ضابط تركي. مساء الخير يا لالّهْ. تْحَبْش نغطّيك بسحابتي. نظن الشتاء حاصرتك. نوصّلك وين تقصد؟ وأظهر شيئا من التمنّع ثم أتبعه، كعبي العالي يضرب الشارع المقفر المعتم، طقْ، طقْ، طَقْ. ثم يشرع الحلاّق في إغوائي، بالله اشْ اسْم هَا الرّيحة اللّي عَنْدك. وأتَصَنَّعُ أنا الغَضَبَ وأصيح فيه: مَا وْاتّفقْنا الكلام لاَ. لكن الحلاّق لا يلبث أن يعُودَ إلى مُداعبتي بكلام معسول. طق، طق، طق. والدّنيا ساكْنَة، والأبواب مْغَلْقَةْ، والمدينة تشخر، وأنا أتمنّع وأتدلّل. نمْشي مْعاك لْدَارِكْ بشرط مايْراني حتى حدّ. واللي نقلّك تعمل. فهمت؟ ثم أصعد مدارج البيت العتيق، أتمدّد على السدّة. وأخون شهريار العنيد، حتى أُثبتَ له أن كيد النساء أعظم وأشدّ من كيد الرجال. ثم أنا حدّي، تلك المرأة الصحراوية الجَميلة التي تسْحَرُ قلوبَ الرجال بلهجتها البدوية الناعمة كزهْر

الدفلى. وها أنا مع بعض منهم أدخّن الحشيشَ في ليل الواحَات. السواقي توشوش، القمر يترنّح سكراناً فوق الصحَراء الهامدة. الصراصير تئنّ. وهناك، وراء الأبواب المغلقة، تمرّر الصّبايا العاشقات الوسائد على صدورهن الضاجّة بالحب والرغبة. وحين تكتمل النشوة، ويرتخي الجسد، ويصبح الليل بنعومة الحَرير، أشرع أنا في الغنَاء، وأظلّ أغني. وأُغنّي. والرجال من حولي ذاهلون. لا أحد منهم يَجرؤ على الكلام ولاَ على الحركة. أوحتى على التنحنح، وأنا أغني رحلة العاشْقين والعاشْقَات عبر الصحراءْ، الممتدّة من مراكش إلى تومْبُوكتُو، ومن نهر السينغال إلى َنهْر النَيل. صوتي يملأُ اللّيل، يتدفق مثْلَ مياه السَّواقي في جنائن الجريد، حتى أشجار النخيل العالية تحْنيَ هاماتها خشوعاً لصوتي. والرجال مَن حولي ذاهلون. وانا سيدة الكون بأسره!»

تغمض عينيها وتصمت. من إحدى الشرفات القريبة يتعالى صوت الطّاهَرْ غَرْسَة مردّداً. بالله يا مَشْمُوم الفُلْ. كلّمني للآكْ اطلْ. باللّهْ يا مشْمُوم الفُلَ. من جديد يعاودان الطواف، وتعود هي إلى الحديث: «ثم أنا واحدة من تلك المغنيات اللائي كن يجالسن جماعة الدُّوعاجي في مقهى «تحت السور». . اسمي فتيحة، لكن الجماعة يطلقون عليَّ اسم «تيتي»، مات والدي وأنا في الرابعة عشرة من عمري. وبعد سنة فقط التحقتْ به أمّي، وعندئذ اضطررت للانتقال إلى بيت عمتي الفقيرة. ولأنّ زوجها السكير كان يضربني ويضربها كلُّ ليلة تقريباً، ولأنه حاول أكثر من مرة أن يغتصبني وأنا نائمة، فقد فررْتُ من البيت وتهْتُ في الشوارع. ظللْتُ على تلك الحال حتى التقيت الجماعة، وحين غنّيت لهم بعضاً من أغاني اسْمَهَان وحبيبة مْسيكَة أُعجبُوا بصوتي، بل ووعدني أحدهم بأن يقدمني إلى القسم الموسيقي في الإذاعة. وهَا أنا جالَسة بينهم ذات مساء خريفي رائق. طاولتنا في الركن الأيمن من المقهى. عليها لُوحٌ من رخام حَفرَ فيه أحدهم صُوراً ونقوشاً تُشبه الصور الهيرُوغليفيّة، والنقُوش البابليّة. معنا موسيقيون ناشئون، متعهدو حفلات فنّية، أدباء فاشلون، صحافيُّون عاطلون عن العمل، أو فصلوا عن عملهم قبل يوم أو يومَين، ممثّلون صَعَدُوا على الركح مرة واَحدة. ولمدة خمس دقائق فقط. الجميعُ مُفْلسُون. وأنا أيضاً.. لكن النادل العجوز لا يبخل علينا بالقهاوي والشاي المنعنع وبعض المرطَبات التي تشتد شهوتُنا إليها، خصوصاً بعد أن ندخّن شيئا من الحشيش. ورغم إفلاسنا التام، فان المرح لا يفارقنا، وها عليٌّ الدُّوعاجي يطلق النُكتة تلوَ النُّكتة، والطّرفة تلو الطّرفة، فيضجّ الجميع بالضحك، ونظلّ نضحكُ وَنضحكُ حتى تدَمع عيوننا، ويسقط اَلبعض منا علي الأرض من

شدّة الضحك: «صاحبنا، يا جماعة، خُلِقَ لكي يكون أُنْباشيّاً في جيش مهزوم، أو إماماً قميئاً في حيّ يضجّ بالأشرار والقوادين وعَتاة اللصوص. غير أن صاحبنا حرص على أن يكون أديباً، نعم أديباً، أيها السادة والسيدات. وقد كتب صاحبُنا في القصة والشعر والمسرح والمقالة وحتى في الإقتصاد السياسي والمسائل المتعلّقة بالمحافَظة على حسن الأخلاق ونظافة المدينة! وعندما رفضت كل الصحف المواد التي أرسل بها إليها، لم يحزن صاحبنا، ولم يتألم، ولم يُصَبْ بالإحباط، بل جاءنا معطّرا، أنيقاً، هادئ الملامح. وبعد أن مسح وجهه بمنديله، تنحنح كما اعتاد أن يفعل دائما قبل أن يشرع في الكلام، ثم قال: «اسمعوا يا جماعة. هم يعتقدون حين يرفضون روائعي أني سوف أصاب باليأس، وأنقطع بالتالي عن الكتابة، غير أن هؤلاء الأنذال الجهلة نسوا أن كل عبقري سابق لزمانه، وغريب بين أهله. وأنا على أتمّ اليقين يا جمَاعة أنه لايوجد أحد في هذه البلاد قادر أن يفهم ما أقول وما أكتب. وهذا ما يجعلني أزداد تأكداً بأني عبقريُّ زماني!».

ومرة عشق صاحبُنا مغنيةً لها عُنقٌ جميل. ومن شدّة هُيامه بها أصبح صاحبنا يصاب بنوْبة حُمّى كلَما الْتقاها. ويوماً ما حضر سهرةً كانت تحضرها المغنية الجميلة، وبعد أن أكل القومَ وشربُوا، أخرج صاحبنا ورقة، وصاح: «اسمحوا لي أيها السادة والسيدات أن أقرأ على مسامعكم قصيدة أوحت بها إلي هذه الأميرة صاحبة العنق النِّفْرتيتي!» صمت الجميع وبدأ على وجه المغنية الاهتمام وحبُّ الإنصات. تنحنح صاحبنا ثم أنشد، وهو في حالات الغرام والوجد: «سيدتي... ! أحْمْ! موْقعُ عنقك الجغرافيُّ أوْقَعني في بحر من الألم!»

عند هبوط الليل، يأتي العرْبي متهلل الملامح يجلس بجانب الدوعاجي. يهمس له ببعض الكلمات فيبدو البشْرُ على وجهه، كما لو أنه طفل تلقى هدية للتو. يظلاّن صامتيْن حيناً من الزمن، ثم يغمزان لي أن تعالَيْ معنا. ننسلّ من بين الجماعة دون أن نثير انتباه أحد في الشارع، يقول لي الدوعاجي: «هذا الفتى الملعون أتانا ببعْض المال وقد ارتأيناً أن نهدره في بارات باب البحْر!» نتيه في البارات طول الليل. يقرأ الدوعاجي قصائد لأبي نواس، أما العريبي فيقرأ قصائد لرامبو وبودلير. أغنّي أنا بعضاً من تلك الأغاني التي تستهويهما، يشتد الطرب بالعريبي فيرقص فوق الطاولة، بينما الدُّوعاجي وسكران آخر يصفّقان ويتمايلان. تتحطم زُجاجتان وعدّة كؤوس. يطردنا صاحبُ البار، وهو يلعن الشعر والشعراء. نذهب إلى بار آخر، فيتشاجر الدوعاجي معَ صاحبه لأنه يرفض أن يعطينا

شراباً، بدعوى أننا سُكارى أكثر من اللزوم. نجتاز شوارع شبه معتمة، خالية تماماً من الناس، يتبول العربيبي على واجهة عمارة أنيقة وهو يغني: «الحلْوة دي قَامَتْ تعْجن في الصبْحيّة... ».

في بار «الكاينجو» لا نجد كثيراً من الزبائن، نطلب زجاجة شمبانيا، وأغني أنا... رْماني علَى السّرير ودّلعْني... وأظل أغني وأغني حتى أشعر أني أتحوّلُ إلى عصفورة تحلّق في سَماء يغلّفها سحابٌ وردي، وأظل أرتفع إلى أن يغيب عني كل شيء. حين أستيقظ، أجد نفسي عارية تماماً بين العربيبي والدوعاجي في غرفة تعج بالكتب والقناني الفارغة. ومن الشارع يتعالى صوت بائع الروبافيكا مرحاً، مغسولا بضوء النهار الطالع: «فيكا... رُوبّافيكا... فيكا... ».

يظل يتبعَها صامتاً مبهوراً مثل طفل يتعلم الأبجدية. بعد أن يجتازا سوق العطارين، تقول له: «أتعلم أنّ جلّ أولئك الفتية المجانين، جماعة تحت السور، قضوا قبل أن يتجاوزوا الثلاثين. يا إلهي. كم تقسو ترشيش على أبنائها أحياناً. ولكن عندي فكرة. ثمة واحدٌ عاشر تلك الجماعة طويلا. وهو يسكن قريباً من هنا. فلم لانزوره؟!».

يطرقان بابا غليظاً مشقّقا. تطلّ عجوزعمشاء من بين الظلفتين.

- هل سي البشير هنا؟

- إنه فوق! تقول العجوز ثم تتوارى عن الأنظار بسرعة.

يصعدان المدارج اللولبية. رائحة الرطوبة والنوم. في آخر المدارج يجدان سّي البشير واقفاً بالسروال التركي الواسع والبدْعيّة البيضاء والشاشية الحمراء، يدخن الغليون، وبجانبه قط أحمر ضخم يحدق فيهما بريبة وحذر.

- لقد سمعت صوتك تحت فقلت إن نادية لا تنساني أبدا. يقول سي البشير وهو يشد على يديهما مرحّباً. الصالون الصغير مرتب ترتيباً رائعاً. في خزانة بنّية كبيرة، صفّفت الكتب بعناية. على الجدار المواجه، صورتان: عجوز بزي نساء الجريد، وشارلي شابلن.

يضع سّي البشير أمامهما قهوتين تركيتين، ثم يقول:

- منذ شبابي أحرص على أن تكون صورة أمي وصورة شارلي أمامي حين أكتب أو حين أنهض من النوم. فأما أمي فلأنها علمتني كيف أتسرّب إلى قلوب النساء، وكيف أنفذ إلى أسرارهن. وأما شارلي شابلن فلأنه يضحكني حتى في أوقات الكساد والموت. يكفي

أن أتأمل الصورتين قليلاً حتى أنسى وحشة الوحدة ومرارة الشيخوخة. لقد انتقلت عائلتي إلى فيلا حديثة في واحد من هذه الأحياء الجديدة التي يقيمونها في كل مكان. أما أنا فقد فضّلت البقاء في هذا البيت المتداعي، ولا أريد أن أغادره إلا ساعة الممات. وكيف لي أن أتركه وهو يختزن جميع ذكرياتي منذ أنْ هاجرتْ عائلتي من «الجريد» إلى العاصمة قبل مايقارب الستين عاماً. أتذكر ذلك جيداً كما لو أنه حدث البارحة أو قبْلَ ساعة فقط.

أتذكّر الجلبة التي رافقت رحيلنا، والدموع التي ذرفها أهلنا، والبغل الأسود الذي جرّ عربتنا حتى محطة القطار. الوقت خريف، والذباب يتكدّس على وجوه الناس الممددين تحت الحيطان. أتذكر أني أكلتُ بيضتين خلال السفرة الطويلة وأني نمْتُ في حجر أمي. وحين وصلنا العاصمة، كدت أدوخ بسبب شدة الضجيج وكثرة الناس، وأكبر شيء أدهشني في البداية، أنا القادم من رمل الصحراء هو الجليزْ، نعم الجلِيزْ، ثم النور الكهربائي. يقترب من النافذة. يتأمل السطح المواجه طويلا، ثم يقول:

- أنظر إلى ذلك السّطح. فوقه عرفت حبّي الأول. آنذاك كنت في الخامسة عشرة من عمري، وفي البداية كنت أرمي برسائلي إلى زكية السمراء، ذات العينين الدّعْجَاوين حين تصعد إلى سطح بيتهم لنشر الغسيل. وكانت هي تردّ عليه بغمزات وإشارات تجعلني أتقلّى على الجمر طول الليل. وذات غروب، غامرت وقفزت إلى سطح بيتها، رحت أقبلها بجنون حتى ذابت بين أحضاني. بعدها صرنا نلتقي على السطح كل ليلة حين يهجع الحي، في الحرّ كما في البرد، في الصّحْو كما في المطر. ونظل نتناجى حتى الفجر أحياناً. ثم زُفّت زكية إلى تاجر أصلع يكبرها بعشرين عاما تقريبا. وبكت زكية واقترحت علي أن نفرّ معا إلى الجبال. (يبتسم) آ... لقد كانت لها أفكار غريبة. وطبعاً لم أجرؤ على تنفيذ ما طلبت منّي، غير أني وعدتها بأني سوف أفتكُّها من زوجها العجوز، حالما أكمل الدراسة، وأعثر على وظيفة في إحدى الوزارات. وليلة زفافها صعدت زكية إلى السطح وهي في قميص العرس، يداها ورجلاها مخَضّبتان بالحناء، والنساء يغنين و يضربن الدفوف ويرمين البخور في النار. تعانقنا طويلا ونحن نبكي. وفجأة صاحت امرأة في البيت:

-ياللاّ حَلُّومة، ويني العروسة؟

أجابت حلومة، أمّ زكية:

- هَيكة مَمْدودة على السدّة. قالت تحب ترتاح، راسها يُوجَعْ فيهَا.

- اسم الله على بْنيْتي. الخمسة والخميس على زينها. لو كان تُصُبّ شوي زَهَرْ على راسها تَوّاً ترتاح.

انفجرنا ضاحكين. وظللنا نضحك حتى كدنا نختنق بضحكاتنا. وحين رويت قصة حبّي الأول لعلي الدوعاجي بعد ذلك بسنوات طويلة، ونحن ندخن الحشيش في مقهى تحت السور طلب مني أن أكتبها. وطبعا كان الأمر في البداية صعباً بالنسبة إليّ، خصوصا وأني لم اكن قد كتبت جملة واحدة حتى تلك الساعة. لكن ذات ليلة هجرني النوم، فجلست أمام الطاولة، ورحت أكتبها بشكل محموم. وعند انبلاج الصبح، أنهيتها. بعدها اهتممت بتاريخ غزو الإسبان لترشيش، وشرعت في جمع الوثائق والكتب المتعلقة بالموضوع. صَدِّقاني. لقد نسيتُ كل شيء، واصبحت المدينة تتراءى لي كما لو أنّها محاصرة بجيوش شارل كانت. وكنت أرى الخيول الأسبانيةَ مربوطة في صحن الجامع الكبير، والناس يفرّون إلى الجبال هرباً من جيش الكفار. ثم أردت أن أقيّل ذات يوم، فلم يستجب إليّ النعاس، وبقيت أتقلب في الفراش، وبعدها نهضت في طلب مَا أملأُ به فراغي وأشغل به نفسي، حتى تنقضي الهاجرة. فعمدت إلى رفّ مهجور به كتبٌ قديمةٌ وأوراقٌ مبعثرة غمرها الغبار والأتربة، فجعلت انفض وأطالع. أغلبُها في تاريخ ترشيش. ثم أصابني السأم، فألقيت بالورق، وأخذت أقلب بعض الأدوات. أقلام من قصب ودوايات جافة ومرآة مكبّرة. أخذت هذه الأخيرة، وتأمّلتها، وإذا بي أتبيّن في حاشيتها كتابة بالخط الكوفي العتيق تقول: «مرآة النور لقراءة ما بين السطور». فبادرت إلى أوراق صفراء ووضعت المرآة بينها وبين عيني وقرأت. قرأت ما شفى غليلي. وعندئذ شرعت في كتابة قصة طويلة عن أميرة فائقة الجمال تدعى بلاّرة، كانت قد قاومت جيش الإسبان. وحين تجاوزت الألف صفحة، بدأ لي أن كل ما أكتبه مجردَ هذر لا يفي بالحاجة على الإطلاق. ولكي أتحاشى رؤية كتلة الأوراق الضخمة المكدسة أمامي، ألقيت بها في صندوق قديم في أحد المخازن، ثم تهت في المدينة مثقلاً بالإحباط واليأس. كان العريبي قد انتحر في باريس ليلة عيد الميلاد. والدوعاجي قد مات بالسل. وأضحى مقهى تحت السور فارغاً مُوحشاً لا يؤمه غير سفلة القوم من لصوص وقوادين ومهربي مخدرات. وتحت وطأة الفشل المَرّ قررتُ أنا أنْ أقطع صلَتي نهائيا بالكتابة. وحتى أثبت لنفسي أنّي قادر على ذلك، فتحت دكاناً صغيرا لبيع الأقَمشة، وخالطتُ تُجّاراً وأناساً لم يسبق لهم أن فتحوا كتَاباً واحداً في حياتهم.

ثم كانت تلك الليلة. ليلة قائضة من ليالي أغسطس. صببت سطل ماء بارد على جسدي، ثم تمددت راغباً في النوم عقب نهار من العمل الشاق. وحالما ثقلت جفوني، ضجّ الحيّ بموسيقى السطمبالي. وطبعاً جفاني النوم في الحين فرحْتُ اتقلب من شدة الضجر والغيظ، لاعناً موسيقى السطمبالي وعازفيها. وبعد منتصف الليل بقليل، استحوذ عليّ هدوء غريب، واحسست أن تلك الموسيقى الصاخبة الرتيبة تتسرب الى جسدي ناعمة رقيقة، ثم أخذتْ تهدهدني حتى بدأ لي أني أطير محلقاً فوق بحر الصيف. بعدها طوّح بي الخيال بعيداً، فإذا بي أرى قرصانا أشداء يختطفون أطفالا زنوجاً بينما أمهاتهم تَنُحنَ في الرّيح. ثم رأيت صبيّا زنجيّاً لا يتعدى عمره الخامسة يباع في سوق النّخاسة في ترشيش. وحالما تستكمل إجراءات بيعه، يؤخذ الى قصر أميرة جميلة تدعى بلاّرة. وبعد مرور أسبوع فقط على ذلك، شرعت في كتابة تلك القصة التي رويت فيها غزو الاسبان لترشيش من خلال زنجي يدعى«برق الليل»، كان يعمل في قصور أميرات بني حفص عندما رست بواخر شارل كانت في ميناء حلق الوادي. . . ».

يصمت سي البشير، يجذب نفساً طويلا من غليونه، يداعب قطه الجاثم بجانبه، يتأملهما طويلا، ثم يقول:

«ولكن منذ فترة اصبحت أشعر أن ترشيش مهددة بشيء لا أدريه. شيء كالطاعون الكبير. وأحيانا أسمع في الليل أصواتاً غريبة وأنات حزينة، وأشم رائحة الدماء والجثث المتعفنة. وفي كوابيسي أرى كائنات قاتمة ترفعُ سيوفاً مضرّخة بالدم، وتزحف حاقدة غاضبة. كل الناس يفرّون الآن من ترشيش القديمة إلى الأحياء الجديدة. أحياء الاستقلال. أما أنا فقابع هنا في هذا البيت المتداعي، أراقب خراب نفسي وخراب المدينة من حولي. قبل أيام شرعت في كتابة قصة تعكس هذه الأحاسيس المرة التي تحاصرني في الليل كما في النهار. إنها قصة شيخ يعيش موته البطيء والانهيار المرعب للمدينة التي أحبها ولم يفارقها طوال حياته ابدا».

تخبو ذكريات اليوم البعيد ويظل هو ممدّدا على بطنه، ينصت إلى صخب البحر الهائج، وإلى الليل وهو يلتهم الليل.

VII

سماء قذرة، منقبضة الملامح، عارية هنا وهناك. الريح تهز أشجار السور هزا عنيفاً. البحر يتراءى قاتماً مثل حقل من رماد. يوم من تلك الأيام التي يعشقها ياسين «أنا رجل التناقضات -يقول ياسين- ولدت في عزّ الصيف، في يوم بلغت الحرارة فيه 45 درجة في الظل، غير أني أعشق الشتاء، والعواصف الهوجاء، والأمطار الغزيرة التي تحطّم الجسور، وتهدم أكواخ الفقراء، وتعطّل حركة المرور في المدن الكبيرة، وتقطع الصلة بين الشمال والجنوب. برجي، برج الأسد، نفس برج جلاد هذه البلاد العجوز الذي يمنع قصائدي، ويرسل مخبريه لملاحقتي في البارات، والتجسّس عليّ. الناس يخافون من المقابر، أمّا أنا فيستهويني التيه فيها ليلا بحثاً عن شيطان الشعر الذي يفرّ مني بين الحين والحين. أمضيت طفولتي في قرية ليس فيها غير الأفاعي والعقارب والعجاج، لكنني لم أعد أتحمل العيش إلا في المدن الكبيرة حيث الصخب والعنف والفجور والخيانات والأمراض العصبية المستعصية، وأكداس الزبالة، والمخبرون المصابون بداء السكري، وحوادث الانتحار والقتل اليومية، والقحاب اللاتي يتحدثن عن أحوال الطقس بينما أنت تنيكهن».

ذلك اليوم كان شبيهاً بهذا بالضبط. لكأنه توأمه. هم جالسون في مقهى «الأندلس» هناك في قلب المدينة العتيقة يدخنون بنهم، ويشربون شايا رديئاً، ويتحدثون في أمور شتى. صلاح الأحدب، الذي يحمل دائما في جيبه «البيان الشيوعي»، وعمار الذي يحفظ المعلقات العشر عن ظهر قلب ونور الدين الذي يعتبر أن الليبيدو هو المحرك الأساسي للكون

منذ آدم وحواء، ومصطفى الذي يعبد تروتسكي عبادة أهل الجاهية للاّت والعزى. وفجأة داهمهم فتى طويل القامة والعنق (بعضهم سمّاه الكركي في ما بعد)، بجبهة ناتئة قليلاً، ووجه حرقه صهد البوادي، وعينان صغيرتان ظامئتين لرغبات يصعب سبرها. ومن دون أيّ مقدمات، صاح فيهم : «أأنتم شعراء المدينة حقاً؟»، لم يجبه أحد، ذلك أن الجميع خمّنوا أنه من المحتمل أن يكون مخبراً سرّياً جاء ليستفزهم. ظل هو لحين يتأملهم، الواحد بعد الآخر، ثم صاح فيهم من جديد: «اسمعوا أيها الجبناء. الشعراء الحقيقيون لا يخنسون مع العامة في الأماكن الدبقة، والأركان المعتِّمة ولا يتخفّون كالعوانس البائرات. وإذا ما كنتم الشّنفري وأبي نواس حقاً، فإنه يتحتم عليكم، الآن، وفي هذه اللحظة بالذات أن تنزلوا معي إلى بارات المدينة!» وبعد أن أطلق قهقهة متشنجة قليلاً، ازعجَتْ بعض الزبائن، وأغضبت صاحب المقهى، أخرج من جيب معطفه الأسود الطويل، حزمة من الأوراق المالية، ثم صاح مزهواً:

- انظروا.. لقد عاهدتُ نفسي، حال نهوضي من النوم هذا الصباح، أن أصْرفَ كامل منْحتي الجامعية في بارات «باب البحر» صحبة أوغاد مثلكم. تعالوا إذن، ولتكُن ليلَةً نواسيّة حمراء.

ومن يومها أصبح ياسين زينةَ مجالسهم. كان، حين يسري الخمر في جسده، يهدأ، ثم يمدّد ساقيه، ويشرع في قراءة قصائده، وعيناه مغمضتان، وصوته يتموّج مثْلَ حقْلٍ من القمح تحت رياح أيار الناعمة.

لا مفرّ لك الآن من ياسين. عشرة أعوام بأكملها وأنت هارب منه. وطوال هذه المدة ظللت ملتزماً بالوعد الذي قطعتَه على نفسك قبل الخروج . لم تراسله، ولم تحاول أن تعرف ولو شيئاً قليلاً عنه وعن حياته. كنت تريد أن تثبت له أنك قادر على المضي في منفاك حتى الظلمات، وأن تعاقبه بسبب تلك الضحكة الساخرة التي كان يطلقها حين تستشهد أنت بجويس، وتخاطبه مثلما خاطب ستيفان كرانلي «اسْمَعْ ياكرانلي. أنت تسألني عما يمكن أن أفعله، وعما لايمكن أن أفعله، سأقول لك ما سأفعله، وما سوف لن أفعله. لن أخدم أحداً سواء كان عائلة أم وطناً أم كنيسةً. سوف أحاول التعبير من خلال شكل من أشكال الحياة الفن، وبالطريقة الأكثر حرية واكتمالاً، مستخدماً أسلحة ثلاثة: الصمت والمنفى والحيلة!». ، هاقد انتصرتَ، فلم التردد إذن؟ لا مفر لك من ياسين. إنه الوحيد القادر على أن يخفّف عنك وطأة هذه الغربة المرة التي لم تعرف لها مثلاً خلال تيهك الطويل. ثم إنك لا

تستطيع أن تنكر أنك شديد الفضول، أكثر من أيّ وقت مضى، لمعرفة ما جرى لياسين خلال السنوات الماضية. هل وخَطَ الشيب مفرقيه مثلك؟ هل حافظ على تلك الضحكة الساخرة التي يقاوم بها التفاهة والعنف والقسوة والشرّ؟ هل مازال يقرأ لوتريامون بصوت عال في بار «الزنوج»؟ وماذا تراه يقول عن الملتحين؟ لا مفرّ لك من ياسين، هذا النهار!

وضعته سيارة التاكسي الصفراء أمام «باب البحر». سار بين سيارات الشرطة السوداء وسط جموع بدت أشد كآبة وفزعاً من اليوم السابق. الريح الخريفية الباردة تكنس الشارع العريض، ناشرةً على ملامح المدينة نوعاً في الوحشة القاتمة. فوجئ لما وجد بار «الزنوج» مُغْلقاً، وعلى الباب يافطة: أُغلق المقهى إلي أجل غير محدد!».

مضى إلى مقهى «برازيليا»، غير أنه وجد مكانه محلاً لبيع العطور. آ. كم كان ياسين يحب هذا المقهى، خصوصاً في ساعات الظهيرة حين يكون شبه فارغ، وينزوي هو في أحد أركانه المعتمة ليقرأ أو ليكتب قصائده الساخرة. غادر مقهى «الروتوند» بسرعة، لأنها كانت تعجّ بموظفين متشابهين في اللّباس والشكل. هنا كان يحلو لَهُمَا الجلوس أحياناً لمغازلة تلك اليهودية ذات الأرداف المثيرة، التي كانت تعمل بائعة في محل الثياب النسائية المواجه للمقهى.

«صوتها يشبه صوت حبيبة مْسيكَة»، كان ياسين يقول. وبعد أن شرب قهوة «إكْسبريس» في مقهى «الكُوسموس»، هرع إلى بار «الكانيجو». «أكيد أنه هناك» قال. وفجأة وجد نفسه يحدق في شخص بكسوة رمادية، وشعر قصير، ونظارات سوداء، ووجه سمين، وشارب مسوّى بعناية، وحذاء لَمع للتو، ومشية صارمة، شبيهة بمشية ضابط تخرّج قبل أسبوع فقط من الأكاديمية العسكرية. ظل يتابعه بنظراته، ثم فلت منه النداء:

- جمعة!

توقف الرجل عن السير. راح يدير رأسه يمنةً وشمالاً، باحثاً عن مصدر الصوت. اقترب هو منه.

- ألسْتَ جمعة؟!

- نعم. أنا جمعة. أجاب الرجل بصوت مرتاب.

- أنسيتني؟!

أزاح الرجل النظارات السوداء عن عينيه. وبعد أن حدق فيه مليا، قال ببرود:

- آ. الآن فقط عرفتك. كيف حالك؟

- لا بأس. وأنت؟

- لا بأس أنا أيضا. لقد بلغني أنك هاجرت.

- منذ عشرة أعوام.

- آ. الوقت يمرّ بسرعة! قال جمعة وهو يتراجع إلى الوراء قليلاً وكأنه يرغب في الهروب.

في الوجه السّمين بشاعة تماثل بشاعة الفئران الميتة في كوابيس العوانس. عجاج الأكاذيب يكنس فُتَاتَ الأحلام القديمة.

- هل يمكننا أن نشرب قهوة؟

تراجع جمعة خطوة أخْرى إلى الوراء.

- المعذرة. لا أستطيع. أنا على موعد هام بعد دقائق!

خاتم الزواج يلمع في الخنصر الأيسر. الوجه السمين ينزّ بالعفونة. غثيان ورغبة في القيء.

- ربما نلتقي مرة أخرى! أضاف جمعة وهو يشدّ على يده بيد أشدّ برودة من صوته. ثم استدار وسار نازلاً «باب البحر» وقد فقد وقاره، ومشيته، مشية الضابط الفخور بتخرجه، وبدا مهزوماً، مبعثر الخطر، محني الظهر قليلاً، كما لو أنه مخبر أخفق في إخفاء هويته.

شمس فبراير الدافئة. رائحة الأرض التي بللها مطر خفيف عند الفجر. ساحة الجامعة تعجّ بجموع غفيرة من الطلبة. على الجدران، يافطات تطالب بالديمقراطية، وبإقرار الحريات العامّة، وتندّد بحرب فيتنام، وتمجّد الثورة الفلسطينية، وتحرّض على مواصلة الإضراب الذي بدأ قبل أسبوع. على المنصّة يقف الطلبة «الزعماء» يتوسّطهم جمعة، وقد أطلق لحيته مثل شيء جيفارا، وأرتدي جاكتة عسكرية بليت من كثرة الاستعمال «أيها الرفاق، علينا أن نصمد!» تصفيق حار وهتافات حادة. «علينا أن نثبت للنظام أننا لا نخاف التهديد والوعيد!» يبلغ الحماس ذروته، وتهيج الجموع مثلما يهيج البحر عند اشتداد العاصفة. «تسقط الفاشية. بالروح. بالدم. نفديك يا شعب!» زينب السمراء في البلوفر الأحمر، وينطلون الجينز تدور وتدور دون أن تكفّ عن التدخين. «نهداها أجمل من كل ثورات العالم! لكن أنتبه: جمعة سينتهي فقيهاً أو شرطياً كما قال الأستاذ!» يهمس ياسين،

وزينب تدور، تدور، وشفتاها المكتزتان تمصّان السيجارة بشراهة. والعيون تلتهم كفلها الذي جعله بنطلون الجينز يبدو أكثر استدارة وإثارة. «النساء الجميلات يصبحن أجمل حين يثرن!» تقول أنت لياسين. والشمس تمضي إلى مستقر لها وسط سماء ليس فيها غير السحائب البيضاء المتناثرة هنا وهناك. وعلى الروابي البعيدة نور كأنه هبَاء من فضة وذهب. فجأة يحدث تململ هائل، ويشتد اللغط والهرج. «أيها الرفاق. هدوءاً!» يصيح جمعة من أعلى المنصّة، غير أن صفرة القلق والفزع تندلق على الوجوه المبللة بعرق الحماس. «أيها الرفاق! الشرطة والميليشيات تطوق الجامعة. لكن لا يجب أن تخاف!» يضيف جمعة ملوّحاً بقبضته في الفضاء. وفي اللحظة ذاتها، يمتلئ الهواء بدخان خانق، وتتدافع الجموع الفقيرة هاربة وسط القنابل المسيلة للدموع، وهروات الميليشيات، ثم تفيض على الأحياء الفقيرة المحيطة بالعاصمة وهي تهتف عاضبة: «بالروح. بالدم. نفديك يا شعب».

حالما دخل بار «الكانيجو» ارتمى عليه النادل، العم سليمان، وراح يعانقه بحرارة. كان قد سمن حتى التصق رأسه بصدره، وأصبح يتنفس بصعوبة كما لو أنه يدفع طول الوقت بشيء ثقيل إلى الأمام».

- آه. كم أفرح حين أرى وجهاً من وجوه الشياطين القدامى!. قال العم سليمان. وبعد أن وضع بيرة أمامه، أضاف: «هذه على حسابي. أيها الوغد الرائع. لقد اشتقت إليك كثيراً. منذ سنوات طويلة لم أر وجهك. أين كنت؟

- هنا وهناك.

- آخ. كم كان جميلاً زمنكم أيها الشياطين. الآن لا شيء غير الكساد والقلق والوجوه العابسة والنفوس المريضة. أما زلت تتذكر تلك السهرات التي تقرأون فيها الشعرَ هنا على هذا الكونتوار حتى طلوع الفجر. يا إلهي. كم أصبحت كئيبة هذه المدينة!

شرب نصف كأس البيرة، ثم سأل العم سليمان:

- هل مازال أولئك الشياطين يأتون إلى هنا؟

لا. أبداً. لقد اختفوا نهائياً. الوحيد الذي ظلّ وفيا إلى هذا البار حتى أيامه الأخيرة هو ياسين!

- حتى أيامه الأخيرة ؟

- نعم حتى أيامه الأخيرة !

- ماذا يعني هذا الكلام ؟

حدق فيه العم سليمان، بدا وكأنه على وشك الاختناق ثم سمعه يقول :

- ألا تعلم أن ياسين انتحر قبل ما يزيد على الثلاثة أشهر ؟

- انتحر ؟!

- نعم. انتحر. آه كان رائعاً ذلك الفتى ! تصور أنه جاء إلى هنا قبل أربعة أيام فقط من الفاجعة وقال لي « ... »

لم يعد يسمع ولا يرى شيئاً غير الظلام. ظلام كثيف يزحف، ويسدّ كل المنافذ. ظلام النهايات. ظلام العدم. ظلام على ظلام. وهو؟ من هو في هذا الظلام اللامتناهي؟. «حين تعود، سوف تجد هذه المدينة مقبرة للأحياء، أما أنا فلن تعثر لي على أثر!» قال له ياسين قبل سفره. آه. كم هي قاسية ترشيش على أبنائها!. محمد علي الحامي ملطخ بدم المنافي في واد أجرد بين مكة والمدينة. الشابي يئن تحت وطأة القلب المريض، الطاهر الحدّاد يُرْمَى بالحجر، ويباح دمه لكي يهدأ الفقهاء العور. العريبي مسجّى تحت ثلوج باريس في ليلة عيد الميلاد، وياسين يتدلّى من السقف أزرق في حرارة أغسطس القائضة وحول رقبته الحبل الغليظ. منذ البداية، كل شيء بدا مسكوناً بهذا النبأ الفاجع. وحين حدثته السيدة أمينة عن صورة ياسين في الجريدة، أحسّ كما لو أنه يطلّ على هاوية مظلمة لا قرار لها. والآن هو لا يدري أيّ طريق سوف يسلك، ولا يرى من حوله غير كتل من ظلام مشحونة بالرعب والموت.

من جديد أتاه صوت العم سليمان مخنوقاً :

-إذا أردت أن تعرف كل التفاصيل، فعليك أن تتصل بعمّار، خُذْ، هذا عنوانه . هو دائما في البيت بعد السابعة ليلا .

سار في شوارع معتمة . شمّ رائحة سمك مقليّ . شاهد رجلا يتقيأ أمام عمارة متداعية، وآخر يبول على حائط وسخ، وقططاً تتعارك حول صندوق زبالة . سمع أغنية حزينة، وامرأة تعنّف صبيّها، وعجوزاً تسعل بقوة حتى لكأنها توشك أن تلفظ أنفاسَها . أكثر من مرة، انفجر في الهواء زعيقُ سيّارات الشرطة . ظل يسير على غير هدى حتى ثقل الهواء برائحة البخور الممتزجة بروائح المَنِيّ واللّحم النيىء المعروض على الأبواب . قهقهاتٌ ساخرة

تتصادم في الهواء. كلمات بذيئة تندفع من الأفواه التي تلوك الشّوينْجُوم بلا انقطاع. يا خديجة برأس أمك وَرّيهُولُو. وريّهُولُو. رَاهُو مَاشَافُوشي ملّي خَرَجَ منْ كرْش أمّو. أرْدَافٌ ضخمة تتدلّى كتلاً، كتلاً، بطون لزجةٌ كبصاق المصدورين. نهود ذابلَة كَالليمون المتعفن. تحبّو بارد وَالاَ سْخُون. أيّا. بدّل وجْهك والاّ تَوّا. عيون متعبة، زائغة، محرومة، جائعة. حاقدة. غاضبة. منطفئة. ميتة. عمياء. عيون تنغرز كالسكاكين في عيون أخرى. عيون تلتهم الأجساد المترهّلة المعروضة على أبواب الغرف الواطئة، تقبّل أفواهاً مكتنزة تلمع فيها أسنان من ذهب. عيون مثبتة على الأرداف المتدلية نحو الأرض الباردة، على النهود المعصورة الخاوية، على البطون التي بليت مثل أخياش استعملت أكثر من اللزوم. أشبيك اتْخَمّمْ. فلست وَالاَماعا دش. والأَزْعْمَه جاي من الخارج، الناس الكلْ كيفْ كيفْ راهُو، واللّي يَنْفُخْ رُوحُو ياسر، ياسر، ما يَطرْشق كان وَحْدو.. هيّا طّلعوا خَانْ نشَوفوه ميّت والاحيّ. قالوا النساء غاديكَ بارْدين كيف الثلج اللّي يصبُّ عندهم شتاء وصيف. أوه. ياخويتي، اللّطف، هذا باين فيه لاَيلْ ولاَيعَلْ.

نطحته صورة الموت البشع من جديد، فاهتزّ المشهد اهتزازاً عنيفاً، وراحت الحيطان تتراقص بجنون ممتزجة بكتل اللّحم الفاسد، والقهقهات العنيفة، وروائح البخور والبول والحرمان والرغبات المكبوتة، داهمه الغثيان والقيءُ، ففرّ هارباً تحت وابل من الضحكات السّاخرة والشتائم المقذعة.

ثم نزل الليل كما تنزل صخرة هائلة من أعلى جبل.

تحت ضوء المدراج الكابي، صعد الطوابق الأربعة تبؤدة. الحيطان مقشرة ملطخة بالرسوم والكتابات. ضجيج التلفزيونات يتصاعد من جميع الشقق مخلوطاً بأصوات النساء وبكاء الأطفال. طرق باب الشقة رقم 72 أكثر من مرة، ثم جاءه الصوت أجشّاً مشوباً بشيء من السّخط.

- من ؟

- افتح يَا عمّار.. أنا عبد الفتاح !

- عبد الفتاح؟ أيّ عبد الفتاح؟

- عبد الفتاح خليل.

- هذا لا يعقل! صاحَ عمّار، ثم فتح الباب. تعانْقنَا طويلاً.

- أنا لا أكاد أصدق عيني. هذه مفاجأة لم تكن تخطر على بالي أبداً، أبداً. تفضل، تفضل. متى حلّ ركبك أيها السندباد الرائع؟

- الأحد الماضي.

- أنت وغدٌ حقيقي وناكر للعشرة، وإلاّ كيف لم تتصل بي إلى حدّ الآن؟!

- لم أكن أرغب في الاتصال بأحد. كنت متعباً. في حاجة إلى راحة.

- وأين تقيم؟

- في فندق. هناك على البحر.

- في فندق؟ وكيف تقيم في فندق وعندك أصدقاء بعدد شعر الرأس؟!

- لم أكن أرغب في إزعاج أحد.

- بالعكس، أنت لا تزعج أحداً بالمرة. الجميع يحبونك. لا، ليس الجميع. لكن هناك كثيرين يحبونك، ويحنون إلى رؤيتك. وأنا منهم. أتشُكُّ في هذا؟.

- لا. أبداً. أبداً.

- أنا لا أكاد أصدق عيني. يا أهلا وسهلا بالبدوي التائه. تفضل. تفضل. الشقة صغيرة ومعتّمة قليلا. رائحة رطوبة وثياب وسخَة ومطبخ لم ينظف منذ عدة أيام. كُتب ومجلات مكدّسة في الأركان. فراش حديدي لَشخصين تكوّم فوقه غطاء صوفي باهت اللون. كرسيان من الخشب الرخيص، وواحد حديدي. طاولة كبيرة عليها أوراق وأقلام ومنفضة مملوءة بأعقاب السجائر. قناني وعلب فارغة موزّعة على كامل أرضية الغرفة. على الحائط، بين السرير والطاولة، صورةٌ ضخمة لبابلو نيرودا، وبجانبها صورة صغيرة لياسين.

- علينا أن نشرب كأساً على نخب هذه المفاجأة السارة! قال عمّار وهو يملأ كأسين من زجاجة النبيذ الموضوعة علي الطاولة. جلَسا متقابليْن، وضرب كل واحد منهما كأسه بكأس الآخر. عمّار ماعاد عمّار، بل شبحاً لذاك الذي كان قبل أعوام. الصلعة التهمت قمة الرأس كلّها. الأنف ازداد ضخامة وبشاعة، وأصبح غير متناسق تماماً مع الوجه النحيل المحفور بتجاعيد لاحت كأنها أخاديد صغيرة في أرض لم تعرف المطر منذ فترة طويلة. العينان انطفأتا، وأضْحَتَا شبيهتيْن بثُقبيْن مطمُوسين بالرّمل في باب قديم. الأسنان تآكلت واسودّت من كثرة التدخين والشراب. الجسد كله بدا مهدّماً مسكوناً بأوجاع وهُموم لاحدود

لها. فقط حين يبتسم، يطلّ عمار القديم لبرهة قصيرة، ثم يغور تاركاً المكان لعمّار الجديد الذي انحنى قليلا، وراح يخطو خطوات سريعة نحو شيخوخة كئيبة معذبة.

- أكيد أنك سمعت النبأ الفاجع . من أخبرك؟

- العم سليمان.

- إنه رجل طيب . بل أكاد أقول إنه أطيب الرجال الذين عرفتهم في هذه المدينة. وهم نادرون هذه الأيام. المسكين. حين سمع الخبر ظل ينوح طول النهار. كان من الصعب علي أن أهدئه. حقّا. إنه رجل شهم. وصاحب قلب كبير!.

أشعل عمّار سيجارة، ثم رفع رأسه وحدق في الصورتين المعلقتين على الجدار.

- أنت ربما تفكر أنه كان عليّ أنْ أضع صورة ياسين بجانب واحد من أولئك الذين يحبهم. رامبُو. لُوتْريَامُون. أو الشّابّي. لكن أنا أحب بّابلو نيرُودَا كثيراً. خصوصاً أغانيه. اسمع هذا المقطع:

لا

ممنوعٌ دخولُك إلى هنا أيها

الحزن.

فاذهب من هنا.

حلّق بجناحيك الخفاشين

بعيداً بعيداً من هنا .

سأطأ ريشك المتساقط

في عباءتك

وأذري،

في زوايا العالم الأربعة،

نُتفاً، وفتافيتاً،

منْ جُثتك

سَألوي عُنقك

وأسمل عينيْك

فلاَ تعودان تُبصران .
سأخيط كفَنك بيدي،
أيها الحُزن،
وسأدْفِن عظامَك القارضَة
تحت ربيع شجرة التفّاح .

أليس هذا بديعاً ؟ وأعتقد أن ياسين أحب نيْرودا في النهاية، خصوصاً بعد أن صدرت ترجمة جيدة لأشعاره في بيروت . وعلى أية حال، ليس هذا مهمآ على الإطلاق . الشيء الوحيد المهم، والذي سوف يظلّ يعذبنا جميعا، هو رحيله المفاجئ وغير المتوقع بالمرة . حتى أنا الذي لازمته طوال غيابك، لم أكن أتصور أبداً أنه سوف يغادرنا بمثل هذه السرعة . أحياناً أقول إن ما حدث مجرد كابوس مروّع، وإنه من المحتمل أن أستيقظ ذات يوم لأجد ياسين أمامي حاملاً زجاجةَ نبيذ، ومُطْلقاً ضحكتَه الساخرة التي لا تفارقه أبدا وهو يصيح فيّ :

- أيها الوغد . هاقد أتيتكَ بما تُحب . زجاجة حمراء معتقة . انظر إلى التاريخ . إنها من عهد الملك سليمان . نبيذ من دم الطير . هيّا افتحها أيها الكسول، وشنّف أسماعنا بشيء من أشعار تابّط شرآ، أو زُهير ابن أبي سلمى، أو بشار بن برد أو أبي نواس :

مازلت أستل روح الدنّ في لُطف وأسْتقي دمهُ في جوْف مجرُوم
حتى انثنيتُ ولي رُوحان في جَسَدٍ والدنُّ منطرحٌ جسماً بلا روحِ

أحياناً أمشي في الشارع، وأتصور أن ياسين سوف يطلع عليّ من هذه الناحية، أو من تلك، يصيح فيّ وهُوَ يقهقه عالياّ، غير عابئ بالمارة، كما هي عادته دائما :

- انظروا إلى معلم الصبيان الكئيب . لقد شاخ وفقد شعره وبعضاً من أسنانه، ومع ذلك فهو لا يزال مصرآ على أن يعيد من الصباح إلى المساء أن الفاعل لا يكون إلا مرفوعاً، وأن المفعول به لا يكون إلاّ منصوبا . ويحدث أن أجيءُ به إلى هذه الغرفة ليلاً، وأُجلسه في نفس المكان الذي تجلس أنت فيه، ثم أقول له ناصحاً ناشداً :

- اسمع يا ياسين . أنا أنصحُك بأن تترك أهل البلاء في البلاء الذي هم فيه، وتلتحق بعبد الفتاح قبل أن يُطلقوا كلابهم المسعورة ضدّك . هذه البلاد تكرهك يا صديقي ولا

تتحملُك على الإطلاق. لذَا أنا أرى من الأفضل أن تحْزمَ حقائبك بأقصى سرعة، وتفرّ بعيداً. بعيداً.

يحْدجني هو بنظرة نارية، ثم يصيح وقد اسودّت سحنته من شدّة الغيظ:

- لقد قلت لك من زمان أن تترك نصائحك لنفسك وللصبيان الذين تعلمهم النحو والصرف. أمّا أنا فقد شببت عن الطوق، وأعرف ماذا أريد بالضبط. هل فهمت جيّدا ما أقول ؟!

بعد أن يصمت قليلا، يضيف مخاطباً نفسه:

- ولكن لماذا أتعب نفسي. ليس معروفاً لديّ ولدى الجميع أن معلمي الصبيان لا يتقنون شيئاً غير تكرار الكلام، وإسداء النصائح الحمقاء.

نعم يا عزيزي. يحدث هذا أكثر من مرة في الأسبوع، بل في اليوم الواحد. إن ياسين دائما معي. أخاصمه ويخاصمني. يعاتبني وأعاتبه. ينادمني وأنادمه. يواسيني وأواسيه. ولا تسخرْ مني إن قلت لك إنه الآن معنا. يستمع إلى كل ما نقول، يتهكّم على صلعتي، ويتمعن فيك أنت ليستجلي التحولات التي طرأت عليك خلال غيابك الطويل. وحتى تتأكد من ذلك، ها أنا أصبّ له قدَحاً حتى يشاركنا الاحتفال بهذه المفاجأة السارة.

ملأ عمّار كأساً ثالثة، ثم أشعَل سيجارة من السيجارة السابقة. ماذا أقول لك. حتى اليوم الأخير من حياته، لم أعاين شيئاً في سلوكه، أو حركاته، أو كلامه، يدل على أنّه يفكر في الانتحار. بل ومرات عديدة، بدا لي أنه مقبل على الحياة أكثر من قبل، وأنه غير مبال بالمصائب التي تعيشها البلاد بسبب الملتحين، والديكتاتور العجوز الذي ينام في مجلس الوزراء الأسبوعي. صحيح أنه كان يأتيني إلى هذه الشقة بين وقت وآخر، وهو مثقل بالحزن، معتّم السّحنة، مشتّت الذّهن، مضطرب الحركة، غير أنه سرعان ما يعود إلى زهوه القديم حالما يشرب كأسين أو ثلاثة، وأقرأ أنا بعضاً من قصائد أولئك الشعراء الذين يحبهم. مرة، وكان ذلك قبل شهر بالضبط من انتحاره، تجوّلنا معاً على البحر. كان الوقت مساء، والشاطئ خالياً تماماً من الناس. لاشيء غير بعض المراكب على الرمل، وطيور النورس الرائحة الغادية فوق الماء. ظللنا نمشي حتى غربت الشمس، وعندئذ توقف ياسين عن السير. وبعد أن حدق طويلا في الأمواج، سمعته يُنْشد بصوت خافت أبياتا للشاعر الفرنسي لوران جَاسبَّار. لقد كانت لحظة سعادة لا مثيل لها حتي بالنسبة لي أنا أيضاً.

في الحين نسيت كلّ متاعب النهار الصّيفي الحارّ، والمعركة الكلامية الحامية بيني وبين أخي الأصغر الذي صار من عُتاة الملتحين، وذبت في زرقة البحر، في ضوء النهار الرّاحل بهدوء ذَوَباناً تاماً. نعم. يا صديقي. لقد كانت لحظةً من أروع اللّحظات في حياتي كلّها. وربّما في حياة ياسين أيضا. لحظة من لحظات الإشراق النادرة التي يشعر المرء خلالها أنه مخلوق جميل، وأنّ كلّ ما حوله جميلٌ أيضاً. بعدها لم نتكلم أبدا. وكأن كل واحد منا أحسّ أن كلمة واحدة كافية لنسف جلال تلك اللحظة الضوئية الخارقة. ولما دخلت شقة ياسين، ورأيته يتدلّى من السقف ولسانُه بطول الذراع، شعرت أنه ربما قرر أن يفعل ذلك في تلك اللحظة ذاتها. نعم هكذا شعرت. وذلك اليوم. عدت وحدي إلى نفس المكان، وفي نفس التوقيت.

عندما كنت أتأمل البحر، عَاينْتُ بوُضوح تامّ ذلك الخيط الدّقيق الذي يفصل بين السّعادة والشقاء، وبين الحياة والموت. والآن، باستطاعتي أن أجزم أن ياسين قرّر في لحظة السعادة تلك أن يضع الحبل حول رقبته.

أنهى عمّار كأسه في جرعة واحدة، ثم ملأها من جديد. أعتقد أن أقسى فترة عاشها ياسين خلال غيابك، كانت لمّا حقّقوا معه قبل خمسة أعوام. وقتها نشر بعض النصوص والقصائد في إحدى المجلات البيروتية الكبيرة. بعدها بقليل، كتب ذلك الوغد جمعة في جريدة النظام الرسمية مقالا حمل فيه بشدة على «الذين يتخذون من تشويه سمعة وطنهم الأم وسيلة للارتزاق»! . نعم يا صديقي، هذا بالضبط ما كتبه صاحبنا جمعة الذي كان قبل عشرين عاماً يصول ويجول في معابر الجامعة، رافعاً أعلام الثورة الحمراء، مزينا صدره بتمثال برونزي صغير لشي جيفارا. آه. لقد صدق «الأستاذ» حين قال لنا ذات مرة إن جمعة سوف يصبح في سن الأربعين إما شرطياً أو فقيهاً يملأ منخريه بالسعوط، ويكتب التمائم للمطلقات والفتيات البائرات. ويوم صدور المقال جاءني ياسين وهو يرجف غضباً. قال لي إن ما كتبه ياسين لا يختلف في شيء عن وشاية بوليسية، وإن النظام سوف يفعل شيئاً ما ضدّه إن آجلاً أم عاجلاً. قبل أن ينصرف أخفى عندي بعضاً من كتبه وأوراقه ونصوصه ودفاتره. عند فجر اليوم التالي، داهمت الشرطة شقته، وحملته إلى دائرة الأمن السياسي، حيث أخضع لتحقيق استمر أسبوعاً كاملاً. وبعد أن أطلقوا سراحه، زرته في شقته، فبدا محطماً، يائساً. ولعدّة أسابيع ظل منكفئاً علي نفسه، لا يخرج، ولا يقابل أحداً غيري.

كنتُ كل ليلة أشتري زجاجة نبيذ ومجلاّت وجرائد، ثم أذهب إليه. غالباً ما تمتدّ

سهراتُنا إلى الفجر، خصوصاً في أيام نهاية الأسبوع. لم يحدثني ياسين بالتفصيل عن ظروف الاعتقال والتحقيق، غير أني استنتجتُ من خلال النتف القليلة المبعثرة التي مدّني بها، أنه أهين، وأذلّ، وربما أجبر على القيام بعمل لم يكن يحبّذه على الإطلاق. ثم خرج ياسين إلى الشارع من جديد. كنت أنتظر أن ينفجرَ ذلك الانفجار الجميلَ الذي عوّدنا عليه منذ أن فاجأنا في «مقهى الأندلس» ذات خريف معتم، غير أنه سرعان ما فر عائداً إلى شقته، وقد تعكّر مزاجه، وازدادت حالتُه سوءاً. مع مرور الأيام، لاحظتُ أنه أصبح ينفعل لأتفه الأسباب، ويبالغُ في الشراب والتدخين، ويكثر من السّهو والتحديق في الأرض. كان على وشك أن يُصاب بالجنون. وطبعاً كفّ تقريباً عن الأكل، ولم يعد يطيق المسك بكتاب أو قلم. أحياناً كانت تعتريه نوباتُ غضب غريبةٌ لم يكن سلم منها أحدٌ حتى أنا. وقد ذهب الأمر ذات مرة إلى درجة أنه طردني من شقته بعد منتصف الليل لما حاولت إقناعه بأن الاستمرار في الشراب والتدخين بمثل ذلك الشكل سوف يدمّر صحته، ويعرّضها الى مخاطر لا تحمد عواقبها: «هيّا اغرب عن وجهي. أنت لست سوى الوجه الآخر لذلك النذل جمعة، هو الإمام... وانت خادمه الطيّع!». صاح في، ثم أغلق الباب في وجهي. ومن الشارع صرخت فيه أنا: «إذا ما أتيتني مرة أخرى فسوف أدقّ عنقك أيها الجَبَانُ!»، ومن شدة الغيظ، تهت في الشوارع تحت المطر حتى طلوع النهار. بعد يومين فقط، وجدته ينتظرني أمام باب شقتي. وقبل أن أفتح فمي، ارتمى عليّ وراح يعانقني وهو يبكي بحرقة لا مثيل لها، ويقول لي: «أنت الصديق الوحيد الذي تبقّى لي في هذه المدينة، وأرجو أن تتحمل نزَواتي وحقارَاتي، ولكن إذا ما تخاصمنا مرة أخرى، فلا تقُلْ لي أبداً إنّي جبان. أبداً. إن هذه الكلمة تقتلني يا صديقي!»، وليلتها سهرنا حتى الفجر. وقبل أن يغادرني، أعلمني أنه سيسافر إلى قريته: «أنا بحاجة إلى أمي، وشجر الزيتون، والشعاب الجرداء وصمت البوادي!». قال لي، ثم اختفى لمدة شهرين تقريباً.

عندما عاد إلى المدينة، بدا وكأنه قد تعافَى تماماً، واستعاد حيويته ومرحه القديم، وسخريته اللاذعَة، ونَسيَ نهائياً كوابيسَ أسبوع التحقيق والاعتقال. من جديد بدأنا نسرَحُ في البارات ليْلاً، ونحاَول أن نستعيد أيام الجنون القديمة. كنا نتذكرك دائماً. كان ياسين يقول لي إنه لا أحد يمكن أن يعوّض عبد الفتاح، خصوصاً حين يغني الأغاني البدوية، أو يروي حكايات أجداده، او ينشد مقاطع من«نشيد الإنشاد» بعد انتصاف الليل. هناك بالقرب من بحر قرطاج، كنا نتشوّق إليك كثيرا أيها الشقي، ولم تكن تغيب عن سهراتنا

إلا نادراً، ولا بدّ أن أقول لك إني كنت سعيداً إلى أبعد حدود السعادة وأنا أرى ياسين يعود ياسّيناً كما عرفته، وكما عرفناه جميعاً. لقد أخذ يكتب من جديد بشكل محموم. كان يكتب، في كل وقت، وحتى على طاولات البارات، وعلى علب السجائر. كان يكتب ويقرأ. شخصياً، أعتقد أن النّصوص التي كتبها في تلك الفترة هي أجمل نصوصه. آه، كم كان رائعاً في تلك الأيام! تصوّر أني أصبحت لا أطيق فراَقه ولو للحظة واحدة، حتى عندما تتراكم الأعمال، خصوصاً أثناء الامتحانات. كنت أرمي بكل شيء عرض الحائط وأهرع إليه.

حتى الصباح، نظلّ نشرب، ونقرأ الشعر، ونستمع إلى الموسيقى غير عابئين بالأخبار التي بدأت تروّع الناس في تلك الأيام. ثم نحن لا ندري ماذا حدث بالضبط. كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أننا استيقظنا ذات يوم فإذا ترْشيشُ غير ترْشيش التي عرفناها، وإذا الكساد في كلّ مكان، والخوف على كلّ الوجوه. وبسرعة غريبة لاَذت النساء بالبيوت، أغلقتْ باراتٌ كثيرة، وماتت الحياة في المدينة بعد الساعة الثامنة ليلاً. تمشي في الشوارع صباحاً أو مساء فلا ترى غير رجال الشرطة، هيّا، هات أوراقك! اشْكُوني هَا المَرَا اللّي مْعَاك؟ آشْ تعمل في هذا الوقت؟ تْرَا تنفّس خانْشَمْ ريحتك المْتنه.. هيَّا حرّك روحك وَالأتوّا نحطّلك ها العصا في.. حلّ عينيك ياخْرَا.. ما شُوفتشْ الضوء الأحمر.. آشْ بيك تَجْري.. هَرْبتْ عليكْ بنْت الحرام.. تَراه خرّج كل ما عندكَ في جيابك.. آش بيكْ لأَبسْ لكْحَلْ... ما تمّاشْ لَون اخَرْ في البْلاَدْ، هزْ أيدّيك الفُوق، حلْ ساقيك، اقف ما تنْحرّكْش. امْشي من غيرْ ما تهزْ عينيك الفُوقْ وَالاَتوّاً نَعْميهَلكْ. أشْ بيكْ تتكلّم وحْدك.

ثم شرع الملتحون يحرقون بماء النار وجوه النساء والقضاة والأطفال ورجال الشرطة وكوادر الحزب الحاكم. وفي الآن نفسه، بعثوا برسائل تهديد إلى العديد من المثقفين والشعراء، وكان ياسين من بينهم. شيئاً فشيئاً، عمّت الفوضى البلاد من أقصاها إلى أقصاها حتى لم يعد أحد قادراً على فهم ما يحدث في وضح النهار، أو في ظلمة الليل.

-الست خائفاً؟ سألت ياسين ذات مرة.

-لا، أبداً! قال لي.

-حتى بعد أن تلقّيت رسالة تهديد؟

-قلت لك: لست خائفاً بالمرة!

-ولكن لا تنْسَ أنهم لا يتردّدون مطلقاً في تنفيذ ما يقولون وما يكتبون!

-أعلمُ ذلك جيداً، لكن ما العمل؟ كان من الطبيعي أن نصل إلى مثل هذا الوضع.

- دعني أقُلْ لكَ إن الديكتاتور العجوز أفضل وأرحم بكثير من هؤلاء القتلة في جبائب أية.

صمت قليلا، ثم قال:

- إن الملتحين هم دون العفن الذي أفرزته جثة الديكتاتور العجوز الذي يحتضر منذ ما يزيد على الخمسة عشر عاماً فوق كرسي الحكم!

كنت راغباً في مواصلة الحوار، غير أن ياسين أسكتني باشارة من يده قائلا:

-دعنا نشرب زجاجتنا هانئين. إن حديثاً كهذا يقتل الروح، ويسمّم الجسد، ويعدم شهية الأكل والشراب.

بعدها لا أتذكر أننا عُدنَا للحديث عن الملتحين ولو لمرة واحدة. كنا نلتقي بين وقت وآخر، ونحاول أن نتحدّى الأيام الصعبة والأحداث العصيبة بالشعر والشراب والموسيقى. وأبداً لم ألاحظ مايدلّ على أن ياسين قد قرّر أن يشنق نفسه بنفسه قبل أن تطاله مشنقة الملتحين.

نهض عمّار. أخذ يروح ويجيء في الغرفة مطأطىء الرأس. ضجيج التلفزيونات يأتي مثل هدير بعيد، والمدينة تبدو كمقبرة هائلة تنصت إلى أنين موتاها.

كان اليوم يوم عطلة، وأنا نمت حتى الظهيرة. كنت لا أزال في الفراش أقلب في جرائد قديمة حين سمعت طرْقاً عنيفاً على الباب:

- افتح أيها الوغد!

فتحت، فاندفع ياسين مثل عاصفة هوجاء:

- يالك من معلم كسول، ألا تعلم أن الساعة تجاوزت الرابعة ظهرا! قال.

- ما الذي حدث، هل مات الديكتاتور العجوز؟ قلت أنا.

- طبعا أنا أتمنى ذلك من كل قلبي. لكن للأسف الشديد، لم يحدث شيء من هذا على الإطلاق. والآن تقف البلاد بأسرها إجلالاً لزعيمها الأوحد الذي بلغ الثمانين فجر هذا اليوم!

- لماذا أنت مرح إذن؟ قلت.

- أنا نفسي لا أدري. منذ أن استيقظت وأنا أحسّ كما لو أني أحلّق في الفضاء.

-أمّا أنا فلا أدري سبباً لهذا المرح غير عيد ميلاد الديكتاتور!

قلت أنا.

-اللّعنة عليك حيّاً وميّتاً! قال هو، ثم انفجر ضاحكاً.

نعم يا صديقي. كان ياسين ذلك اليوم مرحاً بشكل غير عادي على الاطلاق. وحتى أكون اكثر وضوحاً أقول إن مرحَه كان شبيهاً بمرح العصفور وهو يحلق فوق فخّ الموت. وقد حامت هذه الصورة المرعبة في ذهني لحين من الزمن، غير أنّي سرعان ما أبعدتها عني وأنا أقول. لا. لا. أكيد أنه أنهى نصّاً جديداً، او قرأ كتاباً أعجبه، أو ضاجع امرأةً ظل يطاردها لفترة طويلة. ملأت كأسين، فضرب كأسه بكأسي وقال:

-هذه آخر كأس أشربها معك أيها الوغد الأصلع!

-أنت غريب هذا النهار! قلت.

-ليس هناك أيّة غرابة. كل ما في الأمر هو أنني قررت أن أقطع علاقتي نهائياً مع الخمر، قال.

- باستطاعة باخُوس أن يفعل ذلك. أما أنت فما أخالك قادراً على الصمود ولو ساعة واحدة. قلت.

- سوف ترى، وإذا ما أردت التأكُّد من ذلك حقاً فتعال عندي غداً في الساعة العاشرة صباحا!

- ولماذا العاشرة صباحا؟!

- غداً تجد الجواب المقنع على هذا السؤال!

- لا أستطيع. بيتك بعيدٌ جداً. وأنا أكره ركوب الباصات في الحرّ.

- خذ أيها الوغد الحرون، هذه خمسة دنانير لكي تركب تاكسي وتتجنّب شمّ رائحة صنان العامّة. وحين تأتي في الموعد بالضّبط سوف أعطيك خمسة دنانير أخرى لكي تعود إلى شقتك سليماً معافى. قال، ثم القى بخمسة دنانير على الطاولة واتجه نحو الباب.

-إلى الغد، العاشرة صباحا، لا تنس! قال، ثم اختفى بسرعة دون أن يتيح لي الفرصة لكي أنطق بكلمة واحدة.

في اليوم التالي رحت اليه في الموعد المحدّد. فوجئت لما وجدت الباب مفتوحاً. دخلت. وكنت على وشك أن أصيح: «ها أنا أيها الشيطان الجميل!» حينها رأيت ساقين تتدليان من السقف، وتحتهما كومة من الأوراق والدفاتر عليها ورقة بخمسة دنانير، ورسالة يقول فيها: «أعتذر لكم جميعاً أيها الأصدقاء الأوفياء. أعتذر لأمي العزيزة أيضاً. قولوا لها إني أحبها كثيراً. كونوا على يقين أنّني سوف أكون أسعدَ حالاً في العالم الآخر إن هُوَ وُجِدَ، وداعاً!».

انهار عمّار على الكرسي. وضع رأسه بين يديه، ثم واصَل الكلام وعيناه زائغتان. أية لعنة حلّتْ بجيلنَا. حديقةُ الأحلام التي كانت زاهيةً، عامرةً بألف زهرة حينما كُنّا في سن العشرين، أصبحت الآن صلعاء مثل رأسي. كل شيء يموت، يتهاوى، يندثر، يتفتّت، يغيض في وحل الأيام والسّنوات. يخيّل إليّ أحياناً أننا أصبحنا أكثر شيخوخة من الديكتاتور العجوز الذي فتحنَا عيوننا على صورته وهو يرفعُ عالياً علم الاستقلال المجيد. أية لعنة حلّت بجيلنا؟ صلاَحُ الأحدبُ، الذي كان يقول إن «البيان الشيوعي» هو قرآن العصر الحديث، التصق عنقه بصدره، أصبح يتنفس مثل مخنوق، ويقول لكل من يعترضه: «اسمع، لقد كنا مخطئين، نحن لا نستطيع أن نقفز علي تقاليد مجتمعنا، وعلينا أن نقرّ بأن دينَنا يشملُ العديد من القيم الإنسانية العظيمة التي يمكن أن تساعدنا على بناء مجتمعات جديدة ومتقدمة». وبعد أن ينظر يمنةً، يسرةً، يهمس حامياً فمه بكفّه الأيسر: «اسمع، الملتحون ليسوا سيئين تماماً. علينا أن نفهمهم ونتعمق في دراسة خطابهم، ونفتح معهم حواراً إن لزمَ الأمر. هذا رأيي، لقد كنا مخطئين، مخطئين على طول الخط!». ثم يذوب في الزحام، ونور الدين الفرويدي أصبح يُرْمَى من البارات ليلاً بعد أن اكتشف أن زوجته الجميلة تخونه مع لاعب كرة القدم. وصلاح الذي أرغموه على الجلوس عارياً على الزجاج المكسور، عقب انتفاضة فبراير، أصيب بالاختبال، والآن بإمكانك أن تجده في مدينته البحرية هناك في اقصى الشمال وقد نحل حتى صار عوداً، وتهدلت لحيته، وتشققت قدماه، وسال ريقه على صدره. وبين وقت وآخر، يصيح في الناس: «ياشعب الناموس والخنموس، يا أهل الشقاق والنفاق، يا أمة ضحكت من جهلها الأمم، اعلموا أنكم أفسد للمخلوقات على وجه هذه البسيطة. تْفُو عليكم جميعاً وعلى أجداد أجدادكم. يا كذّابين ياسرّاقين يامنافقين. يا طلْعَه إش ماش يقول فمي!» ثم يفتح سرواله ويبول على الجدار المقابل. ومصطفى التروتسكي تزوّج شقراء من بنات الحسب والنسب، أصبح مديراً لأحد

البنوك . وحين يشاهد واحدا من أصدقاء الماضي يلوذ بالفرار ، ولكن يحدث بين وقت وآخر أن تقع العين في العين فلا يستطيعُ الإفلات منك وعندئذ يهش ويبش ويأخذك الى بار «أفريكا» في الطابق الخامس ويقول لك : «اسمع يا صديقي ، الأفكارُ شيء ، والواقعُ شيء آخر ، وعليك أن تدرك جيداً أن المال هو الذي يسيّر العالم الآن ، وليست النظريات والإيديولوجيات والشعر ، كل هذا هراءٌ في هراء ، وأنا فهمت هذا ، وأعتقد أنّي وجدت طريقي ، لذا أنا سعيد كما أنت ترى!» ثم يبتسم على طريقة أولئك الذين يقومون بالدعاية لمعجون الأسنان في التلفزيون الوطني . وأمّا رضَا الذي كان يدافع بشراسة عن القصيدة الحرّة ، ويسخر من الشعر القديم «شعر الأطلال والإبل وغبار الصحاري» كما كان يسميه ، فقد أصبح يسبّح بحمد الخليل بن احمد الفراهيدي صباح مساء ، ويقول إن جميع الشعراء المحدثين «عملاء للغرب والصهيونية العالمية وخونة لأمّتهم وللغتهم ولتراثهم!» . وهو الآن يكتب قصائد عصماء في جميع المناسبات الوطنية بما في ذلك عيد ميلاد الديكتاتور العجوز . قبل عامين تقريباً عيّنوه رئيسا للجنة رقابة النصوص الأدبية ، ومستشاراً لوزير الثقافة ، وأمينا عاماً لمصلحة الفنون الشعبية . وخلال انتفاضة يناير ، كان أوّل من فتح النار على اتحاد النقابات ، وعلى العمال الذين سمّاهم بـ«الغوغاء» . وتلك الليلة شاهدته في التلفزيون ، وقد بدا في جبته «القمراية» شبيهاً بضفدعة العجوز . «أيها السادة والسيدات ، نحيّيكم ونتمنّى لكم سهرة ممتعة مع برنامجنا هذا الذي يشارك فيه ثلة من أدبائنا وشعرائنا الذين أحبّوا هذا الوطن منذ نعومة أظافرهم ، وظلوا أوفياء مخلصين لتقاليده ولثقافته ولزعيمه الأوحد» أوف ، كم هو قاتل هذا الكلام الذي أصبحنا نسمعه في كل مكان وفي كل وقت . تفتح الراديو فيهوون به على دماغك . تشعل التلفزيون فيصفعونك به . تمشي في الشارع فيجلدونك به . حتى عندما تذهب إلى دُوَار بعيد ، حيث لا ماء ولا كهرباء ، لا شيء غير الغبار والذباب وأحمرة مدماة الظهور ورجالٌ يهوّمون تحت الشمس ، فهم يطلقونه وراءنا مثل كلب سائب . أنت لا تستطيع الإفلات منه أبداً . أبداً . من الصباح حتى المساء ، عليك أن تأكله وتشربه وتتنفّسه وتبتلعه جرعات متتالية . لا مفر لك منه حتى ولو سكنْتَ في بطن الحوت مثل يونس . وأنا لم أعد أطيق هذه اللغة بسبب ذلك . بل وأصبحت شبه متيقّن أنها عاجزة عن قول شيء آخر غير هذا الكلام .

زينب؟ أين زينب الجميلة التي كتبنَا عنها جميعاً قصائد حبّنا عندما كنا في سن العشرين . لقد اختفت فجأة ، ولا أحد يدري إلى أيّ وجهة اتجهت . تُرى أيّ ريح خبيثة

حملت تلك الغزالة السمراء بعيداً عنا، آه، كم أنا مشتاق إليها! أين أستطيع أن ألقاك يا زينب العزيزة حتى أشكو إليك همومَ أبناءجيلي المهزوم، جيلي الذي هام بك عندما كنت تزغردين وسط هُرَاوات الميليشيات والقنابل المسيلة للدموع. كل شيء غداً الآن حُطاماً. لكأنّنا كُنّا نعيش حُلماً سعيداً، ثم استيقظنا لنجدَ أنفسنا في إحدى الثكنات الكئيبة المرمية وسط الصحراء. ثكنة تحيط بها أسوار اسمنتيةٌ عاليةٌ يقف عليها جنود مدججون بالسلاح. حركة واحدة وتموت! يصيحون في كل من يفكر في الخروج عن الصفّ. نعم. هكذا أرى إلى الأمر. شيء يذكّر بلوحة «المساجين» لفَانْ جُوجْ. رجال رماديون مكبّلون بالسلاسل يدورون ويدورون، إلى ما لا نهاية وحولهم الفراغ والصمت والموت. نحن أيضا ندور، ندور، ندور. وسوف نظل ندور حتى نتهاوى في العتمة، الواحد بعد الآخر. ملأ عمّار الكأسين. وبعد أنْ شَربَ من كأسه قليلاً، نهض، ومن جديد أخذ يروحُ ويجيء جاراً رجليه فوق أرضية الغرفة التي أخذت تبردُ شيئاً فشيئاً.

وأنا؟ كيف أنا الآن؟ أكيد أنك ارتعبتَ حين رأيتني وقد شبتُ قبل الأوان، وانحنيتُ تحت هموم هذا الوطن الضيّق كعين الإبرة. انظُرْ كمْ أنا وحيد يا صديقي. لا شيء حولي غير القناني الفارغة وأكداس الكتب والمجلات المغطاة بالغبار وضجيج المسلسلات المصرية القادمة من شقق العمارة. لقد استوى الأمرعندي، وفقدتُ كلّ اهتمام وكلّ رغبة. آخذ كتاباً أتصفحه، لا أقرؤه، بل انظر فيه كالأعمى، ثم أرميه بعيداً عنّي كما لو أنه ثعبانٌ مسموم أو فأر ميت. أفتح جريدة أو مجلة، أقضم فقرة أو فقرتين من هذا المقال أو ذاك، ثم ألقي بها في الزبالة، أو أتناول عليها غذائي أو عشائي. لا أستمع إلى الموسيقى إلاّ عندما أجلس في مقهى. وهذا يحدث نادراً. لا أشتري ثياباً جديدة، أرقّع، أرقّع. كل ليلة أرقّع. لا أنام إلاّ قليلاً. ودائما أستيقظ وأنا في حالة من الفزع الشديد. كوابيس وهلوسات تتوالى عليّ كل ليلة. أرى نفسي مصلوباً على أبواب ترشيش. أرى جنوداً عابسين يضغطون بجزماتهم الثقيلة على بطني وأنا أتقيأ دوداً أسود. أرى مساميرَحادّةً تنبت فوق صلعتي. أرى نفسي مقيّداً وسط آلاف من الفئران الميتة. أرى الملتحين يطعمونني الزقوم وهم ينشدون البردة. أرَى كلاباً بائسة تأكل من لحمي. لم أعد أهتمّ بشيء على الإطلاق. جميع الكوارث بالنسبة إليّ متساوية. لا فرق عندي بين أن يموت فأر هنا بين الكتب والمجلات وبين أن يهلك ألف شخص في زلزال في الهند، أو في مجاعة في القرن الإفريقي.

قبل أربعة أعوام، مللتُ من الوحدة، وتعبت من الاستمناء، فقلت أتزوج، وليكن ما

يكون. وفي أول يوم من عطلة الربيع، لبستُ كسوة اشتريتها بأكثر من نصف راتبي، حلقت، وتعطرت، ثم تقدّمت لطلب يد فتاة تُعلّم مثلي النحوَ والصرف. وقبل أن أنال منها قبلة واحدة، اشترطت علي شروطاً قادرة على أن تجعلني أعيش طول حياتي مثل محكوم بالمؤبد. نحب تلفزةً بالبَرَابُول، نحب أمّي بخْذَايَا الخَاطرْ كبْرت وماعادش تنجّم تعيش وحْدها، نحب خديمة نظيّفة عفيفة مُوشْ مَاكْ الجبْليات مْتَاع سَوْردي اللّي يسْرقُوا ويكسّروا ويخطفوا سنّين الكلْبْ وهو ينبح، نحب كمبيوتر لولدي ولبنتي زاده، نحبْ نشْري كل شيء من طَاليا، الخّاطر كلّ شيء فَاسد هنَا، والغَلاَ والكوا، نحبْ صالون، نحب كرْهَبه. إوَهْ، خُويَ، اللي ماعندُوش كرْهَبه اَليُوم، يمْشي يدْفَن روحُو وعينُو حيًّا. مُوشْ هكّه؟! هَكّه. واللّي تقول فيه الكُلّ صحيح. قلتُ لهَا، ثم فررتُ. وعن ظروف عملي سوف تعْجَبُ لمَ يأخدونني إلى منُّوبة إلى حدّ هذه الساعة، التلاميذ الذين أدرّسهم فريقان: فريق يهوى كرة القدم و المسلسلات المصرية؛ وفريق يهيء نفسه لخوض الجهاد المقدس ضدّ الجاهلية الجديدة كما يقولون. الفريقان لا يعيران أي اهتمام لما أُلقي عليْهم. الفريق الأول منشغل بالمسلسل القادم، أو بالمقابلة المقبلة. أما الفريق الثاني فيقاطعني في كل لحظة لينبّهني إلى أن كلام الله هو كل شيء، وأن الجحيم مصير المنافقين والدجالين والزنادقة. وأنا بين الفريقين غارق في خراء سيبويه، وعاجز تماماً عن فعل أيّ شيء. وكل نهاية أسبوع، حين أزور أمّي يهاجمني أخي الأصغر بضراوة لا مثيلَ لها، ويقول إنّي خسرت حياتي لانّي سكّير وكافر. وأمّي المريضة بالربو، تبكي دون انقطاع، وتقول لي: «الله يَصْلح حالك يا وليدي، الله يتوب عليك»، وتبكي. تبكي وأنا لاأدري ما أقول. أوه، كم أنا متعب! وكم أنا حزين! أحياناً أتمنّى لو كانت لي شجاعةُ ياسين لكي أضع حدّاً لهذه الحياة الحقيرة. وحالما أبدأ في التفكير في الأمور بشيء من الجدّية، أتخاذل وأخاف. أحياناً أخرى أقول إنه ربما يكون من الأفيَد أن أدفن نفسي بنفسي، مثلما فعل «الأستاذ»، وأضعَ عجوزاً شمطاءَ حارسةً عند الباب، تقول لكل من يسأل عني: «عمّار مريض ولا يرغب في رؤية أحد. !» وأنت؟ مَن الذي غرّر بك وأعادك إلى هذا السجن الرّهيب؟ عُدْ من حيثُ أتيْتَ أيها الوغد. عُدْ فليس لك الآن غير الغُربة وطناً.

قبل أن يغادر، سلّم لَهُ عمّار دفتراً برتقالياً، وقال له: «خُذْ. هذا أحد دفاتر ياسين. ربما يُساعدك علَى فهْم نُتف من حيَاته أثناءَغيابك». عاد إلى الفندق والفجرُ ينتشر أغبشَ على جبهة البحر. حال وصوله إلى غرفته، تمدد على الفراش وفتح دفتر ياسين.

VIII

هذا هو دفتري الخاص الذي جعلت منه الصديق والرفيق، سجلت فيه الوقائع والأحلام، وهو وحده الذي أبوح كل ليلة إليه بما يستحقُّ أن أتأمله لاحقاً أو ألاّ أنساه أبدًا. هذا دفتر الوحدة والشهادة، ولعل غيري يسميه بتسمية أجمل منها.

الإمضاء: ياسين

صغيراً. كانت أمي تحب أن تروي لي دائماً قبل ولادتي، تقول لي: قبل أن أضعك بليْلَتَيْن، رأيت نفسي في أرض جدباء موحشة، لا شجر فيها ولا طير يطير ولا سائر يسير. كنت حافية وجائعة وعطشانة، وبي غمّ لا أدري له سبباً. وعندما انقطع عنّي كلّ أمل، ولم أعد أرى من حولي غيرَ صورة الموت البشع، انخرطتُ في بكاء لا مثيل لمرارته. فجأة شعرت أني أثبُ من الأرض وأصعد إلى عنَان السماء خفيفةً كالريشة، ورُوحي مفعمةً بسعادة لا يعَرف سرّها سوى الربّ. بعدهَا انتبهت إلى أنّي محمولةً على جناحيْ طائرٍ أخضر في حجم الفرس التي حملت الرّسول إلى السماء، كان لديّ إحساس يقول لي إنه يسافر بي إلى مدينة في الشرق ربما تكون القدس أو مكّة. وحين كنت تخرج من بطني في ذلك الفجرِ الصيفيِّ الأحمر مثل عمُود من نار، بَدا لي أنّي أسمع حفيفَ جناحيْ ذلك الطائر الأخضر وهو يرفرف فوق رأسي. تبتسم أمّي ابتسامة الأمّ السّعيدة، ثم تضيف: آ... قلبي يقولُ لي بأن العصفور الأخضر ليس سوى أنت يا ولدي!

الآن انقطعت أمي نهائيا عن رواية حُلْمهَا الجميل.

وفي آخر رسالة وصلتني منها، قالت لي: «لم أكن أتصوّر أبداً أنك سوف تكون قاسياً إلى هذا الحدّ، وأنك سوف تخيّب آمالي بمثل هذه الدرجة!».

□ □ □

وأنا أنهض فاترَ الهمّة من نوم استمرّ إلى ما يزيد على العشر ساعات، تذكّرت طرفة من طرائف مراهقتي: وقتها كنتُ في سنّ الخامسة عشرة تقريباً. وكنتُ أمضي أيام الصيف الحارقة تحت أشجار الزيتون، أقرأ قصص الجنّ والعفاريت، وأكتب على الرمل ما يمرّ بخاطري من أفكار وانفعالات وخواطر. ذاتَ قيلولة اشتدَّ هجيرُها وعنفُ أزيز صراصيرها، كنت اقرأ قصة «رأس الغول» بصوت عَالٍ. وفجأة وجدتُ نفسي وقد انخرطتْ في الغناء والرقص دون أن اعلم لذلك سبباً. وبينما أنا مستغرقٌ في تلك الحالة، وغائب تماماً عمّا حولي، طلع عليّ من بين أشجار الزّيتون بدويّ خشِنٌ محروقُ السحنة، يابسُ الشفتين، وصاح بي:

- أإنْسٌ أنت أم جَان ؟!

- جَانْ. وسوف أفتك بك حيناً! قلتُ، ثم جريت وراءه وأنا اصيح مثل الهنود الحمر في أفلام رعاة البقر الأمريكية. رفع هو جلاّبيته إلى ما فوق الركبتين، وركض بكل ما أوتي من جهد مُطلقاً صيحات النجدة: «أغيثوني يا عِبادَ اللّه، أغيثوني!!». ولم أكفَّ أنا عن مطاردته إلاّ عَندما لم تعُدْ تفصلنا عن القرية غير بضع مئات من الأمتار.

في هذا الصباح الصيفي الثقيل، أشعرُ برغبة حادّة في أن ألعب واحدة من تلك الألعاب المجنونة التي كنت أمارسها في طفولتي ومراهقتي، كأنْ أخرج إلى الشارع وقد نبتَ في جبهتي قرنان، وتلطّخ وجهي بالرماد، وبرزتْ أسناني مثل خنزير، أصيح في الناس صيحةً تروّعهم، وتُجبرهم على الاعتصام ببيوتهم والكف عن هذا الضجيج الذي لا يتعبون منه لا في الليل ولا النهار. وحدها لعبةٌ كهذه قادرة على وضع حدّ لهذا السأم الذي يخنقني منذ أسابيع عدة. «الصيف يقتلني» يقول رامبو. وأنا أيضا أشعر منذ أن دخَل الصّيَف أني مكبّل ومُنْهَكٌ، عاجز عن القيام بأي شيء. أحاول أن أقرأ أو أكتب فلا أستطيع. أخرج إلى الشارع فيعتريني دوارٌ. وسرعان ما أعود إلى الشقة وأنا أكاد أتهاوى على الأرض من

فرط الإعياء. لا أرغب في رؤية أحد. حتى عمّار لا أريد أن أراه. سأظل أتعفن في هذه الغرفة الساخنة حتى الخريف. عندئذ ربما تتغير الأحوال، ويزول هذا الكساد. آه. كم أنا بحاجة إلى بضْع قطراتٍ من المطر! وكم أنا مشتاق إلى سحابةٍ تحجُب عني عينَ الشمس الحارقة!

□ □ □

صُوَر الهزيمة البشعة تمرّ بطيئة في ذهني، وأنا أسبح في العرق. كل ساعة أدلق على جسدي سطل ماء بارد دون أن يجدي ذلك نفعاً. أكثر من مرة أتمدّد على الفراش راغباً في النوم. أظل أتقلبُ وأتقلّب. وحينَ أتيقن أنني لنْ أظفر بإغماضة واحدة، أنهض وأشرع في الرواح والمجيء مثل سَجين، بينما صور ذلك اليومَ البعيد تجْلِد دماغي، وتُمعن في تعذيبي.

كان ذلك قبل ثمانية أعوام بالضبط. تحت أشجار الزيتون يتحلّق رجال قريتي حول الراديو الضخم الذي اشتراه الأونباشي مسعُود بعد عودته من حرب الكونجو. صوت المذيع يهدر مشحوناً بالحماس والتحدّي: «أسقطنا ثلاثمائة طائرة من طائرات العدو في معارك هذا الصباح فقط! جنودنا البواسل على مشارف تل أبيب! سنستعيد أرض فلسطين المقدسة قبل حلول الليل! أيها الأبطال، أيّها الشرفاء من المحيط إلى الخليج، لقد قُربتُ ساعةُ النصر العظيم!».

مع كل كلمة ينطق بها المذيع، يفيض على وجوه الرجال حماسٌ فيهللّون ويكبّرون، ومن البيوت ترتَفع زغاريد النساء. وأنا بعيد عن حلقة الرجال، أحسّ أن هناك كذبةً هائلة سوف تنفجر بعد حين مثلَ عاصفة هوجاء، تملأ عيوننا وأنوفنا وأفواهنا بالتراب. أغرق في قراءة رواية «اللص والكلاب» محاولاً أن أنسى ما حولي. تشتد الحرارة. يزداد صوت المذيع هيجاناً. تكبر الكذبة حتى تُصبح بحجم الهضاب المسلُوخة التي تشطح في سراب حُزَيْرَان. تختلط الأسطر ببعضها بعضاً، فأعجز عن مواصلة القرءة. أُلقي بالكتاب بعيداً عني. أتمدد على الرمل وأغمض عيني. يصيح مسعود: «ألم أقل لكم يارجال إنه ليس هناك من يَرْفع رأس العرب غير عبد الناصر!». ترتفع أصوات الرجال الآخرين مباركةً ما يقول. أتأمل أبي. أراه مخدوعاً مثلهم. أودّ لوْ أهرب بعيداً حتى لا أسمع ما أسمع ولا أرى ما أرى.

فجأة يطلع البهلول، غرْسُ اللّه، من رأس الشارع، وقد حرقت الشمس نصف جسده العاري، حتى بدَا بلون النُّحاس، وتهدّل شعرُ رأسه الرمادي على كتفيه، وتعفرت لحيته بالغبار والقش. سمعتُه يصيح بأعلى صوته ملوّحاً بعصاه في الفضاء:

-اسمعوا أيها الحمقى. إني أراهم كما أراكم يهرولون عبر صحراء سيناء، حفاة عراة، وسياط أحفاد موسى تلسع ظهورهم!

لا يهتمُّ أحد بما يقول. والجميع يظلون منحنين على الراديو مثل دجاج يلتقط الحبَّ، بينما المذيع يرغو ويزبد:

-يا أحفاد علي ابن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وطارق بن زياد، ها أنتم تُثبتون مرة أخرى أنكم قادرون على سحق الأعداء، ووضع إكليل المجد على رأس هذه الأمة العربية الخالدة. تقدموا. تقدموا. إن نصْرَ الله قريب!

يصيح البهلول، غرسُ الله. من جديد:

-أيها الحمقى. إن ما تسمعونه كذب في كذب. وعليكم أن تتأكدوا أن كل شيء قد انتهى الآن. وأنكم هزمتم شرّ هزيمة. وسوف يأتيكم الليل بالخبر اليقين!

بعدها يشرع غَرْسُ الله في الصعود بتُؤدة نحو الهضاب التي يسكنها منذ ما يزيد على العشرين عاماً. وأظل أنا أتبعه بنظراتي، حتّى يتوارى بين الصخور النحاسية اللون.

أهيم على وجهي حتى طلوع الفجر، وحين أعود، أجد أمي مقرفصة أمام الباب. حالما تراني تهب واقفة وتقول لي وهي تنتفض من شدة البكاء:

-لقد هزم العرب، ودخل اليهود القدس!

منذ ذلك الوقت، والحرارة والهزيمة عندي متلازمتان!

□ □ □

لكي تعرف كلّ صغيرة وكبيرة عن الديكتاتور العجوز، أنتَ لستَ ملزماً بفتح الراديو ولا بإشعال التلفزيون، أو شراء صحف. إن أعوانه المخلصين السّاهرين على سلامته، وعلى استمرار حكمه، يمتلكون طرقا جهنمية تخوّل لهم إيصالها اليْكَ دون نقصان، في أيّ مكان وفي أيّ وقت يشاؤون. وبإمكانك أنت أن تتصام وتتعامى، كما بإمكانك أن تدفن نفسك في كهف في جبل قصيّ، غير أن كلّ هذا لن يُعفيك من الوجبة اليومية الثقيلة.

هـذا الـصبـاح، وأنـا أنـهض من الـنـوم، أبـلـغـتُ، حتى قـبـل أن أشـرب القـهـوة، أن الديكتاتور العجوز يحتفل بمرور خمسة عشرَ عاماً على زواجه. وطبعاً سوف تستمرّ الاحتفالات حتى بدء الاحتفالات بعيد ميلاده. وطوال هذه الفترة لن تتحدث وسائل الاعلام إلاّ عن هذا الحدث. ربما سيجد الديكتاتور الفرصةَ سانحةً لكي يبكي بدموع التّماسيح بعد أن يروي بعضاً من ذكريات الماضي. أمّا أنا فليس باستطاعتي أن أفعل شيئاً هذه الأيام، غير أن أتأمل العالم من ثقب الباب.

□ □ □

جاءني عمّار آخر المساء. مكثَ عندي حتى منتصف الليل. حدثني عن جمعه وقال لي إن البعض يتهامسون بأخبار غريبة حوله، ويقولون إنه ربّما بدأ يتقرب من أولي الأمر وأصحاب النفوذ، ويتنكّر للأفكار الاشتراكية والثورية التي عذّبنا بها طوال سنوات الجامعة. لم يباغتني هذا الأمر على الإطلاق، ففي وجه جمعة عفونةٌ تَشي بأنه قادر على سحق أقرب الناس إليه من أجل الوصول إلى هدفه. أنا أكرهه، وأكره هذا الصيف، وهرج هؤلاء الصبيان الذين يلعبون الكرة في الشارع طول النهار!

□ □ □

أسمع الرعود تدمدم. على النوافذ أولى قطرات المطر. الشارع هادئ ساكن، لكأنه خلا تماماً من الناس. الصيف يرحل بعيداً، ومعه غباره الثقيل وشموسه الحارقه وملَلهُ القاتل. أودّ أن ألعب تحت المطر، وأغني مثلما كنت أفعل وأنا طفل:

يـانـوْاوِسُّـو والـلّـه مَـانْحِسُّـو

□ □ □

طوال ظهيرة هذا اليوم، تهتُ في المدينة العتيقة تحت رذاذ الخريف الدافئ. شربتُ شاياً في مقهى «الاندلس». أخبرني النادل أنّ صاحب المقهى المعلم حسين، الذي كان يطلب دائماً من عمّار أن يقرأ له معلّقات الشعراء الجاهليلن، قد توفي قبل شهر: «هكذا فجأة، وبينما كان يدخن نارْجيلةً في نفس المكان الذي تجلس فيه أنت بالضبط»، قال.

بعدها تجولّتُ في تلك المكتبات التي كنت أرتادها مع عبد الفتاح أيام الجامعة. اشتريت بعض قصص الجنّ والعفاريت. وحين مررت بشارع «الريح» لم أتمكن من صَدّ نفسي عن طرْق باب بيت عائلة نادية. فتحت لي الباب بنت في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، لها وجه قمريّ شفّاف أكد لي، بما لا يدع أيّ مجال للشك، أنها الأخت الصغرى لنادية. سألتها:

- هل نادية هنا؟
- لا، قالت.
- وأينها؟
- تزوّجتْ، قالت.
- تزوّجتْ؟! قلت أنا بدهشة واضحة.
- نعمْ. تزوجت منذ ما يزيد على نصف العام! قالت.

سدّت غصة كبيرة حلقي فلمْ استطع أن أُضيفَ ولو كلمة واحدة. واصلت تجوالي في الأزقّة الفارغة. بينما كان الرذاذ يوشوش على السّطوح، والسّحب تزحف داكنة نحو الشرق، عند الغروب. ذهبت إلى شقة عمّار فلم أعثر عليه. جارُه قال لي إنه متغيّب منذ عدة أيام. حزنتُ جداً، ذلك أني كنت متشوقاً إلى معرفة ردة فعله عند سماعه الخبر. لست أدري، ولكن ثمة إحساس راسخ فيّ منذ سنوات طويلة يجعلني لا أتصور أن تكون نادية لرجل آخر غير عبد الفتاح. انتصف الليل وفيروز تغني:

مَا في حدَا لاَ تْندَهي ما في حَدا
عتْمْ وطريق وطيرْ طايرْ عالهدَا
بابْهن مسكّر والعشب غطّى الدراجْ
شوقُولكُن.. شوقوْلكُن صاروا صَدَى

□ □ □

وأنا أتأمل فتاة تنشر الغسيل على السّطح المقابل، بينما الريح تعبث بفستانها، وتبرز شيئاً من مفاتن فخذيها، انتبهتُ إلى أني لم أُجامع امرأةً منذ ما يقارب نصف عام. وفي الحين هرعتُ إلى الماخور، رغم أنّ جميع التجارب السابقة اثبتت لي أن حظّي مع صاحباته عاثرٌ دائماً. أعجبتني واحدة كانت تبدو حديثةَ العهد بأقدم مهنة في العالم. دخلتُ، نزعتَ ثيابي، وحين هممتُ بها، أبَى أن ينتصبَ. قبّلتُها، داعبتُ صدرها، همستْ هي لي ببعض الكلمات لكي تهيّجني، غير أنه لم يستجبْ. وعندئذ اضطربتُ اضطراباً شديداً، جفّ ريقي، وأخذتُ أرتجف تماماً مثلما حدث لي حين دخلتُ الماخور أولَ مرّة وأنا في سنّ السادسة عشرة. لبستُ ثيابي على عجل. دفعتُ، ثم انسحبتُ كالهارب. وعندما كنتُ أبتعد مطاطئ الرأس، مرتبكَ المشية، سمعتُ المرأة تقول لصاحبتها: -يظهرْ لي مُوشْ رَاجَلْ!

□ □ □

رأيت نفسي أحضرُ زفافاً في قريتنا. لم أكن أعرف لا العروس ولا العريس. كان هناك أناس أعرفهم، وآخرون أراهم لأول مرة. منذ البداية أحسستُ أنه لا أحد اهتمّ بي أو التفت إليّ. كانوا يرقصون ويُغنّون ويدخّنون ويأكلون الثّريد البربريّ بأيديهم الشبيهة بملاعق خشبية قذرَة. كنت أنا واقفاً أنظر إليهم وكأني مفصول عنهم بحائط لا يراني أحد. لا نظرةَ ولا حركةَ باتجاهي، كما لو أني متسولٌ أو غريب. تألمتُ بسبب ذلك شديدَ الألم، وقلتُ في نفسي ربما نسوْني بسبب غيبتي الطويلة. تقدمتُ من واحد من أبناء أعمامي، وقلت له كلاماً لطيفاً، غير أنه حدجني بنظرة لا مثيل لقساوتها. ثم أشاح عني بوجهه وهو يرطن بلغة لا أفهمها. فعلتُ الشيء ذاته مع ثان وثالث ورابع، لكن جميعهم نفروا منّي نفورَهم من ولد الزّنا، بل بدا لي أن أحدهم، وكان أحْوَلَ، قميئاً، وسخَ السّحنة، أصفر الأسنان، صاح في وجهي وهدّدني بهراوة لوْ هوَى بها على جملٍ لقتلته في الحين. شعرتُ بالإحباط وبرغبة في البكاء بصوت عال مثلَ النساء في المأتم.

وفجأةً وقفت أمامي رقية، زوجة أخي إبراهيم، وكانت تلبس ملاءةً سوداء قذرة، ووضعتْ أمامي إناء من طين فيه طعامٌ بنفس الطريقة التي يضع بها البدو التّبْنَ أمام دوابّهم، والنّخالةَ أمام كلابهم، ثم انصرفتْ دون أن تقول لي شيئاً. تذوقتُ الطعام فوجدته رديئاً ممزوجاً بالتراب. رحتُ أتقيأ وأتقيأ. تحلّق حولي بعض الأطفال. نظرتُ إليهم واحداً

واحداً، فإذا بينهم عدنان ابن اختي مَهْنيّة. كان يلبس بذلةً رياضية برتقالية، ويحمل دُميةً ضخمة. شعرت بسعادة كبيرة كمثل ذلك الذي يطلق سراحه من السجن على حين غفلة، فصحت فيه: «تعال قبلني يا عدنان!» ظل صامتاً لا مبالياً بي. اقتربتُ منه وقلت له وعيناي مغرورقتان بالدموع: «تعال. أنا عمّك ياسين!» قال لي وهو مهتمّ بدميته أكثر مما هو مهتمّ بي: «أنا لا أعرفك!». اندفعتُ نحوه وقد عصف بي غيظ شديد، غير أنه فرّ مني وهو مذعور.

تدافعَ الناس نحوي غاضبين، مكفهري السّحنات، جاحظي العيون. لكن المشهد تغيّر فجأة، ورأيتُني أمشي صحبة زينب وسط حقل زيتون. كان معنا عبد الفتاح وعمّار ونادية وآخرون. كانت زينب حزينةً وصامتةً، وحول رقبتها وشاحٌ حريري أسود. حاولت أن أخرجها من صمتها، فلم أستطع. بغتةً داهمتنا عاصفةٌ هوجاء، واسودت السماء، وأرعد الرعدُ. جرينْا بأقصى ما أوتينا من قوة، غير أن زينب ظلت تمشي بهدوء، غير مباليةً تماماً بما يحدث. صرختُ فيها: «تعاليْ يا زينب!»، فلم تكلمني ولم تنظر إليّ. واصلت الركض، وحين التفت ثانيةً كان حقلُ الزيتون قد اسودّ تماماً، ولا أثر لزينب. ناديتُ: «زينب. . زينب!» لا شيءَ غير صوت الرّعد والعاصفة. سألت عبد الفتاح: «أين زينب؟» فلم يجبني، وظل يجري ماسكاً بيد نادية. حاولت أن أدركهما فلم أتمكّن من ذلك. عدتُ أصرخ من جديد: «زينب. . . زينب!» لا جواب. بدأت أبكي وأبكي. وعندئذ تغيّرَ المشهد، ورأيتُني مع مجموعة من الأصدقاء بينهم عبد الفتاح وعمّار ونور الدين وآخرون. كنّا مسافرين إلى أحد البلدان الاسكندنافية لحضور مؤتمر شعري عالميّ. كنا نضحك ونمْزحُ طول الوقت. ولما حطت بنا الطائرة، وجدنا أنفسنا وسط أرض غليظة، نحاسية اللون. كان هناك جنود مدججون بالسلاح ينظرون إلينا بحقد شديد دون أن ينطّقوا بكلمةَ. رُحْنا نمشي بحذر وهدوء، وحولنا الأسلاك. فجأةً وجدنا أنفسنا أمام مدينة مخربة تحيط بها حصون رمادية، وتحلق فوقها أعدادٌ هائلة من الغربان والنسور. استغربتُ أنا أن تكون المدن الأسكندنافية شبيهةً بمدن الشرق. شرع عبد الفتاح يسخر منّي ويقول: «انظروا إليه، إنه مثلُ بدوي معتوه يسافر لأول مرة خارج الدوّار»! وكان بقية الأصدقاء يضحكون بقوة غير عابئين بالجنود الحاقدين. اقتربتُ من أحد الأصدقاء، قد يكون عمّار، وسألته: «هل نحن في اسْكندنافيا أم في الشرق؟» فقال لي: «ولمَ تريدُ أن تكون في اسكندنافيا، نحن في ترشيش!» نظرت حولي فإذا هناك ينبوعُ ماء وَفتياتٌ سمراواتٌ يقفن حوله وفي أيديهن

سطولٌ فارغة. انحنيتُ لكي أشرب، غير أن «الأستاذ»، وكنتُ لأول مرة أنتبه لوجوده بيننا، صرخ فيّ «لا تفعل ذلك! إنه مسموم!» رحنا نقترب من المدينة الحزينة ذات الحصون الرمادية. ثم استيقظتُ. كانت الأمطار تضرب بشدة على النوافذ، والغرفة باردة مثل ثلاجة.

□ □ □

أواخر ظهيرة هذا اليوم، ذهبتُ إلى بار «الميناء». وجدتُه كئيباً، خاوياً. رحّب بي النادل كثيراً وقال لي إن العم محمود يعاني من الروماتيزم، ولم يعد قادراً على الخروج من البيت: «أمّا البقية فقد هجروا المكان دون سابق إنذار، واختفوا نهائياً كأنما ابتلعتهم الأرض!»، وبعد أن وضع بيرةً أمامي، أضاف: «الزمن تغيّر. والناس تغيّروا. الخبزة أصبحت صعبة. وكل يوم جديد يكون أشدّ عُسراً من سابقه. أليس كذلك؟!».

بعدها سألني عن عبد الفتاح، فقلت له إني لا أعلم عن أخباره شيئاً منذ أن غادر البلاد.

- حسناً فعل. لقد أنقذ نفسه مبكّراً من هذا الجحيم!، قال هو.

حال خروجي من البار، استبد بي حنينٌ جارف إلى «الأستاذ»، وفوراً ركضت إلى المدينة العتيقة.

- أيها الشيطان. لقد كنتُ أفكّر فيك قبل لحظات، قال «الأستاذ» وهو يفتحُ الباب. بعد أن جلسنا في الصالُون الصغير المليء بالكتب، فتح «الأستاذ» قنينة نبيذ أحمر، ثم سألني:

- كيف أحوالك؟

- لا بأس. لقد قتلني الصيف. وها أنا أتعافى من جديد، قلت له.

- أنا أيضا، قال، لقد كان صيفاً مزعجاً للغاية. كل ليلة زواج أو ختَان. وكل ليلة أُجْبَرُ على السّهر حتى الصباح بسبب الزغاريد والطبول والرقص والرّهز!.

سهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل. تحدثْنا في أمور شتّى خصوصاً عن عبد الفتاح وقد قال لي «الأستاذ» إن أحد العائدين من باريس ذكر أنه شاهده هناك يتأبط ذراع شقراء، وكان يبدو في زهو ونعمة.

- لم أكن أتصور أنه قادر على البقاء شهراً واحداً في الغربة!، قلت أنا.

- اسمَعْ. إن عبد الفتاح رجلٌ متعدد الأطوار. ضعيفٌ وقويٌ. هشٌ وصلبٌ في نفس الوقت. وأشخاص مثله يصعب الحكم عليهم بسهولة!، رد «الأستاذ».

وحين جرّنا الحديث إلى الأحوال العامة للبلاد، خصوصاً بعد اشتداد المواجهة بين النظام والنقابات، أطرق «الأستاذ» قليلاً، ثم سألني:

- أتدري من يهدّد البلاد الآن؟

- ....

- الملتحون! قال.

- الملتحون؟! أي ملتحين؟! صحتُ أنا كمَنْ لُدِغَ على حين غفلة.

- آ... هذا ما كنتُ أتوقّعه بالضبط. وعلى أيّة حال، أنت لست الوحيد الذي لم ينتبه بعد إلى مثل هذا الأمر الخطير. صمت «الأستاذ» قليلاً، ثم أضاف:

- الملتحون يا صديقي لا يثيرون الآن انتباه أحد، وهم رابضون في عتمة جحورهم، ولا يظهرون من نواياهم شيئاً على الإطلاق. وحين يتمعّن فيهم واحدٌ مثلك يقول إنهم جماعة من الدراويش الذين يعطفون على الفقراء والمساكين، ويحسنون لليتيم والسائل، ويأخذون بيد الأرامل، ويُعلمون الصبية القرآن والأخلاق الفاضلة. ولكن حين تحين الساعة، سوف ينقضّون على البلاد انقضاضاً رهيباً، وينشرون القتل والدمار في كل مكان، تماماً مثل جدهم الحسن ابن الصبّاح. وإذا ما أردت التأكد من صحة كلاَمي، فتعالَ أطُفْ بك يوم الجمعة في مساجد المدينة العتيقة لكي تسمع ما يقولون، وتتحسّس ماهم يهيئُونهُ لهذه البلاد المسكينة في المستقبل القريب!».

عند عودتي إلى البيت، لم أستطع أن أنام. وحتى طلوع النهار، ظلت اللّحى الغبراءُ تتراقص مثل الخفافيش في ذهني.

□ □ □

أبلغني عمّار أن والد صديقنا صلاح الذي يقبع في سجن «البرج» منذ انتفاضة فبراير قد توفي بالسّرطان. غداً أسافر إلى المدينة البحرية، هناك في أقصى الشمال لمواساة تلك العائلة النبيلة، التي تربطني بها صداقة قديمة.

□ □ □

أدخلها عند الغروب فتصفعني رائحة «الميناء القديم»، والبحر الهائج والبحارة المتعبون، والأطفال الواقفون على الرصيف ينتظرون وينتظرون! تُعرّش في جسدي أحاسيس كأنها الشوك، ومن حولي يمتدّ اللّيل مسكوناً بالموت. أراها أمامي ترتعش في الضوء الكابي كأنها محمومةً. اتكمّش في برنسي، وأتقدم خطوة، خطوتين، ثلاث. أتذكر أن ذلك الفتَى المهاجر في الضباب قدم إلى هنا ذات مرة. كتب أغنيةَ حبّ على رمل الشاطىء، ثم اختفى. أسمع صوته فأقول لاَ، إنَه صوتُ الريح، غير أن الصوت يكبر ويكبر حتى يُصبح كما لو أنه صوتي.

خطوة، خطوتان، ثلاث. رائحة البحر، رائحة بواخر التيّه، رائحة الفتى البعيد، رائحة العواصف والفواجع وطيور النّورس والرجل العجوز الذي ينتظر في الميناء تحت المطر البارد. قادماً من أعماق ألم قديم. أحملُ معي غبَار البوادي الأحمر، وروائح القبائل المنقرضة، والجبال النحاسية اللون. ها الشّعْرُ أتعبني وأضناني، ويوماً ما سأسقط في الطريق، وسيلملم الناس جسدي كما يُلملمون فتات لحم حيوان داستْهُ سيارة.

خطوة، خطوتان، ثلاث. أتى معي يوماً. وجههُ القمحيُّ كان يشعّ بحماس الأطفال حين ينتصرون في ألعَاب اختبار الذكاء. راح يتحدّث ويتحدّث، ثم فجأة بدأ كمن أرتُجَّ عليه، فغرق في الصمت. تأملته، فإذا به خاشع أمام البحر ويداه مضمومتَان إلى صدره مثل مسيح يصليّ، ثم سمعته يهمس: «إني أشمّ رائحته!» قلت: رائحة من؟ قال: «رائحة صديق قديم مكثَ طويلا في «البرج» حتى امتزجت رائحته برائحة البحر!».

خطوة، خطوتان، ثلاث. ترى كيف أحوالُ ذاكَ الصديق؟ كان يطمئن لهزات الدنيا كما يطمئن المركب الضائع لهزّات الموج. هو هناك قابع في «البرج» الذي تضربه الرياحُ البحرية بعُنْف. وحين يُعَسْعسُ الليلُ ويغفو الحرّاس، يطلق صوته بالغناء، يظل يغني، حتى يلامس الفجر القضبانَ.

خطوة، خطوتان، ثلاث. يعود الرجل العجوز الذي ينتظر في الميناء تحت المطر البارد إلى البيت مُحْبطاً ومبلّلاً، فيقول له الطفل: «حدثني يا أبت عن بلاد ما وراء البحر». يُطرق الرجل العجوز رأسه حيناً من الزمن ثم يتيه في الخيال، ويظل يحكي الخرافة تلو الخرافة حتى يطبق النوم جفنيه. ومرة عاد الطفل من المدرسة مخذولاً. مَدّوا لَهُ كسرَةَ خبز يابس وحساءً ساخناً، فامتنع عن الأكل، وانتحى ركناً قصيّاً وراح يبكي ويبكي. سأله الأب العجوز عن السبب، وظل يلحّ في السؤال. لكن الطفل ظلّ يشهق وينتفض ثم أجاب بعد لأي: إنهم يعيّرونني ويقولون لي «يا ولد الدوكار!».

خطوة، خطوتان، ثلاث. تمتزج المدينة بالبحر، ويختلط نواح الأمواج في الغروب البارد بضجيج السكارى في الحانات وفي العتمة الثقيلة. كالرصاص يلمع ضوء «البرج» هناك على قمة الجبل الصغير. حين قال لي: لقد مات! تسلّقتُ سلّم الذاكرة حتى لامستُ اليوم الذي حدثني فيه عن الموت والقسوة في ذلك المقهى المدفون في قلب المدينة العتيقة حيث يسكن صيادو الأسماك و«دوكارات» الميناء، وعلى وجهه العريض كآبةُ البحر في الشتاء. قال لي: «يوم مات ابْني الأول بكيتُ كالسّماء في الشتاء. ولكني تعلمتُ بعدئذ أن أستقبل الفواجع في هدوء وأن أحني ظهري لها تماماً مثلما أفعل لحمل الأكياس. المظلّيون الفرنسيون يملأون الشوارع ويحاصرون المدينة البحرية، والهواء مشحون بروائح الحرب والعنف. نهضنَا من أحيائنا العتيقة مثلما ينهض الموتى من القبور. أحسسنا ونحن نتدفّق نحو الشوارع أن مدينتنا البحرية تحبّنا أكثر من أيّ وقت مضى. لم تُوقفْنَا الأسلاكُ الشائكة، لم ترهبنا أوامرُ المظلّيين. وفجأة أطلقوا النار. جريْنَا في مختلف الإتجاهات. وحين التفتُّ رأيتُ ابْني يسبح في الدم. حملتهُ على ظهري وركضتُ إلى المستشفى وسط الرصاص والقنابل المسيلة للدموع. اليوم الأول والثاني. اليوم الثالث. اليوم العاشر. بعدها أعطوني أوراقاً كثيرة حملتُها إلى العاصمة. وحين وصلتُ إلى هناك بعد يومين من السير على الأقدام قالوا لي: «لقد استشهد ابنك في المعركة. والشهداءُ أحياءٌ عند ربهم يرزقون!» عدتُ راجلاً. وحين وصلتُ سقطت وسط دائرة زرقاء من الألم والعذاب، ولم استيقظْ إلاّ صبيحة اليوم التالي. كان صلاح مقرفصاً بجانبي، وفي عينيه بريق أبهرني.

خطوة، خطوتان، ثلاث. الطفل ينمو بسرعة غريبة. الطفلُ يميل إلى العزلة والتأمل. الطفلُ يلتهم الكتبَ على ضوء المصباح الشّحيح ويقطّب جبينه مفكراً مثل الشيوخ

والحكماء. الطفلُ يصمت أحياناً ويظل صامتاً كالغائب عن الوجود. الطفل يبدو كما لو أنه يخفي أسراراً. الطفل يعلّق صورةَ محمد علي الحامي في غرفته، وفي شهر هزيمة العرب دخلت عليه أمّه فوجدته يبكي وإلى جانبه خريطةُ فلسطين.

يوم نجاحه في الباكالوريا قلت: الآن انتهتْ جميعُ آلامي، والولدُ سيصبح مهندساً أو محامياً. جلستُ في مقهى الميناء ودخنتُ سيجارة كانت ألذّ سيجارة في حياتي. ثم بدأ صلاح يعاشر «الدوكارات» ويسهر معهم حتى الصباح، ويحكي لهم أموراً لا يفقهونها كثيراً، لكنها كانت تخفّفُ عنهم وطأة العيْش. وعندما داهمتنا الشرطة ونحن نيامٌ لم أفاجأ. كنتُ كمن ينتظرهم. فتّشوا البيت. مزّقوا الحشيات. قلَبُوا البيت ظهراً على عقب. أُغميَ على أم صلاح من هوْل الصّدمة. ومن الغد أخذوني إلى أناس يلمعون كسكاكين مشحوذة جيّداً. قالوا لي: «أنت أبٌ سيئ». وقالوا لي: «ابنك عدو للوطن»، وقالوا لي: «ابنُك حطّم وكسّر وسبّ الحكومة وصاحب الفخامة يوم الانتفاضة». راحوا يصيحون ويشتمون ويدخّنون نافثين الدخان في وجهي. أما أنا فقد قلت لهم: «ابْني لايحبُّ الظلم»! صمتُوا. حدّقوا في بعيون كأنها مشاهب. ثم فجأة استولت عليهم نوبةُ الجنون. اندفعوا نحوي وراحوا يضربونني ويبصقون في وجهي، ثم رموني في الشارع كما تُرمى النفايات.

خطوة، خطوتان، ثلاث. تبكي المدينة حزناً عليه. يبكي الليل. والبحرُ. وتنوح السماء ويخفق ضوءُ «البرج» في العتمة الكثيفة. بغتةً ينبت أمامي ذلك الفتى الجنوبي القادمُ من قرية النخيل والينابيع الدافئة. يتقدم نحوي في هدوء وصمت، وحين يصل إليّ يُعانقني بحرارة، يحدثني عن سنوات الوحدة وراء القضبان، ثم يختفي كما ظهر. يغني البحارة أغانيهم الحزينة، ويعلو صوت البواخر القادمة من بلاد ما وراء البحار.

خطوة، خطوتان، ثلاث. الي أين أنت ذاهب في هذا الغروب البارد؟ كل المدن تحولت إلى برك للعذاب، وهاهي المدينة البحريةُ التي تحبها تنشج في الظلمة مثل صبية مقهورة، بينما منَ «البرج» تعلو أغاني ذياك الصديق ممتزجة بضخب البحر وولولة الريح.

خطوة، خطوتان، ثلاث. في الفجر أيقظوننا. حشرُونا في سيارات سوداء وانطلقوا بنا في اتجاه مجهول. كنا متعبين. أكثر من شهرين ونحن في أقبية التعذيب الرطبة المليئة بالجرذان والقمل. غرقنا في صمت بارد كحديد السيارات التي تحملنا. فكّرنا في الأيام

الصّعبة التي تنتظرنا. تخيّلنا سجوناً في عمق الجبال تقطر حيطانُها صقيعاً قاتلاً. وفجأة انطلقَ صلاح يغني رغم الدمل المتقيح الذي يجعله يبيت الليل وهو يئن من الألم. صوتُه كان بحراً وحقولَ قمح وغابات زيتون وواحات نخيل. ولما طلع الصّباح رأينا من خلال القضبان جبلاً أجرد غليظاً يرتفع نحو السّماء، مثلَ صرخة من عذاب.

خطوة، خطوتان، ثلاث. كان يحب الأولاد جميعهم بدون استثناء، ويحرص على أن يأخذ لهم الأكل سخناً. كان دوما يمرّ أمام باب حانوتي في كسوته الزرقاء. يحيّيني بحرارة، يطلب مني سيجارة، ثم ينصرف محنيّ الظهر قليلاً. وحين يعود من «البرج» مساء، يقول لي: «أوصلته لهم سخناً. سيفرحون هذه الليلة، وسيشعرون أنهم في بيوتهم مع أهلهم وأحبائهم».

خطوة، خطوتان، ثلاث. عند الفجر مررت بضريح الولي الصالح سيدي سالم فسمعته يدعو: «ياوليّ الله. ساعدني وخفّف متاعبي، واغمُرْ ابني بعطفك ومحبتك واملأْ قلبه بالصبر على أعدائه واهْلكْ من أهانُوه وعذّبوُه وأبعدوه عنّا وعن أصحابه. ياوليّ الله. ياصاحبَ الشهامة والقلب الطَيب. أنا ببابك فخُذْ بيدي وارأفْ بحالي».

خطوة، خطوتان، ثلاث. يالوعتي! لقد رحل عنّا كأنّهُ لم يكُنْ أبداً بيننا. غير أن رائحته لا تزال تملأُ الميناء، ولاتزالُ على الأكياس التي حملها، والبواخر التي انتظرها، والأرصفة التي ضربها بحذائه المطّاطي تحت المطر البارد. وها أنا أسمع صوتَه الأبحَّ الهادئَ آتياً مع الأمواج من أعماق البحر الصاخب. تُرى هل عاد بعدي إلى المقهي وجلَس؟ في ذلك اليوم الشاتي حدثني عن طفولته الصّعبة في الأحياء العتيقة، وعن إضراب «الدوكارات» ايام محمد علي المحامي. قال لي: يوم سرتُ في جنازة أول «دوكار» اغتالتْه الجنْدَرْمةُ الفرنسية تمنّيتُ أن أصبح «دوكاراً» أنا أيضاً، تماماً مثلما يتمنّى طفل أن يصبح طبيباً أو وزيراً. وحالما اشتدّ ساعدي، هرعتُ إلى الميناء وأحنيْتُ ظهري للأكياس الثقيلة وغنّيت مع «الدوكارات» تلك الأغاني التي تَهَبُ الإنسان صبراً لا مثيلَ له. ثم صمَت. أشعل سيجارة. وراحَ يحدّق في الأرض كمن يبحث عن شيء ضاع في متاهات الذاكرة. وبعدها أضاف:

- أتدري أن «الدوكارات» هم أول من نَزل إلى الشارع؟ أتدري أن دماءهم لا تزال تصبغ شوارع المدينة مثلما تصبغ الحناءُ أرجل الصبايا؟ كنت أقول ذلك دائما لصلاح. آه.

مَا أجمل تلك الأيام! أحياناً أشعُر كما لو أنها هي التي تجعلني قادراً على تحمُّل كل شيء. وعندما كبُر الطفل قال: علّمني أبي كيف أرفع رأسي وأتحدّى!

خطوة، خطوتان، ثلاث. ها أنا أشمها تلك الرائحة. رائحة دم «الدوكارات» وها هي تنتشر في جسدي حارة عنيفة، فيما أنا أبتعد عن البحر وأتوغل في قلب المدينة العتيقة. تحت الأضواء الخافتة أرى عجائز واطفالا وقططاً، أشُمّ عشاء الفقراء. أسمع بكاء طفل. حين أزورها تقول لي: «كلكم أولادي. كل واحد منكم هو بمثابة صلاح». تضع أمامي فنجان الشاي المنعنع. تجلس قبالتي. تحدثني عن «البرج» وعن أمراضها الكثيرة ثم تقول لي: «لا أريد أن اشتكي أمام صلاح». كل مساء أجلس في سطح البيت وأتأمل «البرج» وأتخيل صلاح يغني تلك الأغاني التي يحبها.

خطوة، خطوتان، ثلاث. يفتح الباب البني، فتنتصب أمامي مثل شجرة تعرّت من أوراقها. تقول لي وهي تنشج بالبكاء: «لقد اتوا بصلاح. سمحوا له بالوقوف أمام النّعش ربع ساعة فقط ثم أعادوه الى «البرج»». اتهالك على الكرسيّ. يأتيني صوت البحر مثل لحن جنائزي. تفيض عيناي بدمع سخين. تجلس قبالتي وتقول لي: «كلكم أولادي.. عندما أرى واحداً منكم فكأن صلاح بجانبي».

□ □ □

قبل شهرين بالضبط، ودّعنا عبد الرحمان وهو يقول:

-لن تروْا خلقتي بعد الآن في هذه المدينة الموبوءة!

ولست أدري كيف تقبّل الآخرون مثلَ هذا الكلام. أما أنا فكنت على يقين تام، استناداً إلى إحساس غامض ليس بإمكاني تفسيره، أنه سيعود حتماً، وأننا سنراه من جديد في مقاهي«باب البحر» برأسه الضخم، ووجهه السّمين، الشبيه بخبزة غير ناضجة، والسيجارة التي لا تكاد تفارق شفتيه، والمحفظة الجلدية التي يملؤُها دائما بكتُب بليتْ من كثرة الاستعمال، تتحدث جميعها عن أمجاد العرب في العصور الغابرة.

وعبد الرحمان، منذ أن عرفناه، كانَ يمنّي النّفس بالسفر إلى البلد المجاور بسبب هوْسه الجنوني بأفكار حاكمها، ودائما كان يصرخ فينا وهو يفيض حماساً:

-اسمعوا. أنتم لا تستطيعون أن تدركوا عمق أفكار«العقيد» لانكم ملوّثون بالأفكار الوجودية والسوريالية والماركسية والعدمية والصهيونية بالخصوص. إن «العقيد»، أيها السفلة المتنكرون لهويتكم، ولأمجاد حضارتكم العربية-الاسلامية، هو الوحيد بين جميع هؤلاء الحكام العرب الجبناء الفاسقين، الذي يصدع بالحق، ويُزهق الباطل، ويتصدّى بالقول والفعل لنفاق الغرب وحقد الصهيونية الشريرة.

وطبعاً كان هذا الكلام يُضحكُنا حتى نستلقي على ظهورنا. وأبداً لم نكن نغتاظ من عبد الرحمان مثلما هو حالنا مع«القومجيين» الآخرين، وربما يعود هذا إلى أنّ عبد الرحمان كان يبدو لنا دائماً شبيهاً بمعتوه القرية الذي يطلق كلاماً دون أن يدري معناه. إضافة إلى ذلك، كان عبد الرحمان شخصا ظريفاً، بريئاً مثل طفل، وسليماً من تلك النوايا السيئة التي تسكن أصحاب المذاهب والإيديولوجيات الديماغوجية.

البارحة، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة ليلاً، سمعتُ طرقات عنيفة على الباب. وحالما فتحتُ، وجدتُ عبد الرحمان أمامي وقد هزُل، وغارتْ عيناه، وبدا عليه الصلعُ، ولمع في عينيه ذلك البريق المخيف الذي نراه في عيون من يتأهبون للسقوط في هاوية الجنون. ارتمى في أحضاني، وراح يعانقني بحرارة لم أعهدها من قبل، خصوصاً وأني كنت أمثل بالنسبة إليه «العنصر الأشد فساداً في الجماعة كلها» حسب تعبيره، ثم قال لي:

- اعذُرني إنْ أنا تجرأتُ على طرْق بابك في مثل هذه الساعة. هذا أولاً. وثانياً، أرجو أن تعذرني أيضا لأني كنت مخطئاً في حقك على طول الخط.

- أجلس، قلت له.

تهالك على الكرسي:

- أريد كأس ماء! قال.

وضعت أمامه زجاجة«صافية» شرب نصفها. تنهّد. ثم قال: «أتدري لمَ أنا جئتك في مثل هذه الساعة المتأخرة؟ لأني لا أجد الشجاعة للخروج في النهار، ولاأطيق أن أرى جموعا غفيرة من الناس، أو أن أسمع ضجيج الأسواق والشوارع، أو أن يقع بصري على اللون الأخضر! ذلك هو سرّ المسألة كلّها!». أشعل سيجارة، ثم واصل الحديث: «لقد وصلت إلى تلك البلاد التي كنت أمنّي النفس الذهاب إليها، والاستقرار فيها إلى الأبد،

وأنا من فرط السعادة لا أكاد أصدق، ولكن عقبَ مرور أسبوعٍ واحد فقط على وصولي، اكتشفتُ أن الناس، جميعَ الناس، خائفون. الصّديق من صديقه، والأب من ابنه، والجار من جاره. والمدينة كلّها بدت لي مسلوبة الروح من شدة الرعب. في الحين تسرّب الهلعُ إلى نفسي أنا أيضاً، وبدأتُ أرى في كلّ مكان وفي كل وقت، عيوناً حاقدة تترصّدُ حركاتي وسكناتي، وتنفذ إلى أعماق أعماقي لتستجلي أفكاري ومشاعري. وهكذا راحتْ أحلامي تتبدّد وتتساقط نثاراً على الأرض. اعتصمتُ بغرفتي، لا أخرج منها إلاّ عندما يكون الخروجُ أمراً حتمياً، وأصبحتُ أتجنّب الحديث مع الناس، والخوضَ في مواضيع سياسية، خصوصاً مع صاحب الفندق الذي كان يسألني دائما عن آرائي حول العقيد وكتابه الأخضر. ورغم ذلك ظلّ الهلعُ يتضاعف ويتضاعف حتى شلّ حركتي تماماً. وطول النهار، كانت هناك جموعٌ غاضبةٌ، متوترةٌ تمرّ في الشارع وهي تصرخ وتهدّد وتتوعّد «الكلاب السائبة» ملوّحة بالكتاب الأخضر. في بداية الأمر، كنت أعتقد أن الأمر يتعلق فعلا بـ «كلاب سائبة»، خصوصاً وأن عاصمة تلك البلاد مفتوحة على البادية، غير أن أجنبيّاً مثلي كان يسكن الغرفةَ المجاورة لغرفتي قال لي إن «الكلاب السائبة» هم المعارضون للعقيد ولكتابه الأخضر، وإن تلك الجموع التي لا تكفّ عن النُّباح والعياط تقوم بسَحْلِهم في السّاحات العامة في وضح النهار.

ثم استيقظتُ ذات يوم فإذا بي أرى من حولي ثعابين وضفادع وعقارب خضراء. كلّ شيء كانَ أخضر: جدرانُ الغرفة، الفراشُ، الطاولةُ الصغيرة، والماءُ أيضاً. حتى وجهي حين تطلعتُ في المرآة كان أخضر! ولا بدّ أن أوضّح لك أن الأخضر الذي أعني ليس اللون العادي المعروف، وإنما هو لون مُشَاكِلٌ لذلك اللون المفزع الذي نراه على وجوه المحتضرين، أو للون المياه عندما تركد طويلاً حتى تعفن وتنْتنُ. بعدها رحتُ أتقيأ سائلاً أخضر من فوق ومن تحت. جفاني النوم، ولم أعد قادراً على الأكل ولا على الشرب. كنتُ على وشك الانهيار التام لما زارني ابن عمي الذي يعمل مهندساً معمارياً هناك. ولولاه لما بقيتُ على قيد الحياة.

ومنذ عودتي وأنا مُرابطٌ بالبيت، لا أخرج إلا حين تسكن الحركة وتخلُو المدينة من الناس. نعمْ يا صديقي. لابدّ من وقت لكي أستعيدَ توازني، وأنسَى كلَّ تلك الكوابيس

الخضراء البشعة، التي ظلت تعذبني على مدى أسبوعين كاملين. صدقْني، لقد كنتَ دائما حاضراً في ذهني عندما كنتُ هناك. ودائما كنت ألومُ نفسي وأقول إنَّكَ على حقٍّ وإني ظلمتُك ظُلْماً شديداً. وها أنا جئتُ لأعتذر لك. وأرجو أن تقبل مني ذلك. آه. يا عزيزي، الآن فقط أدركتُ مدى فظاعةِ أن يعيش الإنسان بلوْن واحد!».

□ □ □

قالوا: المدينة الخضراءُ مدينةُ الحكمة والطهارة. مدينةُ الخير والبركة. مدينة العدْل والحرية. لا حاكم ولا محكُوم. لا سجَونَ. لا إهانات. لا بوليس. لا برلمانات. لا مواخير. لا تلوّثَ. لا صراع بين الطبقات. ولا خوف من حروب أو من نكبات.

وقالوا: المدينة الخضراء بسيطة وجميلة. لا ناطحات صحاب تسبّب الدوران، لا طرقات تتلوى إلى حدّ الغثيان والقيء. لا أضواءَ تُعمي الأبصار وتُذهبُ العقول. لا قناطر تضغط على القلب. لا ضجيج يهرّيء الأعصاب. المدينة الخضراء هادئة. منازلها بيضاءُ مسقَّفَةٌ بالقرميد الأحمر، وشبابيكُها مفتوحةٌ للرّبيع الأزليّ، وشوارعُها مرايا. تمضي فيها فتَرى الياقوتَ والمرجان واللؤلؤَ والفضة. تراها هكذا على الأرض ملقاةً ولا أحد ينحني ليأخذها.

وقالُوا: المدينةُ الخضراء جنّة رضوان تفوح بروائح الياسمين والفل والقرنفُل والحنّاء والزّعتر والشّيح. فيها منَ الفواكه ألوانٌ. من الأشجار ما يُشْفي الغليل. فيها أنهارٌ من اللّبن والخمْر والعسَل المصَفّى. فيها التفاحُ الذي يفوح ويُعيد للرّوح نَضَارَتَهَا. وللشيخ شبابَه المفقود. فيها من الطيور ما لا يُحْصَى ولا يُعد. فيها صبايا ذواتُ دَلاَل تترجرج نُهودُهُنَّ الوردية تحت الحرير الشفاف، يمشين خفيفات كالحجل البرّي، ويملأن المدينة غناءً وحناناً وحبّاً. فيها ما يُطفئ لوعةَ العاشق، ويسكن ألم المحروم. فيها ما يحوّل الليلَ إلى النهار، والشموسَ إلى أمطار. حدثوه فإذا بها تحُل فيه كما يحُلُّ الربيعُ في الفيافي الجدياء.

حزَم أمتعتهُ ثم وقف أمام الباب يودّع أُمّه التي بكت وتكمّش وجهها من فرط الألم. قالت: لا تذهب يا ولدي. المدينة الخضراء لا توجد. المدينة الخضراء خرافة!

قال: برمت بهذه المدينة يا أمي، واختنقتُ بعفَنها، ونفاق أهلها وإني ميت من الغمّ إذا

ما بقيتُ فيها.

قالت: لا أقدر على فراقك يا قطعةً من كبدي ونبضةً من نبضات قلبي!

قال: أماه! لقد مزجتُ روحي بروحها، وإنها لتناديني عاريةَ الصدْرِ مفتوحةَ الذراعين، ملتهبةَ الشفتين!

قالت: ستموتُ يا ولدي قبل أن تبلُغَها!

قال: سأعود إليك يا أمي مع الطيور المهاجرة. سآتيك مع الرياح والأمطار. سأكُون في ضحكات الصبايا وفي غمغمات الكون، سأكُون في صوْت الرَّعد وأنّات العواصف ورعشَات الفجر على جبهة البحر!

سارَ وسَار وسَارْ.

سَارَ الأيَّام واللَّيالي.

سَارَ فوْق جبال تكسُوها الثلوج. قممُها شفافةٌ كالبلور، وفوق أخرى صَلْعاء، ناتئةَ الصّخور، يُطلُّ الموت من شعابها ووهَادها. سار في أرض جدْباء، لا طائر فيها يطير ولا بشر يسير، وفي صحاري رَمْلها لهَبٌ خارقٌ، وثعابينُهَا مكسوةٌ بالشعر، تصفّر مثل الرياح، وتزمْجرُ كالأسود الهائجة. سارَ خَلَل غابات دهماء، تتداخل أشجارُها، وتتعالى فيها أصوات الوحوشِ الضارية والطيور الكواسر. شقَّ أصيافاً، هجيرُها يُذيب الجَسد، وشتاءاتها تجمد القلوبَ. واعترضتْهُ أهوال ومخاطر لم تُذكَر في أيّ كتاب من كتب الأسفار والمغامرات!

سارَ وسار وسارْ!

ثُم فجأة توقّف الطريق.

أمامه امتدتْ سهوبٌ رماديةٌ ظلتْ تتّسع وتستطيلُ حتى غابتْ وسط توهجات الهجير. كانت هناكَ أشجار هزيلةٌ تمدُّ أغصاناً ذاويةً، وصبارٌ يرفع أذْرعَته الشائكةَ نداءً يائساً باتجاه سماء نحاسية اللون. وكانت هناك طيورٌ داكنةٌ تُشْبه الغربان، تطلق بين وقت وآخر نعيقاً غريباً مفجعاً. قال: المدينة الخضراء هناك بعْدَ خَطّ الأُفُق. مشى خُطوات. وفجأة غاصتْ رجلُه في وحَل يشبه الزّفت. حاولَ إخراجها فغاصت الأخرى، ثم راحَ جسدُه ينزل ببطء في الزفت اللزِج الكريه. بدأ وجهُه يرزقُّ وينتفخُ ويتورَّمُ، وبدأ تنفَسُه يضيق. صرخ: إنيَ

أموت! ردّدت السهوبُ صدَى صوته الحزين. حلقت الطيورُ قريباً من رأسه مطلقةً أصوات الموت والجوعِ والدمار، ثم امتلأت السماءُ بوجْه أمّه التي وَدّتْ لوْ يناديها، غيرَ أن صوته مات في صدره. راحَ الزفتُ اللزجُ يُجذِبهُ ويجذبُه نحوَ الأسفل حتى غابَ تماماً!

□ □ □

حالَ فراغي ظهر هذا اليوم من قراءة رواية «تحت البركان» لمالكوم لاوري، غمَرني فرحٌ غريبٌ جعلني أهرع إلى المدينة، وبي رغبة في أن أعيش ليلة من تلك الليالي التي عشتها مع عبد الفتاح، أيام التّيه بين البارات والكتب. إنه لأمر عجيبٌ أن يحوّل الفنانُ الألم الإنساني إلى مصدر للسعادة والغبطة!

هذا الصباح، عشت لحظة سعادة حقيقية. لقد التقيْتُ زينب، هكذا بالصدفة، بينما كنت خارجاً من مكتبة «العيون الصافية». في الحين ركبنا تاكسي، وذهبنا إلى مقهى صغير على البحر. بعد أن جلسْنا تأملتُها: كانت لا تزال جميلةً، وفي عينيها ذلك الحزنُ الذي يجعلُها أكثر جمالاً وإثارة. أمّا هي فقد قالت لي بعد أن حدّقت طويلاً في وجهي:

- يبدو أنك أشدّ اضطراباً من قبل!

- هذا صحيح. قلت.

- وما السبب؟

- هناك أسباب عديدة.

- ولمَ لا تتزوج؟

- أنت تعرفين جيّدا أني لا أفكر في هذا الموضوع على الإطلاق.

تراجعتْ إلى الوراء قليلاً، ثم قالتْ:

- أما أنا فقد تزوجت، وعندي طفل. أنا أعيش الآن مع عائلتي الصغيرة في بيت أنيق على البحر، بعيداً عن العاصمة. عندنا حديقةٌ وموسيقى جيدةٌ وكُتبٌ كثيرة. وبعد أن صمتتْ قليلاً أضافتْ:

- لقد انتهى زمن الأوهام!

- وماذا تعنين بذلك؟ قلتُ لها.

– هذه مسألة يطول شرحها ! قالت . ثم صمتتْ من جديد وراحت تتأمّلُ البحرَ . لم أجرُؤْ أنا على أن أُضيفَ كلمةً أخرى ، واكتفيتُ بالنظر إليها وبتذكُّر لحظات الحب السعيد الذي عشْتُه معَها أيام الجامعة ، عندما كنتُ أصهل مثل المهر في حقول الربيع . كان هذا كافياً لكي أكون سعيداً طول هذا النهار !

□ □ □

قولة شاتوبريان الشهيرة : «إن أمةً معاقةً تظل طويلاً في السرير قبل أنْ تموت» تنطبق تماماً على هذه الأمة التي تُحْتضرُ منذ أن دمّر المغولُ بغداد . ومن جثتها التي تحلّلتْ وتعفنتْ ، يتوالدُ ، كما تتوالد الديدان ، طغاةٌ ومستبدُّون لا يفعلون شيئاً آخر غيْرَ نهشِ لحْمها . واستئصال ما تبقّى من رُوحها .

□ □ □

المطر يتهاطل بغزارة . كلُّ شيء يبدو هادئاً ، رغم أنباء الشارع التي تقول إن المواجهة أصبحت وشيكةً بين الحكومة واتحاد النقابات . رُوحي تَنُوسُ قربَ نجمة الشعر . بعد ستِّ ساعاتٍ فقط ، يبدأُ العام الجديد .

□ □ □

كوابيسُ الزنوج . أهازيج الهنود الحمر . أغاني البدو الراحلين بحثاً عن الربيع الأبدي . مغامراتُ الصّعاليك الكبار : أوليسيس ، تأبّط شرّاً ، السندبادُ ، ابن بطوطة ، كريستوف كولومبس ، أرتور رامبو ، جان جُنيه . الجملةُ الأخيرة في نص يكتبه بهلُول قيْروانيّ . فمُ صبية منفرج قليلاً كما لو أنه يتأهب لُمداعبة (...) متوتر . أغنيةٌ من راع يبحث عن الحب في الأحراش الوعرة . السّهول القيروانيةُ تحْتَ أمطار الخريف . عيُون الفاسيات العاشقات في يوم عيد المولد النبويّ . ينابيعُ النّيل الزرقاء . ضحكاتُ بَنات أُورشَليم . عواصفُ مضيق ماجلاّن . بحيرَات بافَاريا . أبقار الهند المقدسة . يَدٌ ناعمةٌ وملتهبةٌ تداعب الذي يبكي من

الرغبة أو من الوحدة. حكاياتُ الرواة الفقراء في ساحة «جامع الفنا». مُضاجعةُ الأميرات والممثلات بالمخيّلة. النومُ تحت أشجارَ الزيتونَ في أيام الصيف القائظة على نغمات أزيز الصّراصير. روائحُ الأطعمة التي تعدّها أمي ليلة القدر. السّمك المشويُّ على ضفاف «البوسفُور». حكاياتُ الطّيب الدعْبازي عن عام الجراد والجرذان. مضاجعةُ بدوية تحت القمَر المكتَمل. بارٌ صغير على ضفّة بحرَ «سيدي بُو سْعيد» ذات يوم عاصف. زجاجةُ نبيذ أندليسيٌّ. نَهْدُ امرأة مُغْتَلمَة ينفلت فجأة من القميص الحريري. أساطير المدن القديمة في كتاب «معجم البلدان» لياقُوت الحَموي. فصلُ «السّيف والقلم» في كتاب «المقدمة» لابن خلدون. روائح الأجساد بعد الجماعَ. اللوز حين يزهر في جنان «حاجب العيون». رغبات شيخ في الثمانين أمام نهدَيْن ينموان ببطء. ضحكات الأطفال حين يدغَدغون. طرائف جُحَا والغَازُ عبد الصمد. كتاب «الإيضاح في علم النكاح» للشيخ النفزاوي. الحناء في أقدام صبايا القيْروان. إغفاء الجَمال على إنْغام الحادي. شهقة النطقة الأخيرة. هيجانُ الأكباش في فصُول الحب. ثُغاء الخروف وارتعاشةُ المهْرَ لحظة الميلاَد. همهمةُ نَاقتنا الحمراء لمّا يلجُها الجملُ الأعْوَر. أغاني ابنة عمّيَ هنيّة قبْل زَواجها. غبَاءُ خالي الخاتمي وَجُبن عبد العزيز بن عبد الله شهر «الذكر». مخطوطاتَ مكتبة «العطّارين». سورة الرحمان بصوت عبد الباسط عبد الصمد. كفل مارلين مانرو. كل ما أعرف ولا أعرف. وما ذقت وما لم أذق. ما شممْتُ وما لم أشم. كل هذا لكم في مطلع العام الجديد!

□ □ □

أبداً لم أكن أتوقع أن يكون هذا الخميسُ مضرّجاً بالدم، إلى هذا الحدّ! وأبداً لم أكن أتصوّر أن تفضي المواجهة بين الحكومة واتحاد النقابات إلى هذه المأساة التي سوف توشّح البلاد بالسوداء لأعوام طويلة! والآن يصبح السؤال عما سيؤول إليه المصيرُ أكثر هولاً وأشدّ وطأة على نفسي من أيّ وقت مضى.

بدأت الأحداث على النحو التالي: عند الفجر حاصرت قواتُ الشرطة، مدعومةً بالميليشيات المسلحة بالهراوات والسلاسل والخناجر، العمّال المعتصمين بمقرَ الاتحاد منذ مساء الأربعاء. وحتى الساعة التاسعة صباحاً، ظلت الأمور على ما هي عليه دون أن تبرز لشهود العيان إشارةٌ تدلّ على أن الدّم سوف يسيلُ بمثل تلك الغزارة. وفجأة لعلع الرصاص

بكثافة جنونيّة. حدث ذلك بسرعة مذهلة. وفي الحين اختلط الحابل بالنابل. غطّت الجُثث الشوارعَ والساحات. اختنقت المدينةُ بالدخان والعويل والصياح. وتحت وابل الرّصاص المتهاطل كأمطار خطّ الاستواء. ازداد العُمال هيجاناً وغضباً، وراحوا يركضون في جميع الاتجاهات وهم يهتفون: «الخبز. الحرية. الخبز. الحرية.» عندئذ بلغ التوترُ أقصاه، وشرَعَ رجالُ الشرطة يطلقون الرصاص على مَنْ هبّ ودبّ، على ماسحي الأحذية وباعة الجرائد وتلاميذ المدارس والبطالين والفضوليين والقوّادين والمسنّين وقارئات الكف. والمومسات المتحلّقات في مقاهي «باب البحر».

ثم كبُرت المعركة، واتسعت حتى لامس لهيبُها الأطرافَ القصيّة للمدينة. وحوالي الساعة الحادية عشرة، تسلّح فتيان وأطفالُ أحياء القصدير والطوب بالهراوات والخناجر والقضبان الحديدية، ثم توزّعوا على جميع المداخل الرئيسية للمدينة وراحوا يرشقون السّيارات بالحجارة. عندما بدأت طائرات الهيلوكوبتر تقصف أحياءهم، سدّوا جميع الطرق بحواجز حديدية، وأوقفوا جميع السيارات، ثم أنزلوا أصحابها بالقوة ليحيلوهم على محاكم فورية. وكلُّ من تبيّن لَهُمْ أنهم من أهل الترف أو من أصحاب المناصب الحكومية أُحرقَتْ سياراتهم. وجُرّدوا من ثيابهم وضُربوا حدّ الإغماء أو الموت. منتشين بانتصاراتهم، زحف أولئك الفتيان والأطفال الغاضبون في بداية الظهيرة على الأحياء الراقية المنتشرة على طول الشواطئ الشمالية للعاصمة، وأضرموا النار في الملاهي والفنادق السياحية والڤيلات الفخمة، أتلفوا الحدائق الجميلة، واغتصبوا النساء والخادمات وحملوا معهم آلات التّسجيل والتلفزيونات الملونة والثلاجات وآلات الغسيل وأحذية «أديدَاس» وبنطلونات «الدّجينْز» وحتى ثياب النساء الداخلية. في الخامسة مساء، أُعلنَ عَن حالة الطوارئ في البلاد بأسرها، وصدر قرار يمنع الجولان ليلاً في العاصمة، وفي عدة مدن أخرى.

□ □ □

ها قد مرّ أسبوع بأكمله على تلك الأحداث الرهيبة. وها أنا قابع في شقتي لا أبرحها أبداً. أحياناً أتأمل الشارع المقفر الحزين لبضع لحظات، ثم ارتدّ إلى الفراش واهنَ القوى، مسلوبَ الروح. أحاول أن أقرأ فلا أستطيع. أمسك بالقلم. فإذا بيدي يابسةَ، وذهني

مطموسٌ بأشياء تبدو كما لو أنها كتلةٌ من القذارة الراسخة هناك وإلى الأبد. الشراب هو الوحيد الذي يبدو لي محتملاً. لذا أنا أشرب باستمرار، لا أنام إلا قليلاً ولا آكل إلاّ ما يساعدني على تخفيف آثار السكر. واليوم تطلّعت إلى وجهي في المرآة، فإذا بي أرى نفسي عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت.

□ □ □

غسّان يحب أفلام الكاوبوي وكتبَ المغامرات وحكايات الجدّة الهرمة التي لها صوت غليظ مثل صوت الضباط المتقاعدين. قالت له أمه حال نهوضه من النوم: لا تخرجْ هذا النهار! وبعد أن أَفطر تسلل خفْيَةً خارج البيت وجرى هارباً من الحارات القذرة والروائح الكريهة وضجيج الصبيان وعِياط العجائز اللائي لا يكففْنَ عن الخصام من الصباح حتى المساء.

اليوم يوم عطلة. وغسّان، أيام العطل، يحبّ الحرية والإنطلاق، وأمامه تتحول المدينة إلى حقل فسيح فيه يحلو الركض. هذا النهار لن يعود إلى البيت قبل الغروب، وليكن ما يكون. سيجلس أولاً في واحد من تلك المقاعد المخصصة للمتنزهين في جادة «باب البحر»، ليقرأ في الجريدة طرائف الأنباء وأخبار الرياضة والجريمة، متأمّلاً بين الحين والحين الأشجارَ والناسَ الغادين والرائحين. بعدها سيتيه في تلك الشوارع العريضة المزدحمة ليتشمم روائح النّساء الجميلات، ويتفرّج على واجهات المغازات الأنيقة، ويقف طويلاً أمام معلقات الأفلام الجديدة. في الساعة الثالثة يَخْتار فيلماً جميلا يحكيه لأصدقائه بعد العطلة.

مشى باتجاه المدينة مصفراً لحْنا تعلمه للتّو، ويداه في جيبيه المثقوبين. في محطة الحافلات سمع الناس يتحدثون عن الإضراب. رآهم ملتفين ببعضهم بعضاً، وأنوفهم في الهواء مثل دجاج رصَدَ صقراً. قال: لا يهُمّ! سأمشي راجلاً فأنا لا أحبّ الزحام ولا أطيق دخان السجائر ولا صنان النساء السّمينات ولا أضواء المرور! في قلب المدينة شاهد عساكر كثيرين مدجّجين بالسلاح وشمّ رائحة غريبة ذكرته بمشاهد الحروب والمظاهرات التي يعرضها التلفزيون في نشرات الأخبار. أحسّ بهياج يشبه ذلك الذي يستبدّ به حين يتفرج على مباراة كرة القدم، وتمنى لو يحدث شيء يغيّرُ المعتاد، ويشغل الصغير والكبير.

يخيل إليه أن بلاده غريبة إلى حد ما لأنه لا يحدث فيها ما يحدث في غيرها، وهي دائماً هادئة صامتة، مستسلمة للقضاء والقدر، داخلةٌ في البحر كأنما لتلوذ به من عيون الحسّاد. تلوح صغيرة في خريطة العالم حتى أنه يصعب عليه أحياناً أن يراها حتى وهو قريب من السبورة. فجأة حدث هرج وصياح، وهزّ المدينة ذويٌّ عنيف. في رمشة عين اختفت الساحاتُ والمقاهي والنساء الجميلاتُ ومعلّقات السينما، ثم انتشر الدخان كثيفاً خانقاً. حين انقشع قليلاً، رأى رأس ماسح الأحذية أحمد فوق الصندوق. صرخ صرخة تألّمت لها كامل عروق جسده، استولى عليه رعبٌ لم يعرفه إلاّ عندما رأى مقص الختان. اخترقت ذهنه صورة أمه وهي تجري كالمهروسة في الشوارع. ظلت تلاحقه حتي أحسّ أن جسده يتهشم إلى شظايا ويتفتت في الدخان الأزرق الداكن. تحرك يروم الهروب، بعيداً، بعيداً. اصطدمت رجلاه بصندوق ماسح الأحذية فسقط على الإسفلت البارد. وحين نهض سمع صبية تبكي بالْتياع. أحسّ بنفسه خاملاً، مرتخي الأعضاء، تماماً كما تحدث له حين تصيبه الحمى في الشتاء. ثمة شجرة كانت قريبة. توجه إليها، يريد أن يُسند رأسه الصغير إلى جذعها وينام لينسى كُلّ ذلك الهول، غير أن الشجرة راحتْ تبتعد وتبتعد، ومعها بكاء الصبية. ثم أخذت الشجرةُ ترقص. وبعدها هوتْ معه في قاع بئر لا قرار لها. همد كل شيء من حوله هموداً تاماً.

□ □ □

طوال ليالي الأسبوع الذي سبق سفره إلى العاصمة، صحبة ابنته الصغيرة المريضة، ظلّ الطيب الدعبازي يتقلّب في الفراش وكأنه يتقلّب على الشوك. وحين تتصايح الديكة معلنة عن انبلاج الفجر، يدق قلبه بعنف، يتصلّب جسده، ويشعر كما لو أنه يُوشك أن يساق إلى المشنقة، تماماً مثل دابة لاحول لها ولا قوة! كم من مرة رغب في البوح بهواجسه ومخاوفه لزوجته أو لقريب أو صديق، غير أنه كان يحجم عن ذلك في اللحظة الأخيرة، ومن جديد يسقط في بئر الخوف المعتمة.

نعم هو خائف. خائف جداً. هذا شيءٌ طبيعي بالنسبة له، خصوصاً وأنه لم يسافر إلى العاصمة ولو مرة واحدة. دائما كانت تبدو له، من خلال حكايات العائدين منها، شبيهةً بغول هائل يلتهِمُ الناسَ لَيْلَ نهار ولا يشبع مطلقاً!

والطيب الدعبازي مقتنع بما يسّره الله له. يحب قريته الصغيرة بغبارها وفقرها وبيوتها والهضاب النحاسية اللون التي تحيط بها من كل الجوانب، وصياح الديكة عند الفجر، ورائحة الأرض حين تتهاطل الأمطار في أيلول، وصوت الجازية ابنة أخته لما تغني في العين: «جيبو لي خَالي ما نْمُوتْش آ. . » والتين الوحشي لما يحمرّ مثل خدود الصبايا في منتصف الصيف، وليالي السّمر في معاصر الزيتون شتاء. عندما يريد التوحّد بنفسه ليستريح من لغط صبيته الخمسة، يتربّع فوق واحدة من تلك الهضاب النحاسية اللون، ولساعات يظلّ يسرح نظره بعيداً بعيداً متأملاً الشّعاب والأودية والجبال البعيدة. حين ينزل إلى القرية عند الغروب، يشعر أنه سافر إلى أقصى الكون، وليس بحاجة إلى أن يُتْعب نفسه، ويخسر المال والصحّة في تلك الحافلات التي تطلق رائحة البنزين الكريهة.

يعلم الطيب الدعبازي علم اليقين أنه لو تحدث ببعض وساوسه ومخاوفه، أو عبّر عن تردده في الذهاب إلى العاصمة، لما رحمه حتى أقرب الناس إليه، ولضحك منه الكبير والصغير، وربما ابتكر البعض من أهل القرية حكايات عن جبنه ويظلون يتندّرون بها أياماً، بل أشهراً طويلة، وبها يمسحون كآبة العيش في البراري القاحلة. لذا هو يفضل أن يبقى الجمرة في الصدر، وألاّ يفاتح أحداً في الموضوع. ثم إنه مجبر على السفر على أية حال. ليس قدّامه أو وَراءه خيار. فابنته الصغيرة حليمة، التي تبلغ من العمر أحد عشر عاماً، أُصيبت منذ ما يزيد على الخمسة أشهر بمرض غريب احتار الجميع في أمره. نصحه العارفون بأن يعرضها على طبيب مختصّ بأقصى سرعة. وابن أخته الذي يعيش هناك منذ ما يزيد على العشرة أعوام، ويعرف المدينة مثلما يعرف هو شعاب القرية، بعث له برسالة ينصحه فيها بالقدوم حالاً، وأعلمه أنه يكفي أن يركب تاكسي حال وصوله إلى المحطة المركزية لكي يصل إلى باب البيت في ظرف ربع ساعة فقط! الأمرُ يبدو هيّناً إذَنْ، غير أن الطيب الدعبازي لا يستطيع أن يأكل أو يصلّي أو يجامع زوجته دون التفكير في تلك الرحلة الملعونة.

فجر الخميس وتحديداً في الساعة الرابعة صباحاً، ركب الطيب الدعبازي الحافلة الصفراء القديمة مصحوباً بابنته الصغيرة المريضة، وطوال الساعات الخمس التي استغرقتها الرحلة، نامت هي، أما هو فظل يقاوم وساوسه ومخاوفه. حاول أكثر من مرة أن يرفّه عن نفسه قليلا، كأنْ يتحدث إلى واحد من المسافرين مثلاً، غير أن لسانه بدا له ثقيلا كالحديد. هكذا ظلّ يتخبط في القلق والفزع حتى دخلت الحافلة العاصمة.

حال نزوله ركب الطيب الدعبازي وابنته الصغيرة المريضة تاكسي، وسلم السائق العنوان. انطلقت السيارة في شوارع عريضة. وعندما كان الطيب الدعبازي يتأمل البنايات العالية، وسيل البشر العارم، أحسّ أنه ارتكب خطأ فادحاً، وأنه كان عليه أن يمكث في قريته الوديعة الهادئة بعيداً عن هذا الجحيم. بغتة، توقف التاكسي. كان هناك أناس يتصايحون غاضبين، وعساكر شاهرين أسلحتهم. نزل السائق. تحدث قليلاً إلى عسكري. ثم عاد مضطرب الملامح:

- اسمع أنا ما نجّمش نهزّك لوين تحب. قال.

- علاشْ؟ سأل الطيب الدعبازي وريقه ناشف.

- أخاطر ثمة مظاهرة! قال السائق.

- مظاهرة؟ صرخ الطيب الدعبازي وهو يكاد يختنق.

- إيوه، مظاهرة. والشوارع كلّها مسكّرة، قال السائق.

- ولكن أنا ما نعرفش المدينة. وبنتي كيما انت تشوف مريضة! قال الطيب الدعبازي وهو يكاد ينفجر بالبكاء.

-واش تحْبني نعملّكْ. اللّهْ غالبْ. هذي مش غلطتي، قال السائق.

نزل الطيب الدعبازي وهو يعوم في العرق البارد. شدّ على يد ابنته بقوة وظل يدير بصره هنا وهناك باحثاً عما يمكن أن يغيثه وينقذه من ذلك الخطر الداهم الذي طالما حدثه به قلبه منذ أن قرر السفر.

آ. هناك على الرصيف المقابل ماسح أحذية عجوز يبدو طيّبا وخدوماً. واضح أنه ليس من أولاد الحيطان الأشرار الذين يبيعونك ويشترونك وأنت ترى بعينيك وتسمع بأذنيك. ومن المؤكد أن يكون واحداً من أولئك الذين أجبرهم شظف العيش في قراهم النائية على الهجرة إلى العاصمة. سيسأله إذَنْ. وهو على يقين تام أنه لن يتوانى عن مساعدته وإرشاده.

تأهب الطيب الدعبازي لقطع الشارع شاداً بقوة على يد ابنته الصغيرة المريضة. وفجأة داهمت الشارع جموع غفيرة كانت تصيح وتهتف: «الخبز. الحرية. الخبز. الحرية». في الحين بدأ الرصاص يلعلع من جميع الاتجاهات، ولم يعد هو يري شيئاً بسبب الدخان الكثيف، وذلك السيل البشري القادم باتجاهه مثل ليل الشتاء. أراد أن يتقهقر إلى الوراء.

في ذات اللحظة عصفت ريح هوجاء فصلتْهُ عن ابنته وحملتْه بعيداً. صرخ بأعلى صوته «حليمة. حليمة. مَا تْخافيش» غير أن صوته تلاشى في دوي العاصفة مثلما تتلاشى قشةٌ في البحر. ظلت الريح العاتية تجرفه بعنف حتى لم يعد يرى غير ليل أدهم شرس. ظل يبتعد. ثم انعدم من حوله كل شيء!

□ □ □

الحالة التي يعيشها الشعب هذه الأيام تبدو مطابقة تماماً لذلك الكابوس المرعب الذي يرويه أحد أبطال رائعة جان جنيه: "كوريل بريست" الجلاّد يُسَدِّدُ الطعنة تلو الطعنة للضحية البريئة المسكينة. والضحية البريئة المسكينة تتخبّط في الدم، غير أنها لا تستغيث ولا تحتج، بل تساعد القاتل وتدلّه على المواضع التي عليه أن يطعنها بسكينه!

□ □ □

كانوا أربعة، أو ثمانية، أو عشرة، أو ربما أكثر من ذلك. كانوا قتلة. التقوا في مفترق طرق عند سفح جبل أجرد كأنه ركام هائل من الرماد. لاشيء فيه غير الصخر الناتئ، والغربان ووحشة تبدو أنها تسكنه منذ أمد طويل. كان نور شمس عجوز ينتشر ثقيلاً لزجاً مثل القيح. وفي الهواء المغبّر، ثمة ما يوحي بأنه لا معنى للحياة وللزمن في مثل ذلك المكان المهجور الغريب! كانت أجسادهم تنضح عرقاً. وفي عيونهم بريق المتعطشين إلى الدم. لا أحد حيّاهُ ودونما أية إشارة من أحدهم، كوّنوا حلقة، وقفوا وأيديهم على زناد أسلحتهم. مرّ وقت لم ينطق خلاله أحد بكلمة. لا شيء غير أنفاس تتردّد في أجساد صلبة متوثبة إلى القتل في أية لحظة.

فجأة بصق أحدهم على الأرض متوتّراً ثم قال، ولعابه يتطاير: «لم أتركْ شيئاً في طريقي. الدجاج. الأرانب. العباد. أنهيت عجوزاً تحتضر. فجرت رأس رجل يحرث. طفلا يبكي في مهده. فتى كان يستمني وسط الزرع. وصبية كانت تغتسل في الوادي. لم أترك شيئا حيّاً في طريقي!». بصق ثانية بعنف وتوتر ثم صمت.

وقال ثان، وكان أصلع تماماً بشارب كث يلامس أذنيه، وبقميص جلدي ينفتح على صدر عريض غزير الشعر: «أنا أيضاً لم أترك شيئاً يتحرك في طريقي. أنهيت قرية بكاملها في وقت قصير، والذين تمكنوا من الهرب لاحقتهم في الأودية، وفي المغاور والغابات وفجّرت أدمغتهم. ولا كائن فَلَتَ مني!». رقص شاربه كطائر يتأهب للطيران، ثم صمت.

لَحَسَ ثالث شفتيه الغليظتين بلسانه. ابتسم ابتسامة غامضة ثم قال، وعيناه الصغيرتان الحادّتان تتراقصان بانفعال: «كانوا أكثر من ألف. وكانوا يحتفلون بزفاف أحدهم وسط زغاريد النساء وصهيل الخيول وأنغام المزامير ودوي الطبول. تركتهم حتى استبدت النشوة بأجسادهم ونفوسهم، ثم أطلقت النار فكانت العروس أول من أصيب. بعد ذلك بوقت قصير، كانوا كلهم أمامي يعانقون بعضهم بعضاً وسط بحيرة من الدم»، قهقه قهقهة قصيرة شبيهة بمأماة جدي، ثم صمت.

وقال رابع أعور، يرتدي قشابية من الصّوف الخشن، وله لحية شعثاء تنزل حتى الصّدر: «وأمّا أنا فقد غلّقت أبواب المدينة وداهمتهم وهم نيام. وما أن طلعت الشمسُ حتى كنتُ قد أفنيتُهم جميعاً، بنسائهم وأولادهم، بدوابّهم وأرزاقهم، بطيّبهم وخبيثهم. وكم كان رائعاً أن أتمشّى في الشوارع المقفرة وحيداً، وأشمّ روائح أجسادهم الكريهة وهي تعفن تحت الشمس!».

ظلّ الآخرون صامتين صمت الذئاب التي أشْبعت رغابتها. مرّ وقت طويل دونما كلمة. ولا أحد منهم تحرك حتى ولو قيد أنملة، لكأنهم تماثيل غليظة قدّت من صخور ذلك الجبل الرمادي العالي. وفجأة نطق أحدهم بصوت كأنه ليس صوته، صوت شبيه بصوت من يتكلم من داخل بئر أو برميل، وقال: «أمّا الآن لفم يتبق غير هذا الجبل!».

صعّدوا في الجبل. وشرعوا يطلقون النار على الغربان. على الثعابين. على السلاحف، وحتى على النباتات الصغيرة، والحشرات التي تعيش في شقوق الصخور!

ساعة واحدة مضت. بعدها لم يعد في الجبل غير الحجر الرمادي الصلد، وتلك الوحشة القديمة القائمة.

عادوا إلى مكانهم الأول. ودون أية إشارة من أحدهم، كوّنوا حلقة، ثم وقفوا وأيديهم على زناد أسلحتهم.

مرّ وقت طويل دونما حركة أو كلمة.

بعدئذ نطق أحدهم بضربات سكين على فكيه وعلى صدره وقال بصوت كأنه فحيح ثعبان هائج «والآن لم يبق أحد غيرنا!»

تراقصت أعينهم حمراء متوتوة شرسة، ثم ضغطوا جميعا على زناد أسلحتهم. تهاوت جثثهم على الأرض.

طنّ الذباب، ونعق غراب كان جريحا فوق صخرة.

وراحت الشمس تدبّ باتجاه الغرب بطيئة كئيبة مثل عجوز مقعدة ومسلولة.

□ □ □

في سواد هذه الأيام، ليس هناك شخص يواسيني غير عمّار. كل يوم يأتيني. نشرب، نقرأ الشعر، يروي كلٌّ واحد منا للآخر حكايات من قرانا البعيدة، تضحكنا وتسلينا. وذلك اليوم بدَا لي أنه انحنى قليلاً، وأنّ الصلع يلتهم نصف رأسه. آه. نحن نشيخ بسرعة في هذا الوطن المرّ كالمقصلة!

□ □ □

لا ربيع. عواصف صفراء هبّت على المدينة وملأتْها بالتراب. والبارحة حلمت أن الصحراء اكتسحتْ كل شيء، التهمت البحر، وفتكت بطيور النورس هناك على شاطئ «سيدي بو سعيد».

□ □ □

ما قاله لي «الأستاذ» بشأن الملتحين يتأكّد يوماً بعد يوم. واليوم ذكر عمّار أنهم بدأوا يكتسحون الجامعة والمعاهد الثانوية، وفي عطلة نهاية الأسبوع، يأخذون التلاميذ الصغار إلى البرية قصد إبعادهم عن «شرور المدينة» و«أمراض الحضارة العصرية». يبدو أن السلط

تغضّ الطرف عن كل هذا، بل إن بعض رموزها يباركون هذا الاتجاه الجديد، ويدعمونه ماديًا ومعنويا.

الفتاة الجميلة تنشر الغسيل على السطح المقابل وأنا أتهيّج.

□ □ □

فجأة مات كل شيء: الشارع الذي أسكنه منذ ما يزيد على العشر سنوات، أشجار «باب البحر»، أغاني صَليحَة، والحدائقُ التي أهيم فيها هرباً من صخب المدينة.

كل شيء مات. والعم سليمان الذي يسقيني في بار «الكانيجو» كان جثة ملقاة على الرصيف يرتع فيها الذباب. هلْ مُتُّ أنا أيضا؟ تساءلتُ وأنا أتحسّس نفسي. ولمّا لم أتمكّن من العثور على أيّ دليل لإثبات ذلك، صعدتُ إلى الطابق السادس في العمارة التي أسكنها. فتحتُ بابَ شقتي بهدوء. كانت زينب ممددة خضراء صفراء، على سرير مغبّر بدا كأنه متروك منذ عهد الفراعنة. صفعتني رائحة عفونة حادة، فرُحْتُ أتقيأ حتى فرغ بطني تماماً. عندئذ تحقّقت أني لم أمُتْ بعد، ذلك أن الموتى، استناداً إلى ما أملكه من معلومات جد دقيقة في هذا الشأن، لا يتقيأون ولا يتغوّطون.

بعد أن استعدتُ شيئاً من حيويتي، رحتُ أضربُ زينب بشدة لا مثيلَ لهَا. أغرس أظافري في لحمها المهترئ، غير أنها لم تأبهْ بي، ولم ترفعْ صوتَها بالصراخ أو بالاحتجاج. استرحتُ ثانية ثم سحبتُها خارج الفراش وعُدْتُ أضربها وأمزّق لحْمَها، وحين أيْقنتُ أن ذلك لن يُحقق لي النشوةَ المرتجاةَ، قلتُ لا فائدة، الشّاةُ لا يضرّها سلْخُها بعد ذبْحهَا، ثم وقفتُ عند النافذة العريضة وأنا ألهثُ وأمسحُ العرق الباردَ المتصبّب بغزارة من جسدي. كان الشارعُ فارغاً تماماً، إلاّ من جُثَث الموتى. بعد ساعات طويلة برز سكران عجوز كان يتحسّس طريقه مثل الأعمى، ويغنّي بصوت واهن: «أنا من ضيّع في الأوهام عمره».

– عليكَ أنْ تستحي! صرختُ فيه بقوّة، حتى ردّدت المدينةُ بأسرها أصداءَ صوتي.

رفع رأسه الأصلع الضخم. حدجني بنظرة قاسية، ثم أطلق قهقهة عالية، ارتجّتْ لها البناية، وعاد يغني بين الجثث:

يا نَخْلتين في العَلاَلِي   يــا بلحْهُــم دوَا ...

ظللت أرقبَ الموت وهو يحصد الكائنات والأشياء، حتى تمدد الفجرُ على الأفق وهو يلهث مَادّاً لساناً متقيّحاً مثل كلب يحتضر. بعدها ألقيْتُ بنفسي من النافذة. ثم، وأنا في الهواء، سمعتُ زينب تقول لي:

- كان عليك أن تفعل هذا من زمان!

ثم رحت أموت فتاتاً فتاتاً على الرصيف البارد!

□ □ □

في وقت غير محدد، أيقظتني طَرَقَاتٌ عنيفة على الباب. فكرت أنه ربما يكون «الأستاذ» جاء ليروي لي كعادته بعضاً من مغامراته الوهمية مع النساء في أضرحة الأولياء أيام الجمعة، أو ليُسمعني فصلاً من روايته الطويلة عن مصائب الفئران في خرائب المدينة وأنفاقها. في الحال هرعتُ إلى الباب، وأنا عار. حالما فتحته وجدت أمامي كتيبةً من الجنود المدجّجين بالسلاح يقودهم ضابط. وبجرأة لم أتعوّدْ عليها من قبلُ، صحتُ فيهم:

- ماذا تريدون؟

- لدينا أمرٌ بإعدامك، هذا النهار، وقد صدرت الأوامر بحملك فوراً إلى هناك! أجاب الضابط ورشاشات الجنود مصوبّة إلى قلبي.

- هل يمكن أن أرتدي ثيابي؟ سألتهم.

- عجّل وإلا فإنّ العقاب سوف يكون أشد! زمجر الضابط وهو يرتجف من الغيظ.

عدت إلى غرفتي. تمددت على الفراش، ورحتُ أفكر في أمر الجنود. وعندما أيقنْتُ أنني لن أفلح البتة في العثور على حيلة للخلاص من الأذى الذي ينتظرني، تعطرت، ولبست أحسنَ ما عندي، ثم خرجتُ وأنا أقولُ مواسياً نفسي: «أقْدَسُ موت، موتُ الشعراء!».

أمام الباب لم أعثر على أحد. كان الشارعُ فارغاً، والمدينة بأسْرها بدتْ خالية إلاّ من أشجار الخريف، وتماثيل الرئيس الديكارتي المنتخب بالإجماع مدَى الحياة، والأرصفة الحزينة المحفورة ورائحة الجنود المدجّجين بالرشاشات. طوفت في «باب البحر» بحثاً عن

الأصدقاء، الجدد والقدامى، غير أني لم أعثر على أحد منهُم. حتى بار «الزنوج» المفتوحُ عادةً على مدار الأربع والعشرين ساعة كان مقفلاً، وأمام الباب لافتةٌ سوداء كُتبَ عليها بالأبيض ما يلي: «أغلق البارُ حداداً على وفاة المغفور له ... » وبما أن اسم المعنيَ بالأمر لم يكن واضحاً بما فيه الكفاية، فإني حَرَزْت أنه من المحتمل أن يكون ذلك الشاعر الذي تفتنه الأطلال، ولا تأتيه القريحة إلا عنْدما يكون واقفاً وسط الخَراب.

توجهت إلى المدينة العتيقة. رحتُ أضرب على باب بيت «الأستاذ» بشدة، وأنا أقول: «إنه الوحيد الذي بإمكانه أن يُوجد لي تفاسيرَ منطقيةً لكل هذه الألغاز المحيّرة». وبعد لأيٍ، أخرجتْ عجوزٌ شمطاءُ رأسها من كُوّة صغيرة، وصاحت بي:

- ماذا تريد؟

- أين «الأستاذ؟» صحتُ أنا أيضاً.

- لقد أخذوه قبل ساعة! قالت.

آ. أكيدٌ أنّهم قرّروا إعدامه مكَاني!

سرتُ باتجاه المكان الذي أخذوه إليه. حلّقتْ طائراتٌ عسكرية فوق رأسي. سمعتُ قصفاً بعيداً، نساء ينُحْنَ كما في الجنائز الكبيرة، أطفالاً يبكون كما في سنوات القحط والمجاعَات. حالما وصلتُ إلى هُناك، رأيتُ جثثاً تتدلّى من الأشجار المحيطة بالساحة، وكان هناك واحدٌ أعرج، يلبس جبةً مثل جبائب الدراويش، يصيح ملوّحاً بسكين ملطخة بالدم: «أنا الحقّ!».

ثم طلع الصباح قاتماً بشعاً كالخيانة.

□ □ □

اشتدّ عليّ أذاهم، حتى أني أصبحتُ أخْشَى الخروجَ من الجُحْر الذي آويتُ إليه منذ أمد بعيد. غير أن ذلك الصّحفي الفاشلَ، الذي يعشق القفز من حبل إلَى آخر، شرع يهاجمنيَ يومياً، ويقول إني أكره الشعب الذي ربّاني والوطنَ الذي أنتمي إليه. أما ذلك الشاعر الذي يعشق الأطلال والخرائبَ، ويبكي بدموع التماسيح في الأعياد الوطنية، فقد حرّض عليّ العامة وأهلَ السلطة، وزعم أنني أغرّر بالأرامل والمطلقات وقارئات الكفّ، وألوّثُ شرفهنّ في المقابر والحدائق المهجورة.

كنتُ ممدّداً في جُحري، أقرأ كتاب «حدث أبو هريرة قال»، لما داهمتني جماعةٌ وضربتني ضرباً مبرّحا، حتى أني لازمتُ الفراشَ لما يزيد على الشّهرين . ولما اشتكيتُ حالي للسُّلط العُليا، قال لي ضابطُ شرطة، ينْبتُ على أنفه ثُؤلولٌ ضخم: «تْستاهلْ، لأننا نَصَحناك أكثر من مرّة بأن تسُدّ فَمَك!».

وبسبب ما لحقني من ضيْم في تلك البلاد، قررتُ الاعتصامَ بجبلٍ قصيّ. وفي ليلة شتاء اشتدّ بردُها، وتكاثفتْ عتَمتُها، حملْتُ ما أحبُّ منَ الأسفار والكتب وتسلّلت من المدينَة على أطراف أصابعي، ثم صعدتُ الجبلَ وآويت إلى كهفٍ لم أكُن أسمعُ منه غيرَ صوت الريح في الوهاد السحيقة.

كنتُ أغطّ في نوم عميق، هناك في الكهف، لما بدأ الجبلُ يهتزُّ كأنه مركَبٌ في قلب عاصفة هوجَاء. جريتُ مذْعوراً، أستطلعُ الخبرَ، فإذا نيرانٌ هائلة تلتهم الغابة، وسحبٌ من الدخان الكثيف تحجب الآفاق، والدّنيا كلُّها في حالة القنوط والهلَع الشديد. بينما أنا كذلك أرقب مبهُوتاً ما يحدُث أمامي، طلع عليّ جنودٌ مدجّجين بالسلاح، تصحبهم كلابٌ ألمانية متوترةٌ، يتقدمهم ضابطُ الشرطة ذو الثُّؤلول البشع، والصحافيُّ الفاشل، وشاعرُ الأطلال، ونقادٌ صلعٌ كانوا في زمن مضى قد طالبوا بمقاضاتي ونفيي إلى الصحراء. ودون أن يتلفّظوا بكلمة، هجمُوا عليّ. قيّدوا رجلي. ثم كمّموا فمي. شدّوني إلى سنْديَانَة عجُوز، غليظة الجَذع، عظيمة الفروع. بعد ذلك شرَع شاعرُ الخرائب يتْلُو قرارَ الإدَانةَ بصوت غاضبَ، بينما الآخرونَ ينصتون إليه في خشوع تامٍّ، وكأنهم ينصتون إلى خطبة صلاة. وحال انْتهائه من ذلك أعطى ضابطُ الشرطة الأمرَ للجنود بإطلاق النار. في ذات اللحظة صوّب فيها هؤلاء بنادقُهم إلى قلبي، حدث اضطرابٌ هائل في الكون. ثم هبّت ريحٌ لها رائحة اليَاسمين رفعتني إلى أعلى علّيين في رمْشة عيْن! . رحتُ أرتفعُ وأرتفع، وتحتي أولئك القومُ بشعينَ مثل فئران في مصيدة. بعدها سمعتُ ملاكَ الشّعْر الأخضر يهْمس لي بكلام عذب لم أسمع له من قبل مثيلاً. وكان صوته ناعماً كورَق الورْد.

عندئذ هطلت دموعي، فما عرفتُ حتى تلك الحظة بكاءً ألذّ من ذلك البكاء.



ليل «الهيجان والألغاز» المحفوف بالمخاطر يبدو بلا نهاية. ساهراً على شوك السّهاد في انتظار الذئاب.

□ □ □

«أن نكون رابطيّ الجأش، يعني أن نتجمدَ بعيون لها جمال عيني نرْجس. لقد أحْصينا كلّ الألـم الذي مـن المحتمل أن يُعاينه الجلاد عـلى جسدنا، ثم بقلب واجف، نمضي ونواجهه».

رنيه شار

□ □ □

جاؤوني عند انبلاج فجر يوم الجمعة. كانوا أربعة أشدّاء غلاظاً بشوارب أولئك الفحول الذين لا يتحمّلون العيش خارج أقبية التعذيب. قلَبُوا الشقّة رأساً على عقب، ثم حملوني في سيارة الأمن السوداء إلى دائرة أمن الدولة. وحال وصولنا إلى هنا، رموني دونما كلمة في زنزانة أرعبتني منذ النظرة الأولى: جدران سوداء حَفَر عليها جميعُ من مرّوا من هناك شيئاً من خواطرهم. سطل بمثابة المرحاض، أغطية تقطر وسخاً، رائحة تصدّع الرأس وتثقل القلب. وطوال الأيام والليالي الثلاث الأولى، ظللتُ أقاوم الجرذان والقمل والروائح النتنة وعواصف الخوف التي كانت تلقي بي بين الحين والحين في مهاوي الألم واليأس.

صباح الإثنين، في الساعة التاسعة تحديداً، فتحوا الباب وقادوني إلى ضابط أنيق في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره. ودون أن يرفع رأسه، أشار عليّ بالجلوس، واستمر يقلب في أوراق وملفات كانت مكدّسة أمامه. بعد حوالي عشر دقائق، لم أكن أسمع خلالها غير خشخشة الأوراق ودقات قلبي المتسارعة. رفع الضابط رأسه وقال لي:

- هل تعلم لماذا أوقفت؟

- لا. أبداً! قلت.

حدجني بنظرة قاسية، ثمّ قال:

- أنتم ترتكبون الإثم في حقّ الوطن والشعب، ثمّ تحاولون أن تُوحُوا للناس أنكم

أبرياء! أنا أنصحك بأن تعترف وإلاّ فإنّ العاقبة سوف تكون وخيمة!

- أعترف بماذا ؟ قلت أنا بلهجة استنكار واضحة.

- اعترف بما اقترف قلمُك! قال الضابط الأنيق ثم أشعل سيجارة.

- لم أفهم ما تقول! قلت أنا.

- حسناً! قال الضابط الأنيق، ثمّ أخرج من درج مكتبه المجلة البيروتيّة التي نشرت فيها قصائدي قبل أسبوع، وضعها أمامي، ثم قال بشيء من الحدّة:

- هل يمكنك أن تقول لي مَنْ كتب هذا ؟!

- أنا طبعاً.

- وهل يمكنك أيضاً أن تجيبني بوضوح تامّ على السؤال التالي: ماذا تعني بهذه النصوص الشعرية؟!

- إنّها هلْوَسات!

- هلوسات؟ صرخ الضابط وشفتاه ترتجفان.

- نعم، هلوسات.

- اسمعْ جيّداً: نحن لسنا أغبياء، نحن أيضا نعرف قراءة ما بين السطور، لذا أنصحك بأن تكف عن اللف والدوران وتجيبني عن سؤالي باختصار ووضوح! قال الضابط.

- لقد قلت لك إنّها مجرد هَلْوَسَات! قلت أنا.

شحب وجه الضابط، تراجع إلى الوراء، أطفأ سيجارته رغم أنّها كانت لا تزال في النصف، ثم قال:

- اسْمَعْ: نحن نتابع حركاتك وسكناتك منذ زمن بعيد. وقد قرأنا كلّ ما نشرت، ولنا أدلّة قاطعة على أن نصوصك التي نشرتها في هذه المجلة البيروتية تساند الاضطرابات التي قامت بها النقابات، وتسخر من رئيس الدّولة ومن أعضاء الحكومة، لذا من الأفضل لك أن تجيب على السؤال الآنف الذكر بصراحة وبكامل الوضوح المطلوب.

فجأة اختفى الضابط، ومكانه انتصب أمامي جُمْعة بقامته الفارعة ووجهه الذي ينزّ خيانة وعفونة. بدأت أرجف:

- أعتقد أني أجبت على السؤال بكامل الصراحة والوضوح المطلوبين.

- واضح أنك لا تريد أن تفهم بالتي هي أحسن! زمجر الضابط ثم صفّق بيديه، وفي الحين كان زوّار الفجر الأربعة أمامي.

- خذوه! صاح الضابط وهو يشيح عني بوجهه.

قادني الأربعة إلى غرفة عارية تماماً، لها رائحة المسالخ المهملة، ثم أحاطوا بي وراحوا ينظرون إليّ بحقد، تماماً كما لو كنت حشرة لا تستحقّ سوى السّحق. بعدها هجموا علي وشرعُوا يرفسونني بأحذيتهم الغليظة وهم يصيحون، وينبحون، ويشتمون، ويلعنون أصلي وقبيلتي والأمّ التي أنجبتني والأب الذي ربّاني. ظلّوا كذلك حتّى أغمي عليّ. ولما أفقت، كانت الغرفة الرمادية فارغةً وملطخة بالدم. كانت تلك الرائحة، رائحة المسالخ المتروكة، أشدّ حدة من ذي قبل. أما جسدي فكان مليئاً بالرضوض والكدمات والجراح.

أربعة أيام بلياليها لم أرَ لهم وجهاً. فقط مرّتين في اليوم، كان الحارس يرمي لي من فتحة الباب الحديديّ السميك بساندويتش يابس سرعان ما أتقيأه بسبب تلك الروائح الكريهة التي تحاصرني من كل جانب دهماء ثقيلة مثل جدران الزنزانة. ومع مرور الوقت بدأت أشعر شيئاً فشيئاً أنني أتحلّل وأتعفن. ثم لم ألبث أن اعتراني إحساسٌ مقزز بأنّي لم أعدْ آدمياً، بل حشرةً بشعة شبيهة بتلك الحشرات التي تولد وتنمو في سراديب البنايات الأسمنتية الباردة. في خضم تلك الآلام التي سلبت مني إنسانيتي وجسارتي وكل رغبة في المقاومة أو التحدي، فكرتُ في روايتي «المسخ» و«المحاكمة» لفرانز كافكا، أكثر مما فكرت في أي شيء آخر، وبدا لي أنني أدرك معانيهما لأول مرة رغم تعدّد قراءاتي لهما.

صباح السبت، قادوني من جديد إلى الضابط الأنيق. ظلّ يقلب كعادته في الملفات المكومة أمامه لبضع دقائق، ثم رفع رأسه وواجهني بوجه أقل شراسة من المرّة الأولى:

- اسمعْ، نحن لا نرغب في أن نضيع المزيد من الوقت معك، أمامك الآن حلان لا خيار لك بينهما: إما أن تحاكم بعامين سجناً بتهمة الاعتداء على كرامة رئيس الدولة وأعضاء الحكومة، وإما أن تمضي هذه الورقة وتخرج الآن! قال ثمّ وضع الورقة أمامي.

قرأت: «ألتزم بألاّ أنشر في المستقبل أي إنتاج أدبي خارج البلاد».

تلألأ بحر «سيدي بو سعيد» في ذاكرتي. حلّقت طيور النورس على خطّ الأفق البحري حيث اندلعتْ نيرانُ الغروب وتموجت حقول الزّيتون. همْهَمت الصبيةُ العاشقة في العين بتلك الأغنية التي أحبّ، وذبتُ أنا في الضوء الذي لم أره منذَ أسبوع. لا فائدة.

تناولت القلم وأمضيت دون أن أتفوه بكلمة.

هل كنت جباناً حقّاً؟ ولكن هل للشجاعة معنى في وطن تحكمه الوحوش الضّارية؟

□ □ □

مضي الآن شهران على أسبوع الاعتقال التّعس، ومع ذلك يمكن القول أني لا زلتُ أعيش أقصى حالات التوتّر والانفعال. فبالأمس مثلا، كسرتُ، حال نهوضي من النوم، صحناً وكأسين، ودلقْتُ القهوة على بنطلوني الأبيض. في الساعة الواحدة بالضبط حرقت قميصي المفضل بسيجارة. عند الظهيرة، ظللتُ ساعةً أفتّش عن ورقة كنت قد كتبت عليها بداية قصيدة، والحال، أنّها كانت أمامي على الطاولة، وليس هناك شيء يمكن أن يخفيها عني. في المساء احترق عشائي، فاكتفيتُ بعلبة سردين وبعض البصل والفلفل. في آخر السّهرة، وبعد أن شربت زجاجتي نبيذ أحمر، وجدتني أصرخ كالمجنون في وجه عمّار، وأقذفه بشتائم مقذعة. علي أن أهربَ من هذه المدينة حيناً، وإلاّ فإن دماغي سينفجر في لحظة من اللحظات.

□ □ □

وصلتُ قريتي قبلَ الغروب بقليل، اختنقتْ أمي بالبكاء حالما رأتْني، وراحتْ تتحسّسني وتتشمّمني كما لو أنها تريد أن تتأكد أني لستُ شبحاً ولا طيفاً من أطياف أحلامها الغزيرة.

لم تمض نصف ساعة فقط على وصولي حتى كان أهلي يحيطون بي ويغمرونني بالحب والقبلات. عمتي فاطمة التي جاوزت الثمانين، غير أنها تبدو أصغر من ذلك بكثير، بكتْ بحرقة وهي تحتضنني، ثم قالت: «يبدو أن قلبك كبر ولم تعد تفكّر فينا. أنسيتَ تلك الليالي المقمرة عندما كنت تسند رأسك إلى حجري، وأروي أنا لك حكايات عن الأغوال والسلاطين. إيه. الزمن يجري بسرعة الريح يا ولدي. وها أنت الآن رجل شابَ رأسك!».

سهرت معهم حتى انبلاح الفجر. تحدثوا عن الجدب الذي يضرب القرية منذ ما يزيد

علي نصف العام، وعن المسافات الطويلة التي يقطعونها يوميا لجلب الماء الصالح للشرب، وعن الفتى شعبان الذي سقط في البئر الصيف الماضي، وعن رجال الحرس الذين يأتون لترويع الناس مرة أو مرتين في الأسبوع. ثم نسوا الجفاف والألم، ارتفعت ضحكاتهم، وأشرقت وجوههم على أضواء المصابيح الشاحبة لما شرع خالي الخاتمي يروي بعضاً من نوادره وطرائفه الشهيرة. هناك في الركن، كانت عمتي فاطمة تردد بين الحين والآخر: «الله يزهينا، ويبقي علينا الستر، ويبعد علينا الهم والكسادا».

□ □ □

لأبداً بين أشجار الدّفلى، كنت أراقبُ النساءَ وهن يملأن جرارهنّ ويروين الحكايات والطرائف، ويتضاحكن ويتغامزن ويمضغن اللبان. وبينما أنا هكذا فاغرَ الفم، وعيناي نصف مغمضتين، داهمتني فاطمة بنت سعيد وصاحت في:

- ماذا تفعل هنا أيها الشيطان الأزرق؟

حاولت الإفلات منها، غير أنها أمسكت بي وجرتني حتى العيْن، ثم ألقت بي وسط حلقة النساء اللائي كن يتضاحكن عالياً.

- ارْفعِي كدْرُونه حتى نرى ما عنده!، قالت الصالحة العاقر لفاطمة بنت سعيد.

رحت أتخبط وأتلوّى شاداً علي كدروني بكلتا يدي، غير أن فاطمة بنت سعيد وضعت رأسي بين فخذيها، وبيسراها أمسكت بي حتى لم أعد قادراً على الحراك. ثم بهدوء وأناة، راحت يمناها ترفع كدروني حتى أوصلته إلى الحزام. للحظات، ظللن صامتات يتأملن أسفلي متورّدات الخدود، وعيونهن مبللات بالرغبة، ثم انفجرن ضاحكات. وقالت الصالحة العاقر: هذه ثمرة صغيرة جافة لا تفي بالحاجة يا بنات.

غير أن خديجة زوجة سالم الأحمر همست وكأنها تخاطب نفسها:

- ولكن حتى الثمرة الصغيرة الجافة لها حلاوتها أيضا!

ردّت عليها الصالحة العاقر وهي تهزّ كفها بتؤدة.

- أما أنا فلا أبتغيه إلاّ حين يكون في حجم ما عند البغل!

وخاطبتها سالمة زوجة الأزهر الأعرج وهي تغمز للنساء من حولها:

- وهل عند زوجك النحيف مثل هذا الشيء؟

نظرت إليها الصالحة العاقر بتحدّ، ثم قالت وهي تهزّ كفلها كما لو أنها تستعدُّ للرقص:

- الله أنعم عليه بشيء، لو ذُقْته لرأيت الجنة!

وفي الحين ضجّت النساء بالضحك من جديد، وازددن هيجاناً واغتلاماً. أمّا أنا فقد أحسست بالنار تلتهبُ تحتي. وخلال تلك اللحظات اختلط ارتباكي وخجلي بالرغبة في البقاء هكذا، رأسي بين فخذي فاطمة بنت سعيد، الحارّين، ونصفي الأسفل لتلك العيون السوداء الضاجّة بالحب والرغبة. ووسط الضحكات والهمسات والمداعبات، سَرَتْ في عروقي حرارة لذيذة، فارتخى جسدي ارتخاء تاماً، وتخثر دماغي، وشعرت برغبة هي أن أمدّ يدي وأداعب كل تلك الأرجل الحافية، والأكفال العريضة. بغتة سمعت الصالحة العاقر تصيح:

- أطلقيه ابن الفاجرة. ثمرته الصغيرة الجَافَّة تتحرّك!

أطلقتني فاطمة بنت سعيد فجريتُ وورائي ضحكاتُ النساء. هناك في عمق الوادي، تمددت على الرمل البارد بين أشجار الدفلى، ثم أغمضت عيني مستمتعاً بتلك اللذة التي خلفتها نظراتهن وهمساتهن ولمساتهن في جسدي. مرّتْ الساعاتُ وأنا هكذا ممددٌ على بطني لا أتحرك. وعندما بدأت الدنيا تُعْتمُ من حولي، وامتلأ الفضاء بأصوات الرعاة، انقلبت على ظهري، ورحت أتأمل النجومَ التي أخذت تتلامع في السماء المترامية الأطراف. عندئذ تمنيت لو تأتيني فاطمة بنت سعيد محتميةً بالعتمة، وتتمدّد بجانبي، وأمدّ أنا يدي وأشرع في تعريتها بأناة وهدوء، تماماً مثلما فعلتْ هي معي في العيْن أمام النساء، ثم أضمّها إلى صدري، وأدسّ رأسي بين نهديها، وأقبل تلك الشامة التي في حجم حبة الزيتون هناك في جيدها الناعم الأبيض.

أغرق في ذكريات الطفولة الجميلة وأنسى كلَّ شيء. هادئٌ هذه الأيام أنَا. بل أقدر أن أقول إني سعيد، وهذا الآذان الذي يأتيني خافتاً خجولاً، بينما الشمس تغرب، يعيد لي بهاءَ سورةِ الرحمان.

□ □ □

بمجرد صعودي إلى سيارة الأجرة، التي نقلتني من قريتي إلى العاصمة. انتبهتُ إلى أن السائق درس معي في المعهد الثانوي بمدينة قَافْ. أذكر أنه كان كسولا وخبيثاً ولصاً أيضاً. طول الرحلة لم نتبادل ولو كلمة واحدة. المسافرون الآخرون ظلوا صامتين أيضاً. وكانوا يدخنون، أذهانهم شاردة، وعيونهم زائغة، كما لو أنهم ذاهبون لجنازة.

□ □ □

منذ سنوات لم يغْوني شيطانُ الشّعر كما أغواني هذه الأيام. إنني أكتب يوميّاً، خصوصاً في الليل، حين تسكن المدينة سكوناً تاماً.
والآن أنا أكتب، بينما ترتفع في الشوارع أصواتُ الصباح الأولى. بعد قليل سأذهب إلى «سيدي بو سعيد»، أشرب قهوتي وأنا أتأمل النهارَ يطلعُ على جبْهَةِ البحر.

□ □ □

أنا وعمّار نحاول أن نسترجع الذكريات السعيدة لأيام زمان كما يقال. كل ليلة نتيه في بارات المدينة بحثاً عن ألَقِ لحظات لقائنا الأول، ذات يوم تحت رذاذ مطر الخريف الدافئ. وعادة ما يكون عبد الفتاحَ حاضراً معنا، لأن السهر بدونه لا يحْلُو أبداً. عمّار هو أيضا يعيش حالة من الفيض والإشراق. والبارحة قرأ لي في بار «الكاينجو» قصائد جديدة من أجمل ما سمعت في هذه البلاد منذ عدة سنوات.

□ □ □

الذين جاؤوا القرية بعد يوم من وقوع الواقعة قالو إن ما رأوْه كان شبيهاً بمشهد من مشاهد يوم الحشر. المنازل فوق المنازل، أو هي أكوام من الرمل والحجارة. الأشجار رماد أوْ خشب محروق. الأودية مطموسة. المسجد بلا صومعة. المدرسة أضحت خربة للجرذان والعفاريت. المرتفعات تحولت إلى سهول والسهول إلى مرتفعات. جثث الدواب إلى

جانب جثث العباد. جثث سوداء منتفخة حولها ذباب أزرق ضخم، الواحدة منها في حجم قبضة اليد. حتى السماء كان لها لون خاص، لون النحاس القديم. وقالوا إنهم أمضوا وقتاً طويلاً وهُمْ شبه غائبين عن الدنيا لهَوْل ما شاهدوا، وإن بغالهم عضّت التراب من الألم، وإنهم لما تمكنُوا من التمييز بين الواقع والخيال عثرُوا على عجوز هرمة باركة جنْب عنزتها الميتة، وكان ريقها صابوناً، غير أنها كانت عاجزة عن مدّ يدها إلى الجرة. عندما سقوها ظلت تهتز وتنتفض بين أيديهم، ساعات وساعات، مُطْلقةً أصواتاً شبيهة بأصوات القطط الجائعة، ثم أغمضت عينيْها وهمدتْ. عثروا أيضاً على بعض النساء والرجال هائمين في الأحراش القريبة، وإذ اقتربُوا منهم، فرّوا وهُمْ يصرخون ويبكون، فيما كانت وجوههم شبيهة بوجوه المحتضرين.

الذي روى الواقعة طفل لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، عثروا عليه بين فروع شجرة ضخمة في الغابة التي احترق أكثر من نصفها تقريباً. رَوَاهَا بذلك الهدوء الغريب الذي يأتي بعد الفزع الكبير. كان لا يزال بمايو السباحة، وجسده النحاسي يلمع في الشمس. أما عيناه الواسعتان فكانتا تضيئان بذلك التحدّي الذي يكتسبه كل من مر بمحن قاسية يشيب لها رأس الوليد. قال: «في تلك الأيام القائضة التي ذكر آباؤنا أنهم لم يَشْهَدوا مثلَها في حياتهم، كنا ننزل إلى الشاطئ عند طلوع الشمس. وفي صبيحة يوم الواقعة، أخذنا طريق الشاطئ والدواب لا تزال في مرابضها، والنسوة في مخادعهن، والرجال يتحركون ببطء وجفهونهم مثقلة بالنوم. لم يكن هناك غير بعض الشيوخ المتحلقين تحت الزيتونة المنتصبة أمام المسجد، وكانوا ينظرون باتجاه الشرق بعيون ساهمة. سرْنَا في الطريق المحاذي لغابة ونحن نغني، نرمي الطيور بالحجارة، ونتمشّمُ روائحَ الأشجار والنباتات، وإذْ أخذْنا نقترب من الربوة التي يبدأ بعدها البحرُ، أخذْنا نجري مُطْلقين صيحات المرح. نحن نحب هذه الربوة حبّاً خاصاً لأنها تجعلنا دائما نشعر أننا نكتشف البحر لأول مرةَ. في ذلك الصباح حال وصولنا إلى أعلى الربْوة فوجئنا بوجود آلة ضخمة خضراء على رمل الشاطئ. صاح أحدنا: إنها دبّابة! تأملناها جيداً، كانت بالفعل دبّابة شبيهة بتلك الدبّابات التي رأيناها في التلفزيون وفي بعض الأفلام الحربية. وقفنا صفاً واحداً وعيونُنا إلى الدبّابة.

ما سر وجود الدبّابة في هذا المكان؟ ذلك كان السؤال الذي ربما طاف بذهن الجميع. أما أنا فقد ارتجفتُ من الخوف، وتذكرتُ في تلك اللحظة كل الحروب التي حكى لنا عنها الكبارُ وهم يتنهّدون ثم صرَخ أحدُهم: «ماذا يا أولاد؟! هل أنتم خائفون؟! لقد أتانا البحر بهدية

جميلة لنلعب بها، أفترفضُونها؟» وفي الحين انفجرت في الهواء السّاخن صيحةُ حماس وفرح، وبدا أن حبْل الخوْف الذي مسك بقلوب الجميع قد قطع. أنا أيضا صرختُ متحمّساً مسروراً، رغم أن فمي كان ممتلئاً بمرارة غريبة. جريْنَا كلّنا نحو الدّبابة. وفي لحظة ما، وأنا أجري هابطاً الربوة، تأملتها، فإذا بي أراها تتحرك، صرخت بأعلى صوتي: «إنها تتحرك يا أولاد!»، غير أنهم لم يُعيرُوا اهتماماً لما قلتُ، وظلوا يركضون سعداء باتجاه البحر.

توقفتُ أنا عن الجري. فركْتُ عيني جيّداً وتأملتُها من جديد. كانت تتحرك ببطء مثل حرباء. صرخت ثانية: «لا تقتربوا منها. إنها تتحرك!» ظلوا مُمعنين في الركض. وعندما كانوا يقتربون منها فتحت الدبابةُ فمها الأدْرَدَ وأخذت تطلق الرصاص. تا. تا. تت. تتت. تتت. تتت. جريتَ صاعداً الربوةَ ودقاتُ قلبي تضرب مثل الطبول في صدري واستمر الرصاص يدوي في أذني. وحين التفتُّ كان أصدقائي منتشرين فوق الرمال، وأودية صغيرة من الدم تسيل باتجاه البحر. صرختُ حتى تألّم كاملُ جسدي، ثم عاودتُ الركضَ مبْهُورَ الأنفاس وورائي يُلعْلعُ الرصاصُ حاصداً النّبات، رافعاً الترابَ إلى السماء. سقطتُ مرتين قبل أن أصل إلى أعلَى الربوة، غير أن الرعبَ الذي استولى عليّ جعلني لا أقْوَى على النهوض بسرعة.

ثم وضعتُ الغابةَ بين عيني، وجريتُ نحْوها. ولما أدْركتُ أطرافها، عاينتُ أن الدّبابة أخذتْ تنزل باتجاهها مطلقة حمَمَها على الأشجار. تصاعدَ الدخان كثيفاً، سمعتُ النار وهي تلتهمُ الأعشاب والحشائشَ، ورأيتُ الحيوانات البرية تجري هاربة. ثم أظلمت الدنيا أمامي، ورحتُ أنادي أمي وأنا أبكي بكاءً مُرّاً. ورَغم ذلك واصلتُ الجري بينما كانت الغابة تحترق والدّبابةُ تقصف كل شيء حولها وأمامها.

فجأة هدأ دويُّهَا، ولم أعُدْ أسمَعُ غير صوت النار. وبعدها رأيتُها تصعَدُ ببطء وصمت باتجاه القرية. أردت أن أصرخ من أعلى هذه الشجرة، لأنبّه الناس إلى الخطر، غيْر أن صوتي ماتَ في حلقي. وبين ألْسنة اللهب المتصاعدة إلى السماء رأيت القرية هامدةً تحت الشمس. والشيوخ في نفس موضعهم هامدين ينظرون إلى الشرق بعيون ساهمة ورؤوسهم بين أكتافهم مثل طيور الماء. ظل كلُّ شيء هادئاً. لمْ أعاين من أعلى هذه الشجرة التي بها احتميتُ أيَّ شيء يدلُّ على أن أحداً ما شعر بالدبّابة وهي تزحفُ حاقدةً شرسةً. وحال وصولها إلى أطراف القرية راحتْ تقصفُ بدون توقف. تعالتْ أصواتُ الفزَع من الدوّاب والعباد على حدّ السّواء ثم ارتفع سحابٌ من الغبار غطّى عني كل شيء. وحين

اختفى رأيتُ الدبّابة تواصلُ زحفها الجنوني غير عابئة بشيء!

□ □ □

اليوم رأيت الشاعر الفلسطيني محمود درويش، الذي قَدمَ مع المقاومة بعد إجلائها من بيروت، ينزل المدارجَ الحجرية باتجاه بحر «سيدي بُو سعيد». في الحال اشتهيتُ أن أتحدث إليه قليلاً خصوصاً وأنه من الشعراء المفضلين لديّ في سنوات الشباب الأولى. ولكن حين لم تعُد تفصلني عنهُ سوى بضع خطوات، أجحمتُ عن ذلك قائلا: «اترك الشاعر للحظته حتى لا تفرّ منه!» قلت، ثم رحت أنزل مثله المدارجَ الحجرية باتجاه البحر.

□ □ □

مساء أمس، وفي الساعة السادسة والنصف تحديداً، رحل عنا وإلى الأبد سِّي البشير، العزيز علينا جميعاً. قيل إنه كان يشرب كأس شاي أخضر في مقهاه المفضل، نفس المقهى الذي كان يرتاده الشيخ الكريم العربي الكبادي. ولما انحنى ليلتقط مائة مليم سقطت منه، حين فتح حافظة نقوده ليدفع كأس الشاي، سكَتَ قلبُه. جميع أبناء جيلي فتحُوا عيونهم على الأدب من خلاله، وأنا لا يمكن أن أنسى أبداً قصته الجميلة «برق الليل» التي تابعتها في الراديو وأنا في الخامسة عشرة من عمري. ولا أتردد البتة في قول إن سي البشير يعدّ واحداً من أكثر أدباء هذه البلاد أصالة، وتواضعاً، ومعرفة بالتراث الموسيقي والمعماري القديم. ورغم العُروض المغرية التي قدمت له، ظل سي البشير مكتفياً بذاته، منعزلاً في بيته المتواضع في قلب المدينة العتيقة، يتصفح أسفار التاريخ القديمة، باحثاً فيها عمّا يمكن أن يساعده على نيسان «العهر الثقافي» لهذه الأيام. ودَاعاً سي البشير!.

□ □ □

«ولكن أين مكان الأنا الإنسانية وسط هذا الهذيان؟

طول حياته بحث فإن كُوخ عن أناه بعزيمة وثبات غريبيْن. وهو لم ينتحرِ بسبب نوبة

جنون فجائية، ولا في شطحة الفشل من أجل بلوغ ذلك.

ولكن بالعكس، كان فَانْ كُوخ قد توصل إلى اكتساب أَنَاهُ وإلى اكتشاف ما كانَ، ومن كان، حين قرر الوعي العامُّ للمجتمع أن «ينحره» عقاباً له على إقدامه على الإنفصال عنه».

أنتونان أرتو

□ □ □

تتوالى المصائب هذه الأيام بسرعة جنونية لا طاقة لي على احتمالها. قبل ليلتين، حُمل صلاح إلى مستشفى الأمراض العقلية، وهو في حالة يُرثى لها. لقد أطلق سراحه منذ ما يزيد على الشهرين. وكنْت أمنيّ النفس بزيارته هناك في مدينته البحرية التي أعشقها، حين بلغني الخبر المشؤوم. وتروي عائلته أن صلاح ظلّ محافظاً على مرحه وهدوئه ورباطَة جأشه حتى اللحظة الأخيرة. وليلة الواقعة، كان يتفرجُ على نشرة أخبار الثامنة، وفجأة قفز من كرسيه وراح ينطح رأسه بالجدار مطلقاً صراخاً مرعباً، ولما حَاول أفرادُ عائلته تهدئته، أخذ يعضّهم وهو ينبح مثل كلب. عمّار يقول لي إن صلاح جُنّ جنوناً حقيقياً ولا أمل في شفائه. لا أمتلك الشجاعة الكافية للذهاب إلى المدينة البحرية لمواساة تلك الأم الرائعة!

□ □ □

لا أشعر مطلقاً بالخوف من رسالة التهديد التي وصلتني من الملتحين هذا الصباح. سأبلغُ هدفي قبل أن تنالني خناجرُهم المسمومة!

□ □ □

بين الفقيه الحقود، والديكتاتور العجوز المتصابي، ليس هناك خلاص للشاعر غير ذلك الحبْل المتدلي من السقف ذات فجر صيفي، بلون وجوه أولئك الذين ينتظرون ساعة المقصلة على الإسمنت البارد!

□ □ □

رأيت نفسي في قطار رمادي. وكان جميع الذين حولي رماديين أيضاً: المسافرون ومراقبو التذاكر والحقائب. وأعتقدُ أن الضباب كان كثيفاً، ذلك أني لم أتمكّن من أن أرى من النافذة أيَّ شيء يساعدني على معرفة وجْهة القطار. فقط بين وقت وآخر تبرز أشجارٌ عاريةٌ أو جسورٌ حديدية قديمةٌ، وأنهارٌ قذرةَ، غير أنها سرعان ما تختفي. ولستُ أدري ما الذي كان يجعلني على يقين تام بأني ذاهبٌ لزيارة قبر كافكا والالتقاء بعبْد الفتاح الذي لم أره منذ عشرة أعوام «سيكون ذلك رائعاً!» قلت. وفي ذات اللحظة برز من بين المقاعد الرمادية جندي رمادي بسحنة عابسة وصاح في: «اسْمَع. نحنُ لن نسمحَ لك بأن تطلق العنان لخيالك المريض. وعليك أن تلتزمَ الأدبَ وتُراعي قواعدَ الرّحْلة!».

كنت أريد أن أتحداه، غير أن جنوداً آخرين يُشبهونه تماماً، كما لو أنهم توائمهُ، نبتوا فجأة من وراء ظهره كالفطر. وكان واضحاً أنهم يتابعون ما يجْري بانتباه شديد وأيديهم على زناد أسلحتهم.

- عجباً. هل أكون قد اعتُقلْتُ البارحةَ ثم نسيتُ تماماً؟! تساءلتُ، ثم تطلعت من النافذة، علني أرى ما يدل على أننا نقترب من «البرج»، غير أن الضباب كان سميكاً مثل جدران السجون الحصينة.

- إلى أين؟ تساءلتُ، وأنا أقاومُ حزناً يقرص أحْشائي.

- إلى جهنم وبئس المصير!، قال الجنديُّ المنتصب أمامي مثل مقصلة.

- آ. يبدو أنه يعلم جيّداً ما يدور في خاطري! قلت.

- نعم. أنا أعلمُ جيّداً ما يدور في خاطرك. لذا عليك أن تكون حذراً وإلاّ فإن العاقبة سوف تكون وخيمة! قال الجندي. صمتُّ، وحين نظرتُ من النافذة قصد تفادي نظراته الحاقدة المصوبة تجاهي، رأيتُ صحراء بلقعاً، وأشواكاً عالية، وأسلاكاً حديدية، وجبالاً سوداءَ، وجموعاً غفيرة من الناس يزحفون وليس على أجسادهم سوى قطعة من القماش الأبيض، شبيهة بتلك التي يستعملها الحُجاجُ أثناء الطواف حول الكعبة. وكان هناك عرْجى وعميانٌ وعجائزُ على نقالات، وآخرون يئنون تحت وطأة الحر والعطش.

ثم لا أدري ما الذي حلّ بالقطار والجنود. الشيء الوحيد الذي أتذكره جيّداً هو أنّي وجدتُ نفسي مقيّدَ اليدين والساقين، وحولي رجالٌ بوجوه شاحبة، ولحي شعثاء، يأتمرون على ما يبدو بأوامر شيخ أعرج أحول العينين، يلبس الصّوفَ الخشنَ، ويُمسك بكتاب

أصفرَ ضخماً. والجميع كانوا يلوّحون بسيوف تتلامعُ تحت شمس حارقة بدتْ لي قريبةً حتى لتكاد تلامس رأسي. ثم شرع الشيخ الأعرج الأحولُ يتكلم بلغة لمْ أتمكن من فهمها:

- ميخْرَلاً نَا مْحرَلاً هَلَلاً مسَبْ!

- وهل ارتكبتُ ذنبا؟. صحتُ أنا مذعوراً.

- اصْمُت!

هه... واضحٌ أنه يطلب مني أن أصمتَ. قلتُ. ثم صمتُّ، وفي قلْبي لوعةٌ، بينما راح الشيخ الأعرج الأحولُ يرطنُ بتلك اللغة الغريبة: «نُو ميهي ذَا وكَكْ يفُ فَهُو نَوَوَا عَلاَهْ مَهْجَعْبَتَبُ آ ارْعَشْلاً...» وظَل يهذي على تلك الحال حتى كَاد رأسي ينفجر من شدة الضجر والهلع. وحالما انتهى، رفعَ أنصارُه السيوفَ والأعلام الخضراءَ في السماء وراحوا يهتفون: «رْبكَا هلَلاً! رْبكَا هللاً! رْبكَا هللاً!» وبعد أن شبعوا من الهتاف والتلويح بالسيوف والأعلام، قادوني إلى ساحة شاسعة، مفروشة بالرمل، يقف في وسطها سيّاف هائل الجثة، ينز العرق من وجهه العريض السمين، وتلمع عيناه بشراسة لا مثيل لها، وحول الساحة كان أولئك القومُ، الذين يسترون أجسادهم بقطعة من القماش الأبيض، يلوّحون بقبضاتهم في الهواء، ويهدرون مثل البحر ساعة الهيجان: «رْبكَا هللاً! رْبكَا هللاً! رْبكَا هللاً!».

- ماذا يقولون؟ سألت أنا «الأستاذ» الذي وجدتُه فجأة إلى جانبي، وكان مثلي محلوقَ الرأس، مقيد اليديْنِ والسّاقيْن.

- إنهم ينشدون نشيدَهُم الوطني! أجابَ «الأستاذ».

كنت أنوي أن أسأله إن كان يعرف شيئاً دقيقاً عن أولئك القوم، وعن الشيخ الأعرج الأحول، غير أني رأيتُ جنوداً رماديّين مثلَ أولئك الذين رأيتُهم في القطار يقودون عبد الفتاح إلى قلب الساحة، حيث يقف السّياف، وكان عبد الفتاح هادئاً تماماً كما لو أنه غير مُدْرِك للخطر الذي يتهدّدُه. صحتُ فيه بأعلى صوتي:

- عبد الفتاح. عبد الفتاح!

غير أني لمْ أسمع صوتي، ولم أُعاين لا لدى «الأستاذ» ولا لدى الآخرينَ ما يدل على أنّ صوتي خرجَ مني. سلم الجنود الرماديون عبدَ الفتاح، الذي كان مقيّد اليدين، إلى السيّاف ثم انسحبوا. جثا عبد الفتاح على ركبتيه عقبَ إشارة من السياف، ثم أحنى رأسه.

اشتد هيجان الجموع الغفيرة وبدأت تتململُ وكأنها ترغب في الهجوم علي عبد الفتاح .

- احذر يا عبد الفتاح! صحتُ أنا بأعلى صوتي، غير أن صوتي ظل محبوساً في صدري، وفي تلك اللحظة بالذات، رفع السيّاف سيفَه عالياً، ثم أنزله بقوّة علي العنق الناعم، فتدحرج الرأسُ على المرمر الأبيض مضرّجاً بالدّم، ومن جديد هتفت تلك الجموعُ غاضبة: «رْبكَا هللاّ! رْبكَا هللاّ! رْبكَا هللاّ!».

بعدها لم أعدْ أرى شيئاً غيرَ أمواجٍ من الدماء، وسيوفاً تعمل في الرّقاب .

IX

رائحة الجنوب. وأنت ما الذي تبتغيه في هذا اليوم الأعمش، المادّ قوائمه في كلل مثل كلب يحتضر. ما الذي تبتغيه؟ الذهاب حتى قعر الجحيم؟ أليس من الأفضل أن تعود من حيث أتيتَ كما نصحك عمّار. فُزْ بنفسك إذنْ، وعُدْ إلى منفاك من جديد. عُدْ إلي ضبابك وعُزلتك وصمتك. عُدْ! غير أنه يبدو أنك لا تُريد. واضحٌ أنّك لا تريد. فليكُنْ لك ذلك. فليكُنْ.

رائحةُ الجنوب. زيتونةُ «الجمل»، التي مُستنداً إلى جذعها سرحتَ بخيالك في العالم من خلال كتب الجغرافيا الملونة، وتهجّيت أشعارَ الجاهليين، على أنغام الصراصير في قوائل أغسطس. المساربُ الهابطة الصاعدةُ في الشعاب الوعرة، مفعمةً بروائح القوافل الباحثة عن الربيع الهارب دائماً. شجرةُ العرْعر المنتصبة وسط المقبرة هناك، عند سفح جبل «الأحناش» الأجرد كحياة الناس هناك. القمرُ الذّاهلُ فوق سطوحِ البيوت الطينية مثل بدوية عاشقة. وأمّك. آه أمّك التي تبكي فراقَك منذ عشرة أعوام. هل تقدر على تحمّل رحلة تدوم النهارَ بطوله وسط حافلة قديمة تسيرُ ببطءِ السلحفاة وأنت مثقلٌ بكل هذا الوجَع؟ تقدرُ؟ فليكن لك ذلك إذن. فليكُنْ.

رائحة الجنوب. والمحطة، هي المحطة كما أنتَ رأيتها لما دخلتَ المدينة من بابها الجنوبي أول مرة. ذبابٌ. غبارٌ. شحاذون مكدسون على الأرض يئنّون ويئنّون. نشالون يدورون ويدورون، وعيونهم على جيوب المسافرين. أطفال صغارٌ حفاةٌ بأسمال بالية، ونظرات

منكسرة ووجوه ذليلة يتشبثون بك. يستعطفونك. بْليزْ مسْتر. بْليزْ. ذئاب جائعة تنتظر بروزَ الفريسة من الدغل. وكلُّ شيء يوحي بالخراب والدمار والسقوط. غير أن الفرار لم يعد ممكناً. والحبل الآن مشدود حولَ الرقبة. تتحرك الحافلة العجوز وهي تزعق باستمرار وسط الغبار وضوضاء الباعة والمودّعين. بين وقت وآخر يُخرج السائق القصير المدور رأسَه الأصلعَ من النافذة ليلعن بحدة سواقاً آخرين، متسكعين خاملي الحركة، شحاذين يركُضون وراء امرأة تبدو ميسورة، عجوز تتدحرج ساهية.

تنطلق الحافلة في طريق الجنوب. حركة المرور في أقصى درجات توتّرها. شتائم ولعنات تتصادم في الهواء. زعيقٌ حاد لشاحنات أُجبرتْ على التوقّف. عرباتٌ وراء بغال تسدّ الطريق. رجال المرور يصفّرون متوتّرين، مرتبكين. المارة مغتمون كما لو أنهم يساقون إلى حتفهم. أحياءُ القصدير والطوب متداخلةٌ، متراصةٌ، مزدحمةٌ كالقبور، وفوقها غابة استوائية من الهوائيات. أبقار وخرفان ترعى في الفضاءات الصغيرة المخنوقة. جثثُ كلاب وقطط سحقتها السيارات. أطفالٌ ملطخو الوجوه بالمخاط يلعبون بين أكداس القمامة. مجاري سوداء نتنة، ثقيلة الحركة. نساء ورجال بأزياء البدو يقفون على قارعة الطريق فاغري الأفواه. شيوخ يدبّون بعناء شديد تحت شمْس الخريف الشاحبة. آخرون مستندون إلى حيطان صفّر البول أسفلها، يتابعون حركة المرور بانتباه كما لو أنهم يتابعون مسلسلا تلفزيونيا مثيراً. يافطات إشهار لفنادق فاخرة على البحر، لأنواع من العطور والملابس، والأحذية، والسيارات، والتلفزيونات، والصابون، ومعجون الأسنان، ولمشروبات «توفر لكم الحيوية والنشاط والسعادة الدائمة!». تمتدّ المسافة الطويلة أمامه من جديد، فيرتجف مذعوراً، ويشعر بالرغبة في النزول والتوجه حيناً إلى المطار. غير أن الحافلة العجوز تُضاعف من سرعتها فجأة، وكأنها تريد أن تؤكد له أن التراجع عن القرار، الذي اتخذه حال فراغه من قراءة دفتر ياسين، أصبحَ مستحيلاً.

يستسلم ويخمد في مكانه مثل قنفد. يفتح الجريدة. يتأمّل فيها قليلاً، ثم يطويها بسرعة وقد بدَا عليه الامتعاض. ليس بإمكانك أن تقرأ سطراً واحداً. وربّما كان من الأفضل ألا تشتريها. ما الفائدة؟ كل شيء غدَا الآن واضحاً، وفضولك نضب تماماً ولم يعد له وجود.

بحركة متوتّرة يرمي الجريدة من النافذة، يتململ العجوز البدويُّ الجالسُ بجانبه ملتفاً في برنسه الأشخم وكأنه يريد أن يحتج، ثم يغرس رأسه المغطى بـ«اللحفة» البيضاء الوسخة بين كتفيه، ويهدأ من جديد. تمرّ الحافلة فوق جسر حديديّ، فينفجر دوي كالرعد،

ويرتجّ المسافرون ارتجاجاً عنيفاً. في الصفوف الأمامية، يصوّت طفل بالبكاء فيزمجر رجل بصوت أجش «أسكتيه وإلاّ كسرت رأسه!». يتحول بكاء الطفل إلى شهيق خافت، ثم لا يلبث أن يتلاشى تماماً. الخراب اكتمل الآن، ولم يعد بالإمكان إصلاح أي شيء. و«الزعيم الأوحد» يحلم بعودة الشباب والفحولة مستعيناً بالصبايا ذوات الستة عشر ربيعاً. «شباب دائم وعمر مديد سيدي الرئيس!» ينقنق الشعراء العموديون مثل الضفادع في البِرْكة الآسنة. والسيدة الأولى في فستانها الصيفي المفتوح على صدرها المتفخ باللحم الفاسد، المبقّع ببثور الشيخوخة، تروح وتجيء في شرفة القصر الجمهوري طامعة في نظرة واحدة من رئيس حرس الشرف. الخراب اكتمل الآن.

تبتعد الحافلة عن المدينة. تتضاءل البنايات، ينتبه هو إلى أن سواني الزيتون والبرتقال، التي كانت هناك قبل عشرة أعوام، مُحيت تماماً ولم يعدْ لها أثر يذكر. لا شيء على جانبي الطريق غير أكوام القمامة والسيارات المتروكة وفضلات الورشات والمعامل. الخراب اكتمل الآن. والسيدة الأولى تحب القطط والأيتام.

حاجز شرطة. تتوقف الحافلة. يصعد شرطيان يضعان نظارات سوداء. يتفرسان طويلا في الوجوه، ثم يشرعان في فحص أوراق الهوية بدقة متناهية. بعدها يطلبان من كهل مفرطح الرأس، عظيم الجثة، بجلابية أفغانية، ولحية وسخة تتدلى على صدره، وأنف ضخم يمتلئ بالعطوس، أن يفتح حقيبته. يفتحها. يقلبان محتوياتها بعصبية واضحة، ثم يمطران صاحبها بأسئلة كثيرة. متى قدم إلى العاصمة؟ لماذا؟ أين سكن؟ إلى أين هو ذاهب؟ يجيب الكهل على جميع الأسئلة بحذر شديد، وشفتاه تختلجان، وعيناه ترفّان. ينزل الشرطيان. تواصل الحافلة رحلتها من جديد. أكيد أن هذه السفرة غير المتوقعة سوف تعمق الجراح التي انتفخت إلى حد الآن، وتضاعف من عنف تلك الأوجاع التي تأكل روحك وجسدك مثل حريق هائل.

تمر الحافلة أمام صف من محلات خشبية، تتدلى أمام واجهاتها خرفان مسلوخة، بينما انهمك بعضُ الفتيان في إعداد المشوي للزبائن المتحلّقين حول طاولات موضوعة هكذا في العراء. «هذه القبائل المسلحة بالحقد -قال ياسين- لا تتحمل أن ترى الشّاعرَ وحيداً منعزلاً، تماماً مثل الثور الإسباني الذي لا يتحمل أن يرى اللون الأحمر. ولأنها مسكونة بجنون القتل والنحر، فإنها لا تبيح للشاعر اختيار طريقة موته. لذا أرى أن الانتحار هو أقدس فعل يقوم به الشاعر لإثبات ذاتيته محطّماً بذلك نظام القبائل الصارم المستمر منذ مئات السنين».

أنت تتذكر جيّداً هذه الكلمات التي قالها لك ياسين قبل سفرك بفترة وجيزة. وتتذكر أيضاً أنّك لم تُعِرْها اهتماماً كبيراً، حين سمعْتها، لأنك كنتَ تعتقد أنها من وحي كتاب وُجوديّ فرَغَ من قراءته، أو فيلم من أفلام «الهاراكيري» اليابانية التي يعشقها. ولكن ما جدوى الذكريات الآن، وهذه الحافلة العجوز تحمِلُكَ نحو الجنوب البعيد مطعوناً بألف طعنة، مضرجاً بدم جميع الهزائم التي مُنيتَ بها عبر أربعين عاماً فرّت منك بسرعة الأرانب الهاربة من كلاب الصيد.

توقف الحافلة في مدينة صغيرة تتثاءب ضجراً في غبار الخريف الكثيف، فيهجم عليها المتسولون، وباعة البيض المسلوق والماء والسجائر والساندويشات. يعلو الضجيج، ويشتد الهرج والمرج. يخرج بعض المسافرين رؤوسهم ليشتروا ما يحتاجونه.

بعد حوالي ربع ساعة. تواصل الحافلة رحلتها عبر سهول محروثة. يتنحنح رجل له وجه طويل محفور بآثار الجذري، ثم يقول لصاحبه الزنجي: «أنا يا أخي أخاف من المدينة ومن كل شيء فيها. وذلك اليوم فقدت صوابي بسبب كثرة الضجيج والزحام حتى أني قطعت الشارع دون أن أنظر إلى يميني أوإلى شمالي كما أوصاني بذلك أهل الخير، العارفون بشؤون المدن. وبغتة اندفعت نحوي سيارة بسرعة مذهلة. وحين توقفت كانت على مسافة شبرين مني. نعم يا أخي الطاهر. على مسافة شبرين فقط. ولولا ألطاف الله لكنت هلكت قبل أن أنطق بالشهادة. ومرة أخرى، كان ذلك قبل الخميس الأسود، كنت أمشي في شارع كبير، وإذا بشرطي يابس كعود الحطب يصيح في: «أوراقك!» أعطيته بطاقة هويتي تفحصها مليّا ثم صاح في: «هيا اتبعني!» تبعته وحال وصولنا إلى دائرة الشرطة، ادخلني حجرة فارغة تماماً، ثم أغلق علي الباب. انتظرت ساعة. ساعتين. أربع. وبعدئذ دخل علي شرطي آخر ضخم، عريض وقال لي: «تعال!» أجلسني أمامه ثم راح يمطرني بالأسئلة. اسمي؟ اسم جدي؟ اسم جد جدي؟ مسقط رأسي؟ كم عدد أولادي؟ ماذا أفعل في العاصمة؟ ماذا. ماذا. ماذا. ماذا. ثم هذا السؤال الذي لم أسمع أغرب منه في حياتي: «متى التقيت الزيقريشت آخر مرة؟» الزيقويشت؟! هل هو إنس أم جان؟ قلت أنا. كف الشرطي عن ضرب آلته ثم صاح في: «أتسخر مني يا وجه الكلب؟!» أنا أسخر منه؟! وهل يقدر واحد مثلي أن يسخر من الحكام؟ معاذ الله سيدي. معاذ الله. غير أن الشرطي لم يرحمني، وفي الحال نادى على أخرين وقال لهم: «أدّبو هذا الكلب!» وفي رمشة عين، كنت مثل كرة الخرق بين أيديهم وأرجلهم. الزيقويتش؟! يا إلهي! ولا مرة سمعت اسما

فريبا كهذا! وبعد أن أشبعني أولئك القوم ضرباً ورفساً بالأحذية الثقيلة، رموني مع أخرين في زنزانة تفوح منها روائح البول والخراء. وبعد أسبوع بأكمله، فتحوا الباب، ونادوني، فتبعتهم وأنا لا أكاد أرى ما أمامي. أعادوا إليّ بطاقة هويتي، ثم صاحوا في:

- هيا. انصرف إلى حال سبيلك.

قلت لهم:

- أشكركم أيها السادة شكراً جريلاً. ولكن هل تسمحون لي بسؤال واحد فقط قبل أن أذهب؟

- هيا تكلم. وبسرعة!، صاحوا هُم.

- هل بإمكانكم أن تدلوني على الزيقويشت الذي بسببه ذقتُ كل هذا العذاب؟ قلت أنا.

- هيا انصرف. والا أعدناك إلى الزنزانة حيناً! صاحوا هم. يصمت الفلاح ذو الوجه الطويل المحفور بالتجاعيد، ثم يميل على صاحبه الزنجي ويقول له:

- هل بإمكانك أن توضح لي لماذا أصبحت الدنيا على هذا النحو العجيب هذه الأيام؟!

- نحن في الهوى سواء! يجيب الزنجي.

تواصل الحافلة العجوز رحلتها البطيئة متوقفة بين ساعة وأخرى في هذه القرية أو تلك، أو عند حواجز شرطة. تزداد الأرض عراء ووحشية. غربان تحلق فوق هضاب جرداء. أشواك بشعة. بقراتٌ هزيلة ترعى القش، حوانيت طوب واطئة، متآكلة الحيطان، يتحلق أمامها رجال بوجوه جافة. وعيون قاسية.

تهبط الحافلة مُنحدراً وعرا، فتشرع العجوز، الجالسة بجانب الكهل ذي الجلابية الأفغانية في التقيء. تختلط روائح المازوت والعرق والصنان والبرانيس الصوفية التي لم تعرف الماء منذ زمن طويل برائحة بطن مريض. يستديو هو إلى اليمين متحاشيا النظر إلى القيء الأصفر اللزج، فإذا بالشيخ البدوي الجالس بجانبه مثبت عليه عينيه الكابيتين، محملق فيه بنوع من الإصرار والذهول كما لو انه ينتبه إلى وجوده لأول مرة.

الشمس ترقص الآن رقصاتها الأخيرة فوق الجبال الصحراوية الكئيبة الجرداء. الرحلة تبدو كما لو أنها لن تنتهي أبداً. الشيخ لا يزال يلتهمه بنظراته ثم فجأة يمد رأسه نحوه ويسأله:

- ألست عبد الفتاح، ابن المرحوم اسماعيل خليل؟!

تسد حلقة غصة ثقيلة صلبة كالحجر يدق قلبه دقات عنيفة سارعة. يتفصد جبينه عرقاً. تختلج ركبتاه، ويعتريه إضراب شديدٌ كما لو أن السرَّ الذي حرص علي إخفائه على مدى أعوام طويلة قد انكشفت للتو، وبات معروفا لدى الجميع.

- نعم. أنت عبد الفتاح. وأنا أعرف أباك جيداً. وأتذكرك لما كنت تلعب وتقرأ الكتب تحت زيتونة «الجمل». هل نسيتني؟! أنا عمك العيدودي الذي كان يعطيك الحلوى دائما. لقد كنت صبيا ذكيا. وكان أبوك رحمه الله رجلا طيبا. بل أطيب خلق الله. منذ زمن طويل لم أسمع عنك خبيرا. ودائماً أمني النفس بزيارة أمك. لكن الوقت يمر بسرعة مذهلة ولا يتيح لنا فرصة الإيفاء بالتزاماتنا تجاه من نحب؟ ها قد كبرت. ماذا تفعل الآن؟! لا بد أنك صرت شخصيةً محترمة. كنت صبيا يُضرب بك المثل في النباهة. كنت تلتهم الكتب التهاما، وتحفظ أشعار القدماء عن ظهر قلب. نعم. أتذكر ذلك جيدا، وأنا كنت أعطيك الحلوى وأتحدث إلى زوجتي عنك طويلا. هل تتذكر زوجتي؟ كانت تزور أمك بين وقت وآخر. وكانت هي أيضا تحبك كما لو أنك فلذة كبدها. ودائما كانت تخاف عليك من العيون الخبيثة. الله يرحمها. ماتت العام الماضي. حزنت عليها مثلما حزنت على أبيك. كان رجلا شهما أبوك. ولك يكن يخاف أحدا غير الله تعالى. ها قد أصبحت رجلا بأتم معنى الكلمة. لا بد أن أمك فخورة بك. أليس كذلك؟! وكيف لا تفخر بواحد مثلك له مثل هذه الرجولة. وهذا الذكاء. وهذه الحكمة!«.

مرة أخرى تتوقف الحافلة العجوز وسط أرض صلدة قاحلة. لا شيء غير الصخور والأشواك. يصيح السائق معلناً أن هناك عطباً بسيطاً لابد من إصلاحه. ينزل جميع المسافرين. يتحلقون حول الحافلة وهُمْ يدخنون ويتحدثون بأصوات عالية. ينسل هُوَ هارباً، وبخطوات سريعة يغُوص في الأرض الصلدة القاحلة. وحين يلتفت يرى الحافلة والمسافرين وقد تحولوا إلى كتلة سوداء مبهمة في العتمة الزاحفة على مهل. يلبُد وراء صخرة كبيرة، ويظل ينتظرُ، مُستمعاً إلى الأرض وهي تفتح جسَدها الصلدَ الخشن لليل الخريف. تزعق الكتلةُ السوداء المبهَمةُ خمس مرات. تصمتُ بعض الوقت ثم تزعق خمس مرات أخرى بأكثر حدة وعنف. بعدها تتحرك. يظل هو يتأمّلها بنظراته حتى تختفي في الأفق. يتنفس الصعداء. «من الصحراء جئت وإلى الصحراد تعود!» يقول، ثم يلفه الليل.

سبتمبر 1993 - يناير 1994

مطبعة فضالة

3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)
الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)
فاكس : 32.46.44 (03)

مطبعة فضالة ـــ المحمدية (المغرب)

زينب؟ أين زينب الجميلة التي كتبنَا عنها جميعاً قصائد حبّنا عندما كنا في سن العشرين. لقد اختفت فجأة، ولا أحد يدري إلى أيّ وجهة اتجهت. تُرى أيّ ريح خبيثة حملت تلك الغزالة السمراء بعيداً عنا، آه، كم أنا مشتاق إليها! أين أستطيع أن ألقاك يا زينب العزيزة حتى أشكو إليك همومَ أبناءجيلي المهزوم، جيلي الذي هام بك عندما كنت تزغردين وسط هُرَاوات الميليشيات والقنابل المسيلة للدموع. كل شيء غداً الآن حُطاماً. لكأنّنا كُنّا نعيش حُلماً سعيداً، ثم استيقظنا لنجدَ أنفسنا في إحدى الثكنات الكئيبة المرمية وسط الصحراء. ثكنة تحيط بها أسوار اسمنتيةٌ عاليةٌ يقف عليها جنود مدججون بالسلاح. حركة واحدة وتموت! يصيحون في كل من يفكر في الخروج عن الصفّ. نعم. هكذا أرى إلى الأمر. شيء يذكّر بلوحة «المساجين» لفَانْ جُوخْ. رجال رماديون مكبّلون بالسلاسل يدورون ويدورون، إلى ما لا نهاية وحولهم الفراغ والصمت والموت. نحن أيضا ندور، ندور، ندور. وسوف نظل ندور حتى نتهاوى في العتمة، الواحد بعد الآخر. ملأ سمّار الكأسين. وبعد أنْ شَربَ من كأسه قليلاً، نهض، ومن جديد أخذ يروحُ ويجيء جاراً رجليه فوق أرضية الغرفة التي أخذت تبردُ شيئاً فشيئاً.

وأنا؟ كيف أنا الآن؟ أكيد أنك ارتعبتَ حين رأيتني وقد شبتُ قبل الأوان، وانحنيتُ تحت هموم هذا الوطن الضيّق كعين الإبرة. انظُرْ كمْ أنا وحيد يا صديقي. لا شيء حولي غير القناني الفارغة وأكداس الكتب والمجلات المغطاة بالغبار وضجيج المسلسلات المصرية القادمة من شقق العمارة. لقد استوى الأمرعندي، وفقدتُ كلَّ اهتمام وكلَّ رغبة. آخذ كتاباً أتصفحه، لا أقرؤه، بل انظر فيه كالأعمى، ثم أرميه بعيداً عنّي كما لو أنه ثعبانٌ مسموم أو فأر ميت. أفتح جريدة أو مجلة، أقضم فقرة أو فقرتين من هذا المقال أو ذاك، ثم ألقي بها في الزبالة، أو أتناول عليها غذائي أو عشائي. لا أستمع إلى الموسيقي إلاّ عندما أجلس في مقهى. وهذا يحدث نادراً. لا أشتري ثياباً جديدة، أرقّع، أرقّع. كل ليلة أرقّع. لا أنام إلاّ قليلاً. ودائما أستيقظ وأنا في حالة من الفزع الشديد. كوابيس وهلوسات تتوالى عليّ كل ليلة. أرى نفسي مصلوباً على أبواب ترشيش. أرى جنوداً عابسين يضغطون بجزماتهم الثقيلة على بطني وأنا أتقيأ دوداً أسود. أرى مساميرَحادّةً تنبتُ فوق ضلعتي. أرى نفسي مقيّداً وسط آلاف من الفئران الميتة. أرى الملتحين يطعمونني الزقوم وهم ينشدون البردة. أرَى كلاباً بائسة تأكل من لحمي. لم أعد أهتمّ بشيء على الإطلاق. جميع الكوارث بالنسبة إليّ متساوية. لا فرق عندي بين أن يموت فأر هنا بين الكتب والمجلات وبين أن يهلك ألف شخص في زلزال في الهند، أو في مجاعة في القرن الإفريقي.